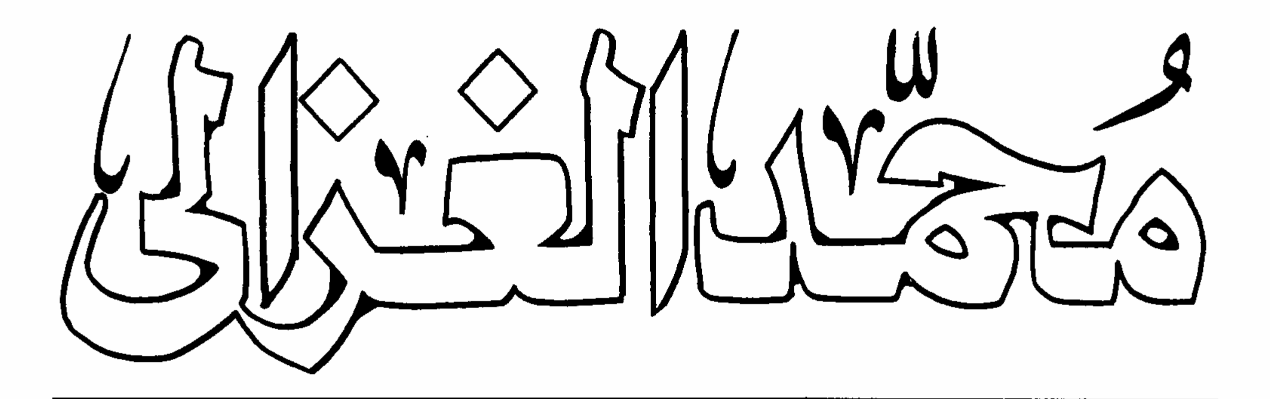


من مقالات

الشيخ الغزالى

« الجزء الأول »

جمع / عبد الحميد حسانين حسن

طبعة جديدة ومحققة

36



العـــنـــوان: من مقالات الشيخ (محمد الغزالى) الجزء الأول.

المؤلـــــف: الشيخ/ محمد الغزالى .

إشـــراف عـام: داليا محمد إبراهيم .

تاريخ النشــر: الطبعة الرابعة أكتوبر 2005م .

رقــم الإيـداع: 2002/ 2670

الترقيم الدولى: ISBN 977-14-1754-1

الإدارة العامة للنشــر: 21 ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة
ت: 3466434(02)-3472864 (02) فاكس:3462576 (02) ص.ب:21 إمبابة
البريد الإلكترونى للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmisr.com

المطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فـــاكس: 8330296 (02)
البـريد الإلكتــرونى للمطابع: press@nahdetmisr.com

مـركـز التـوزيع الرئيـسى: 18 ش كـامل صـدقى - الفـجـالة - القـاهــرة - ص . ب : 96 الفجـالـــة - القـــاهـــرة.
ت : 5909827 (02) - 5908895 (02) - فـــاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجانى: 08002226222
البـريد الإلكتـرونى لإدارة البـيع: sales @nahdetmisr.com

مـركـز التـوزيع بالإسـكندرية: 408 طـريـق الحريـة (رشـــدى)
ت: 5462090 (03)

مـركـز التـوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبـد الســـلام عـــارف
ت: 2259675 (050)

موقع الشـركة على الإنترنت: www.nahdetmisr.com
مـوقـع البيـع على الإنترنت: www.enahda.com



احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجـوز طبع أو نشـر أو تصـوير أو تخـزين أى جـزء من هـذا الكتـاب بـأية وسـيلة إلكـترونيـة أو مـيكانيكيـة أو بالتصـوير أو خـلاف ذلك إلا بإذن كـتـابى صـريح من النـاشـر.

المقدمــــة

يعد فضيلة الشيخ/ محمد الغزالى من أبرز علماء الأمة الإسلامية ومفكريها بالقرن العشرين الذين أثروا الحياة الدينية والفكرية بآرائهم المتجددة فى سبيل تنوير وتبصير المجتمع المسلم بأمور دينه .

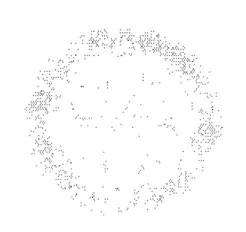
وقد كان لآرائه وأفكاره الدينية المتوازنة بين إصلاح الإنسان وإعمار الدنيا وإعمار الآخرة أثره البالغ فى إحياء وبعث الروح الدينية الصحيحة فى نفوس العديد من المسلمين ليس فقط بمصر أو العالم العربى وإنما على نطاق العالم الإسلامى بأسره .

وقد كان أهم ما يتميز به فضيلة الشيخ المجدد/ محمد الغزالى جرأته فى الحق حتى أصبح رائدًا لمنهج يعتمد على الفهم الصحيح للنصوص القرآنية والأحاديث الصحيحة وسيرة السلف الصالح والمصلحة العامة للمسلمين ومتطلبات العصر .

ولهذا ، فقد اتفق من اتفق معه واختلف البعض حول آرائه وفتاواه العصرية ولكن من المؤكد أن الجميع قد انجذب لسحر بيانه ووضوح حجته .

ومن خلال ذلك الزخم الهائل من تراث فضيلة الشيخ/ محمد الغزالى قام الأستاذ/ عبد الحميد حسانين حسن بجهد طيب فى جمع المقالات غير الدورية التى قام الشيخ بنشرها فى كبرى المجلات والدوريات بأنحاء العالم الإسلامى عسى أن ينتفع المسلمون بآرائه وأفكاره .

وقد عنيت **دار نهضة مصر** بنشر هذه المقالات فى أجزائها الثلاثة ؛ رغبة فى الحفاظ على تراث الشيخ الجليل .



التربيـة الدينيّـة أوّلاً..

فى صـدر تاريخنا وعلى امتـداده مع الزمن كـان العـالم الإسـلامى يعـرف بحـبه للجهاد ، وارتضائه لأشق التضحيات كى يحق الحق ويبطل الباطل .

كان هذا العالم الرحب عارم القوى الأدبية والمادية حتى يئس المعتدون من طول الاشتباك معه ، فقد كبح جماحهم ، وقلم أظافرهم ، ورد فلولهم مذعورة من حيث جاءت ، وألحق بهم من المغارم والآلام مايظل بينهم عبرة متوارثة وتأديبًا مرهوبًا .

ويرجع ذلك إلى أمور عدة : أولها : أن الحقائق الدينية عندنا لاتنفك أبدًا عن أسباب صيانتها ؛ ودواعى حمايتها ، فهى مغلفة بغطاء صلب يكسر أنياب الوحوش إذا حاولت قضمها؛وذلك هو السر فى بقاء عقائدنا سليمة برغم المحاولات المتكررة لاستباحتها ، تلك المحاولات التى نجحت فى اجتياح عقائد أخرى أو الانحراف بها عن أصلها .

ثم إن الإسلام جعل حراسة الحق أرفع العبادات أجرًا ، أجل فلولا يقظة أولئك الحراس وتفانيهم ما بقى للإيمان منار ، ولاسرى له شعاع «**قيل يارسول الله : ما يعدل الجهاد فى سبيل الله؟ قال : لاتستطيعونه! فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا ، كل ذلك وهو يقول : لاتستطيعونه! ثم قال : مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لايفتر من صلاة ولاصيام ، حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله**»[١] .

وإذا كان فقدان الحياة أمرًا مقلقًا لبعض الناس فإن ترك الدنيا بالنسبة إلى المجاهدين بداية تكريم إلهى مرموق الجلال شهى المنال حتى إن النبى ﷺ حلف يرجو هذا المصير «**والذى نفس محمد بيده لَوَددْتُ أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل**»[٢] فأى إغراء بالاستماتة فى إعلاء كلمة الله ونصرة الدين أعظم من هذا الإغراء؟

لقد كانت صيحة الجهاد المقدس قديمًا تجتذب الشباب والشيب ، وتستهوى الجماهير من كل لون ، فإذا سيل لا آخر له من أولى الفداء والنجدة يصب فى الميدان المشتعل ، فما تضع الحرب أوزارها إلا بعد أن تكوى أعداء الله ، وتلقنهم درسًا لايُنسى . .

---

(١) ، (٢) الحديثان من رواية البخارى .

هل أصبحت هذه الخصائص الإسلامية ذكريات مضت ، أم إنها محفورة فى عقلنا الباطن تحتاج إلى من يزيل عنها الغبار وحسب؟!

إن الاستعمار الذى زحف على العالم الإسلامى خلال كبوته الأخيرة بذل جهودا هائلة لشَغل المسلمين عن هذه المعانى ، أو لقتل هذه الخصائص النفسية فى حياتهم العامة ، وذلك ليضمن فرض ظلماته ومظالمه دون أية مقاومة!!

وقد توسل إلى ذلك بتكثير الشهوات أمام العيون الجائعة ، وتوهين العقائد والفضائل التى تعصم عن الدنايا ، وإبعاد الإسلام شكلاً وموضوعًا عن كل مجال جاد ، وتضخيم كل نزعة محلية أو شخصية تمزق الأخوة الجامعة ، وتُوهِى الرباط العام بين أشتات المسلمين . وقد أصاب خلال القرن الأخير نجاحًا ملحوظًا فى سبيل غايته تلك .

ومن ثم لم تنجح محاولات تجميع المسلمين لصد العدو الذى جثم على أرضهم ، واستباح مقدساتهم . وماقيمة هذا التجميع؟ إذا كان الذين ندعوهم قد تحللوا من الإيمان وفرائضه ، والقرآن وأحكامه ، إن تجميع الأصفار لاينتج عددًا له قيمة!!وإن الجهد الأول المعقول يكمن فى رد المسلمين إلى دينهم ، وتصحيح معالمه ومطالبه فى شئونهم ، ماظهر منها ومابطن .

عندئذ يُدْعَون فيستجيبون ، ويكافحون فينتصرون ، ويحتشدون فى معارك الشرف ، فيبتسم لهم النصر القريب ، وتتفتح لهم جنات الرضوان .

إن الرجل ذا العقيدة عندما يقاتل لايقف دونه شيء ، أعجبتنى هذه القصة الرمزية الوجيزة ، أسوقها هنا لما تنضح به من دلالة رائعة :

حكوا : أنهم فيما مضى كانوا يعبدون شجرة من دون الله ، فخرج رجل مؤمن من صومعته ، وأخذ معه فأسًا ليقطع بها تلك الشجرة ، غَيْرةً لله وحمية لدينه!!

فتمثل له إبليس فى صورة رجل وقال له : إلى أين أنت ذاهب؟ قال : أقطع تلك الشجرة التى تُعبد من دون الله ، فقال له : اتركها وأنا أعطيك درهمين كل يوم ، تجدهما تحت وسادتك إذا استيقظت كل صباح!

فطمع الرجل فى المال ، وانثنى عن غرضه ، فلما أصبح لم يجد تحت وسادته شيئًا ، وظل كذلك ثلاثة أيام ، فخرج مغضبًا ومعه الفأس ليقطع الشجرة .

فاستقبله إبليس قائلاً : إلى أين أنت ذاهب؟ قال أقطع تلك الشجرة! قال : ارجع فلو دنوت منها قطعت عنقك .

لقد خرجت فى المرة الأولى غاضبًا لله فما كان أحد يقدر على منعك!!

أما هذه المرة فقد أتيت غاضبًا للدنيا التى فاتتك ، فما لك مهابة ، ولا تستطيع بلوغ أربك فارجع عاجزًا مخذولاً .

إن الغزو الثقافى للعالم الإسلامى استمات فى محو الإيمان الخالص وبواعثه المجردة ، استمات فى تعليق الأجيال الجديدة بعرض الدنيا ولذة الحياة ، استمات فى إرخاص المثل الرفيعة وترجيح المنافع العاجلة .

ويوم تكثر النماذج المعلولة من عبيد الحياة ومدمنى الشهوات **فإن العدوان يشق طريقه كالسكين فى الزبد** ، لايلقى عائقا ولا عنتا .

وهذا هو السبب فى جؤارنا الدائم بضرورة بناء المجتمع على الدين وفضائله ، فإن ذلك ليس استجابة للحق فقط ، بل **هو السياج الذى يحمينا فى الدنيا** كما ينقذنا فى الآخرة .

إن ترك صلاة ما ، قد يكون إضاعة فريضة مهمة ، وإشباع نزوة خاصة قد يكون ارتكاب جريمة مخلة ، لكن هذا وذاك يمثلان فى الأمة المنحرفة انهيار المقاومة المؤمنة والتمهيد لمرور العدوان الباغى دون رغبة فى جهاد أو أمل فى استشهاد ، ولعل ذلك سر قوله تعالى : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾(١) .

إن كلمة الجهاد المقدس إذا قيلت ـ قديما ـ كان لها صدًى نفسى واجتماعى بعيد المدى ؛ لأن التربية الدينية السائدة رفضت التثاقل إلى الأرض والتخاذل عن الواجب ، وعدت ذلك طريق العار والنار وخزى الدنيا والآخرة .

وهذه التربية المغالية بدين الله ، المؤثرة لرضاه أبدًا هى التى تفتقر إليها أمتنا الإسلامية الكبرى فى شرق العالم وغربه .

وكل مؤتمر إسلامى لايسبقه هذا التمهيد الحتم فلن يكون إلا طبلا أجوف!!

والتربية الدينية التى ننشدها ليست ازورارًا عن مباهج الحياة التى تهفو إليها نفوس البشر ، ولكنها تربية تستهدف إدارة الحياة على محور من الشرف والاستقامة ، وجعل الإنسان مستعداً فى كل وقت لتطليق متعه إذا اعترضت طريق الواجب .

---

(١) مريم : ٥٩ .

كنت أقرأ مقالا مترجما فى أدب النفس فاستغربت للتلاقى الجميل بين معانيه وبين مواريثنا الإسلامية المعروفة ، التى يجهلها للأسف كثير من الناس .

تأمل معى هذه العبارة «يقول جوته الشاعر الألمانى : **من كان غنيًا فى دخيلة نفسه فقلما يفتقر إلى شىء من خارجها!»** .

أليس ذلك ترجمة أمينة لقول رسول الله ﷺ :

«ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»!

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«ترى كثرة المال هو الغنى؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : فترى قلة المال هو الفقر؟ قلت : نعم يارسول الله ، قال : إنما الغنى غنى القلب والفقر فقر القلب» .

واسمع هذه العبارة من المقال المذكور : **« النفس هى موطن العلل المضنية ، وهى الجديرة بالعناية والتعهد ، فإذا طلبت منها أن تسوس بدنك سياسة صالحة ، فاحرص على أن تعطيها من القوت ما تقوى به وتصح ، هذا القوت شىء آخر غير الأخبار المثيرة والملاهى المغرية والأحاديث التافهة والملذات البراقة الفارغة ، ثم انظر إليها كيف تقوى بعد وتشتد ، إن التافه الخسيس مفسد للنفس! واعلم أن كل فكرة تفسح لها مكانًا فى عقلك ، وكل عاطفة تتسلل إلى فؤادك تترك فيك أثرها ، وتسلك بك أحد طريقين : إما أن تعجزك عن مزاولة الحياة ، وإما أن تزيدك اقتدارًا وأملاً»** .

أليس هذا الكلام المترجم شرحًا دقيقًا لقول البوصيرى .

وإذا حَلَّت الهداية نفسًا ... نشطت للعبادة الأعضاء!

وتمهيدا حسنًا لقول ابن الرومى :

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى ، مستقيم وأعوج

واقرأ هذه الكلمة أيضا من المقال المترجم[1] : **«رب رجل وقع من الحياة فى مثل الأرض الموحلة فكادت تبتلعه ، ولكنه ظل يجاهد للنجاة مستيئسا ، وبينما هو كذلك انهارت قواه ، وشق عليه الجهاد ، وأسرعوا به إلى الطبيب . . . إن الطبيب لم يجد بجسده علة ظاهرة . كل مايحتاج إليه الرجل من أول أمره ، ناصح يعلمه كيف ينازل الحياة وجها لوجه لا تثنيه عقبة ولا رهبة!»** .

(١) المختار . . مختصرة عن مجلة «ذى فورم» .

إن هذا الكلام ذَكَّرَنِى بما رُوِىَ عن جعفر الصادق : «**من طلب مالم يخلق تعب ولم يرزق! قيل وماذاك؟ قال : الراحة فى الدنيا**» .

وأنشدوا :

خاب من يطلب شيئا لايكون!	**يطلب الراحة فى دار الفنا**

إن التربية التى ننشدها نحن المسلمين ليست بدعا من التفكير الإنسانى الراشد إنها صياغة الأجيال فى قوالب تجعلها صالحة لخدمة الحق ، وأداء ضرائبه ، واحتقار الدنيا يوم يكون الاستمساك بها مضيعة للإيمان ، ومغاضبة للرحمن .

والاستعمار يوم وضع يده على العالم الإسلامى من مائة سنة صب الأجيال الناشئة فى قوالب أخرى ، نمت بعدها وهى تبحث عن الشهوات ، وتخلد إلى الأرض ، فلما ختلها عن دينها بهذه التربية الدنيئة استمكن من دنياها ، فأمست جسدا ونفسا لاتملك أمرها ، ولا تحكم يومها ولا غدها .

بل إنها فى تقليدها للعالم الأقوى تقع فى تفاوت مثير عندما تنقل المباذل ، ومظاهر التفسخ فى الحضارة الأوروبية تنقلها بسرعة الصوت أما عندما تنقل علما نافعا ، وخيرا يسيرا ، فإن ذلك يتم بسرعة السلحفاة ، وكثير من الشعوب الإسلامية تبيع ثرواتها المعدنية والزراعية بأكوام من المواد المستهلكة ، وأدوات الزينة والترف مع فقرها المدقع إلى مايدفع عنها جشع العدو ونياته السود فى اغتيالها وإبادتها . .!!

وظاهر أن هذا السلوك استجابة طبيعية لأسلوب التربية الذى أخذت به من الصفر ، وأثر محتوم لاتخاذ القرآن مهجورًا ، ونبذ تعاليمه وقيمه ، وهل ينتج ذلك إلا طفولة تفرح باللعب المصنوعة ، والطرف الجديدة ، والملابس المزركشة ، والمظاهر الفارغة؟ ولابأس بعد توفير هذا كله من استصحاب بعض الآثار الدينية السهلة! ولتكن هذه الآثار الاحتفال بذكرى قديمة أو زيارة قبر شهير!!

ثم يسمى هذا السلوك التافه تدينًا!!

لقد جرب المسلمون الانسلاخ عن دينهم ، واطراح آدابه ، وترك جهاده فماذا جر عليهم ذلك؟ حصد خضراءهم فى الأندلس فصفرت منهم بلاد طالما ازدانت بهم وعنت لهم ، ومازال يرن فى أذنى قول الشاعر :

أين سكانك العزاز علينا؟	**قلت يوما لدار قوم تفانوا**
ثم ساروا ولست أعلم أينا!!	**فأجابت هنا أقاموا قليلاً**

أسمعت هذا النغم الحزين يروى فى اقتضاب عقبى اللهو واللعب، عقبى إضاعة الصلاة واتباع الشهوات، إن عرب الأندلس لم يتحولوا عن دارهم طائعين، ولكنهم أُخرجوا مطرودين.

أفلا يرعوى الأحفاد مما أصاب الأجداد؟

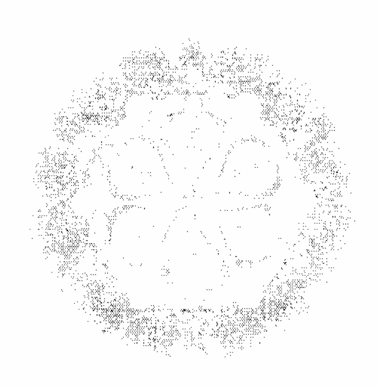
لقد قرأت أنباء مؤتمرات عربية وإسلامية كثيرة اجتمعت لعلاج مشكلة فلسطين فكنت أترك الصحف جانبًا ثم أهمس إلى نفسى: هناك خطوة تسبق هذا كله، خطوة لاغنى عنها أبدًا.

هى أن يدخل المسلمون فى الإسلام.

إننى ألمح فى كل ناحية استهانة بالفرائض، وتطلعا إلى الشهوات، وزهادة فى المخاطرة والتعب، وإيثارًا للسطوح عن الأعماق والأشكال عن الحقائق، وهذه الخلال تهدم البناء القائم، فكيف تعيد مجدًا تهدم، أو ترد عدوا توغل..؟!!

ما أحرانا أن نعقل التحذير النبوى الكريم: «إنما أخشى عليكم شهوات الْغَىِّ فى بطونكم وفروجكم ومُضِلاّت الهوى».

فإذا أصغينا إلى هذا النذير ابتعدنا عن منحدر ليست وراءه إلا هاوية لاقَرَار لها، ثوى فيها ـ من قبلنا ـ المفرطون والجاحدون.!!



محنة الضمير الديني هناك..

هذه سياحة سريعة داخل أقطار الفكر الديني الغربي ستفاجؤنا فيها أحكام ينقصها السداد، ومؤامرات يحيكُها الغدر، وضغائن لاتزال عميقة على طول العهد وامتداد الزمان .

ومن حقنا نحن المسلمين وقد لفحتنا حرب بقاء أو فناء أن ندرس الجبهة التى مسَّنا عدوانها وأن نزن ببصر جديد طبيعة العواطف الدينية التى تكمن أو تبرز خلف أحداث لاتبدو لها نهاية قريبة .

ولنبدأ بمقال نشرته مجلة كاثوليكية تطوعت بإسداء نصائحها الغالية لإسرائيل، وليست هذه النصائح الغالية أن يعترف اليهود بحق العرب وأن يعودوا من حيث جاءوا تاركين البلاد لأصحابها . . لا !!

إن الضمير الدينى عند الصحيفة المتدينة جعلتها تسدى نصحًا من لون آخر لقد قالت لليهود : إننا احتللنا فلسطين قبلكم، وبقينا فيها سنين عددًا، ثم استطاع المسلمون إخراجنا وتهديم المملكة التى أقمناها ببيت المقدس وذلك لأغلاط ارتكبناها وها نحن نشرح لكم تلك الأغلاط القديمة حتى لاتقعوا فيها مثلنا .

استفيدوا من التجربة الفاشلة كى تبقى لكم فلسطين أبدًا ويشرد سكانها الأصلاء فلا يخامرهم أمل فى عودة . . .!!

وشرعت الصحيفة التقية تشرح : لماذا انهزم الصليبيون الأقدمون، وتوصى حكام «إسرائيل» بأمور ذات بال، وتحرضهم فى نذالة نادرة أن يوسعوا الرقعة التى احتلوها، وأن يستقدموا أفواجا أكثر من يهود العالم، وأن يحكموا خطتهم فى ضرب العرب، ومحو قراهم، وإبادة خضرائهم، وبذلك يستقر ملك إسرائيل، ويندحر الإسلام والمسلمون . . .

وهاك أيها القارئ عبارات المقال الذى نشرته مجلة «تابلت» الإنكليزية الكاثوليكية للكاتب (ف . س . أندرسون) .

يقول الكاتب المذكور : «إن نظرة واحدة إلى خارطة حدود إسرائيل الحالية تعيد إلى الذاكرة للفور أوجه الشبه القوية بين تلك الحدود وحدود مملكة الصليبيين التى قامت عقب احتلال القدس سنة ١٠٩٩م .

ونظرًا إلى الأعمال العدائية بين إسرائيل وجيرانها نرى من المفيد أن نقارن بين الحالة العسكرية الراهنة وبين مثيلتها أيام الصليبيين القدامى علنًا ، نرى ما إذا كان سيقيض لإسرائيل حظ أوفر مما كان للصليبيين أم سيلقون مصيرهم؟ إن مملكة الصليبيين لم يكتب لها البقاء إلا أمدًا قصيرًا ، فقد مكثت ثمانية وثمانين عاما فقط ، ثم استرد المسلمون القدس!

ومع أن المسيحيين نجحوا فى الاحتفاظ بقطاع صغير شرقى البحر المتوسط مدة مائة عام أخرى إلا أنهم فشلوا فى الدفاع عن عكا أخيرا وأخذوا يغادرون هذه البلاد تحت جنح الظلام عائدين إلى أوروبا .

إن سقوط تلك المملكة كان يعود إلى بضع نقائص ظاهرة فإذا أريد لإسرائيل أن تعيش مدة أطول ، فما عليها إلا أن تحتاط ضد هذه النقائص .

لقد دخل الصليبيون فلسطين فى ظروف ملائمة جدا لهم ، تميزت بوقوع الفرقة بين المسلمين ، وعجزهم عن إقامة جبهة مقاومة موحدة! وهكذا استطاع المهاجمون أن يهزموا المسلمين بسهولة ، دويلة بعد دويلة ، وأن يُمَكّنوا لأنفسهم فى الأقطار التى فتحوها .

غير أنه لم يمض وقت طويل حتى ظهر زعيم عسكرى مسلم استطاع أن يوحد المسلمين أمام خصومهم بسرعة ، ثم حشد قواهم فى معركة حطين ، وأصاب الصليبيين بهزيمة ساحقة ، تقرر على أثرها مصير القدس ، بل انحسر بعدها المد الصليبى جملة ، ودخل صلاح الدين الأيوبى مدينة القدس ، التى عجز أعداؤه عن استبقائها أو استعادتها فتركوها يائسين» .

يقول الكاتب الكاثوليكى «كان الصليبيون يستطيعون البقاء مدة أطول فى تلك البلاد لو لم يعانوا نقصًا شديدًا متواصلاً فى الرجال ، ولو أنهم وسعوا حدود مملكتهم وفق ما تمليه الضرورات العسكرية الماسة ، لماذا لم يحتلوا دمشق؟ لقد كان احتلال دمشق مفتاح مشكلتهم وضمان بقائهم!

وسيظل عدم تقديرهم لهذه الحقيقة لغزًا لنا! نعم إنهم بذلوا جهودًا واهية لاحتلال تلك المدينة ، بيد أن محاولاتهم كانت من الضعف بحيث كتب عليها الفشل» وبدلا من أن يتابعوا جهودهم لاحتلال دمشق اتجهوا جنوبًا واحتلوا العقبة وشرعوا يوجهون حملاتهم إلى مصر ، مع أن الإشراف على النيل هدف عسير التحقيق!!

وعندما أصبحت للمسلمين اليد العليا فى ذلك العهد استطاعوا إجلاء الصليبيين عن العقبة وعن سائر حصونهم فى الجنوب ، إلا أن الكارثة الكبرى من الشرق ، فإن معركة حطين وقعت بالقرب من بحيرة طبرية عند الولاية الشمالية الشرقية لمملكة الصليبيين .

ولما كانت دمشق والأرض الممتدة بين الأردن والصحراء السورية ملكا للمسلمين فقد استطاعوا أن يتحركوا بحرية على ثلاث جبهات حول المملكة الصليبية التى أضحت شبه محصورة .

وذلك ما أعجزها عن المقاومة!»

يقول الكاتب الحزين لما أصاب أسلافه : «ولو أن الصليبيين اندفعوا قدما وقطعوا الممر الذى يؤدى إلى الشرق من دمشق لاستطاعوا منع مرور الجيوش والقوات بين سورية ومصر ، ولكانت حدودهم الشرقية المستندة إلى الصحراء أكثر أمانًا ، ولأمكنهم الانتفاع من أساطيلهم البحرية» ثم يستأنف الكاتب الحاقد كلامه فيقول : «لقد أقيمت إسرائيل فى وقت كان العرب فى الدول المجاورة عاجزين عن القيام بعمل موحد ، ثم بقدر كبير من الجهد والشجاعة استطاع اليهود أن يبلغوا حدودهم الحالية ،لكن هذه الحدود تطابق حدود المملكة القديمة للصليبيين وقد عرفنا مآلها فما العمل؟» .

يقول الكاتب محرضا اليهود على مزيد من العدوان : «مرة أخرى ، ما لم تتحرك إسرائيل فى الاندفاع نحو دمشق فستبقى للعرب تلك الحرية الخطرة فى تنقيل قواهم حول ثلاث جهات من إسرائيل ، وفى ذلك ما فيه» .

ويستطرد : «قد يكون من العسير سياسيًا أن تتحرك إسرائيل لغزو سوريا واحتلال دمشق ، لكن الاتجاهات السياسية السورية قد تساعد على تسويغ ذلك ، وإن مثل هذه النزهة الحربية(!) ستنطوى على فائدة دائمة لإسرائيل أعظم من الفائدة التى تجنيها من التغلغل فى صحراء سيناء» .

ويختم الكاتب نصائحه لأصدقائه اليهود فيقول : «إن إسرائيل لن تنقصها القوى البشرية ، فلديها جيش كبير ، بالإضافة إلى هجرة منظمة من جميع أنحاء العالم تمدها بكل ما تفتقر إليه من طاقات ، ويجب أن تظل قادرة على وضع جيش قوى فى الميدان يكون دائما على أهبة الاستعداد» .

لو أن كاتب هذا الكلام يهودى قح ما استغرب المرء حرفًا منه! إن وجه العجب فى هذا التوجيه المشحون بالود لإسرائيل ، والبغض للعرب والمسلمين ، أن الكاتب رجل مسيحى ينشر رأيه فى مجلة كاثوليكية .

وهو يفكر ويقارن ويقترح كأن القضاء على العروبة والإسلام جزء من عقله الباطن والظاهر ، ثم هو لايشعر بذرة من حياء فى إعلان سخائمه! إن مشاعر البغضاء المضطرمة فى جوفه تغريه بالاسترسال والمجازفة دون أى تهيب .

ويحزننا أن هذا الكلام ليس إبداء لوجهة نظر خاصة ، فإن الكاثوليك فى أرجاء الأرض انتهزوا فترة الضعف التى يمر بها الإسلام كيما يحولوها إلى هزيمة طاحنة وفناء أخير .

والروح الذى أملى بكتابة هذا المقال هو نفس الروح الذى كمن فى مقررات المجمع المسكونى الذى عقده بابا رومة وصالح فيه اليهود ، وأمر الكنائس بعده ألا تلعنهم فى صلواتها .

وهو الروح الذى جعل البابا بولس يزور القدس ، ويدخل الأرض المحتلة ، ويتعامل مع سلطات إسرائيل ، وهو تصرف لم يفعله أحد البابوات من مئات السنين!! وللقارئ المسلم أن يسأل : أذلك موقف الكاثوليك وحدهم؟ أم أن أصابع الاستعمار الغربى قد أفسدت التفكير الدينى لدى كثير من المفكرين الغربيين؟

قرأت كتابًا وجيزًا للمؤلف المصرى المنصف الدكتور وليم سليمان وردت به هذه الحقائق نذكرها مع تعليق سريع لابد من إيراده . قال : «فى ديسمبر سنة ١٩٦١ عقد مجلس الكنائس العالمى مؤتمره الثالث فى نيودلهى ، وأصدر قرارًا حدد فيه موقفه من اليهود جاء فيه . . . لابد من تهيئة التعليم الدينى المسيحى وتقريبه للأذهان على وجه يبرئ اليهود من تبعات الأحداث التاريخية التى أدت الى صلب المسيح إذ أن هذه التبعات تقع على عاتق الإنسانية كلها(!) وقد صرح الراعى البروتستانتى الأمريكى ل . ج . بنيت الأستاذ بمعهد اللاهوت بنيويورك قائلا : إن الكنائس مسئولة بوجه خاص عن العداء للسامية فقد ظلت تعاليم المسيحية موجهة عدة قرون ضد اليهود وهو عداء يعد من مُخلَّفاتِ الأحقاد الدينية القديمة» .

نقول نحن : وما ذنب المسلمين فى هذا؟ وهل عرب فلسطين يدفعون ثمن هذا الخطأ الكنسى من وطنهم وكرامتهم وحاضرهم ومستقبلهم؟

ذلك ما يريده مجلس الكنائس العالمى الموقر!! فإن هذا المجلس عقد مؤتمرًا فى بيروت وزار أعضاؤه مخيمات اللاجئين ، ثم قرر أنه ليس هناك حل دائم لمشكلة الفلسطينيين إلى أن يبت فى القضية الخاصة بالخلاف بين العرب وإسرائيل .

وقال المؤتمر الطيب القلب : إن ذلك سيشمل خطة عامة لتعويض اللاجئين سواء عادوا إلى وطنهم أم لم يعودوا ، وإن هناك صدقات سوف يأخذها أصحاب الأرض والمطرودون . .!!

وفى سنة ١٩٦٤ عقد مجلس الكنائس العالمى فصله الدراسى الثالث عشر «بجنيف» وافتتح الجلسة عميد الكلية اللاهوتية بجامعتها فقال لا فض فوه : «حين تثور مشكلة اليهود فإن الكنيسة لا تستطيع أن تتجاهل ثقل مسئوليتها العظيمة عن آلامهم ، وضياعهم طول تاريخهم ، ولذلك فإن أول ما يصدر عنها نحوهم هو طلب المغفرة . .»!!

يجب على الكنيسة أن تطلب المغفرة من اليهود!! بهذه العبارة الضارعة الذليلة يفتتح مجلس الكنائس العالمى الجلسة التى يحدد فيها موقفه من دولة إسرائيل . ونتساءل نحن مرة أخرى : أإذا أجرم غيرنا وجب علينا نحن القصاص؟!

﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾[١] .

لقد فكرت فى هذا الأمر مليًا! إن حقنا ليس غامضا حتى يلتمس عذر لمستبيحه! هل المال اليهودى من وراء هذه الذمم الخربة مهما كانت مناصبها الدينية؟ ربما ، أم أن الضغائن العمياء على الإسلام وأمته سيرت الخطب والمقالات فى هذا المجال الفوضوى المكابر الوقح؟ ربما .

لكن الدكتور وليم سليمان فى كتابه «الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار الصهيونى» . يذكر لنا كلامًا آخر يستحق الدرس والتأمل .

إنه ينقل عن مؤرخ الإرساليات «ستيفن نيل» هذه العبارات من تقرير له : «لقد تيقن الرجل الغربى أن سجله الاستعمارى حافل بالعار ، وأصبح أقل ثقة مما كان فى وحدانية الإنجيل المسيحى ونهائيته ، وفى حقه ـ أى حق الرجل الغربى ـ أن يفرض على ورثة الأديان العظيمة الأخرى شيئا قد يثبت فى النهاية أنه ليس أكثر من خرافة[٢] غربية A. WESTRN MYTH» .

وبدا فى أوساط رجال اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها فى المسيحية! وانتشر تيار فكرى يجعل نقطة بدايته «موت الإله»(!) وينادى بمسيحية

(١) الأعراف : ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) تاريخ الإرساليات ص ٤٥٠ ، ٤٥٦ .

لادين فيها! وينادى بهذه الأفكار «بنهوفر ويلثمان» والأسقف الإنجليزى «جون روبنسون»[1] ويخيل للمراقب من بعيد أن القوم يثورون على الإله ؛ لأنه يتخلى عنهم .

ويستطرد الدكتور وليم سليمان فيقول عن الغربيين : «الدين فى نظرهم لم تعد له قيمة فى ذاته ، إنه شىء يمكن الاستفادة منه لتحقيق الأهداف الدنيوية التى ينشدها الغرب فى شتى أنحاء العالم . .» .

وخلاصة هذا الكلام أن المسيحية انتحرت فى أوروبا! فأى تدين هذا الذى ينخلع ابتداء عن الإيمان بالحى القيوم؟ ويعتبر التعامل معه منتهيًا ؛ لأنه تلاشى ومات . .؟!

إن ذلك هو التفسير الحقيقى لانضواء رجال الكهنوت تحت راية الاستعمار وركضهم الخسيس فى خدمة قضاياه . .

وعندما تتسابق شتى الكنائس الغربية لإرضاء إسرائيل وتملُّق اليهود فهل يدل ذلك إلا على شىء واحد؟ أن رجال الدين باعوا ضمائرهم للشيطان .

إن العرب يتعرضون لإبادة عامة ، والمتفجرات تنسف منازلهم ، وقد محيت قرى بأكملها من الوجود ، والدفاع عن النفس يوصف بأنه إجرام وتمرد! ووسط هذه الحريق المستعرة ، يبارك ساسة إسرائيل ، ويقول رجال الدين والدنيا : خلقت إسرائيل لتبقى!! فأين منطق الإيمان بالله واليوم الآخر فى تلك المداهنة وهذا الاستخذاء؟

ظاهر أن القوم قد تحولوا إلى سماسرة وعملاء للاستعمار العالمى ، واعتقادى أن هذه المحنة الرهيبة ستوقظ الإسلام النائم ، وإن كان غيرى يرى أن المادية المتربصة هى الكاسبة من خيانة الغرب لدينه ومُثُله .

ولاشك أن المستقبل محفوف بأخطار شداد ، بيد أننا لن نفقد توازننا ولا ثقتنا فى أصالتنا الدينية ولا آمالنا فى جنب الله .

واعتقادى كذلك أن الاستعمار سيفشل فى محاولاته الدائبة لجر الكنائس الشرقية إلى جانبه ، وإشراكها فى مآسيه ، وإذا كان قد ضلل البعض فإن الجمهرة الغالبة ستبقى على وفائها لتعاليمها ومواطينها وتاريخها الصبور .

(١) انظر على سبيل المثال كتاب روبنسون (Houest to God) الذى طبع منه فى مارس سنة ١٩٦٣ أربع طبعات وفى إبريل سنة ١٩٦٣ طبعتان وفى كل من مايو ويوليو وسبتمبر من نفس العام طبعة ، وكانت الطبعة العاشرة فى سبتمبر سنة ١٩٦٤ وقارب عدد النسخ المطبوعة منه مليون نسخة ، وعلقت عليه مجلة تايم فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٦٤ ونيوزويك فى إبريل سنة ١٩٦٦ ومجلات أمريكية أخرى كثيرة . .!! .

حـــوار..!
بينى وبين ملحد

دار بينى وبين أحد الملاحدة جدال طويل ، ملكت فيه نفسى وأطلت صبرى حتى ألقف آخر مافى جعبته من إفك ، وأدمغ بالحجة الساطعة كل ما يورد من شبهات .

قال : إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟ قلت له : كأنك بهذا السؤال ، أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لابد لكل شىء من خالق!! قال : لاتَلُفّنى فى متاهات ، أجب عن سؤالى! قلت له : لا لف ولا دوران إنك ترى أن العالم ليس له خالق ، أى أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد ، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلا ، وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا : إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟ إنها قضية واحدة ، فلم تصدق نفسك حين تقررها؟ وتكذب غيرك حين يقررها؟ وإذا كنت ترى أن إلها ليس له خالق خرافة ، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك ، وفق المنطق الذى تسير عليه . .!

قال : إننا نعيش فى هذا العالم ونحس وجوده فلا نستطيع أن ننكره!

قلت له : ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا فى طريق رهيب ، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة ، وإنماهو : هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير؟!

ومن ثَمَّ فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك : إنه مردود عليك ، فأنا وأنت معترفون بوجود قائم ، لا مجال لإنكاره ، تزعم أنت أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة ، وأرى أنا أنه لا أول له بالنسبة إلى خالقها ، فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له ، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من المتدينين . . .!!!

قال : تعنى أن الافتراض العقلى واحد بالنسبة إلى الفريقين؟ قلت : إننى أسترسل لأكشف الفراغ والادعاء اللذين يعتمد عليهما الإلحاد وحسب ، أما الافتراض العقلى فليس سواء بين المؤمنين والكافرين . . إننى ـ أنا وأنت ـ ننظر إلى قصر قائم ، فأرى ـ بعد نظرة خبيرة ـ أن مهندسا أقامه ، وترى أنت أن خشبه وحديده وحجره وطلاءه قد انتظمت فى مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء نفسها . .!

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أننى وجدت قمرا صناعيا يدور فى الفضاء ، فقلت أنت : انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه ، وقلت أنا : بل أطلقه عقل مشرف مدبر!

إن الافتراض العقلى ليس سواء ، إنه بالنسبة إلىَّ الحق الذى لامحيص عنه ، وبالنسبة إليك الباطل الذى لاشك فيه ، وإن كان كفار عصرنا مهرة فى شتمنا نحن المؤمنين ورمينا بكل نقيصة ، فى الوقت الذى يصفون أنفسهم بالذكاء والتقدم والعبقرية ، إننا نعيش فوق أرض مفروشة ، وتحت سماء مبنية ، ونملك عقلا نستطيع به البحث والحكم ، وبهذا العقل ننظر ، ونستنتج ، ونناقش ، ونعتقد .

وبهذا العقل نرفض التقليد الغبى كما نرفض الدعاوى الفارغة .

وإذا كان الناس يهزءون بالرجعيين عبيد الماضى ويتندرون بتحجرهم الفكرى ، فلا عليهم أن يهزءوا كذلك بمن يميتون العقل باسم العقل ، ويدوسون منطق العلم باسم العلم وهم للأسف جمهرة الملاحدة!!

لكنا نحن - المسلمين - نبنى إيماننا بالله على اليقظة العقلية والحركة الذهنية ، ونستقرئ آيات الوجود الأعلى من جَوَلاَن الفكر الإنسانى فى نواحى الكون كله .

فى صفحة واحدة من سورة واحدة من سور القرآن الكريم وجدت تنويها بوظيفة العقل اتخذ ثلاث صور متتابعة فى سلم الصعود .

هذه السورة هى سورة الزمر ، وأول صورة تطالعك هى إعلاء شأن العلم ، والغض من أقدار الجاهلين ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾(1) .

ثم تجىء الصورة الثانية لتبين أن المسلم ليس عبد فكرة ثابتة ، أو عادة حاكمة بل هو إنسان يزن مايعرض عليه ويتخير الأوثق والأزكى ﴿ **فَبَشِّرْ عِبَادِ ⦗17⦘ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾(2) .

ثم يَّطرد ذكر أولى الألباب للمرة الثالثة فى ذات السياق على أنهم أهل النظر فى ملكوت الله ، الذين يدرسون قصة الحياة فى مجاليها المختلفة ؛ لينتقلوا من المخلوق إلى

---

(1) الزمر : ٩ .

(2) الزمر : ١٧ ، ١٨ .

الخالق ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(١) .

وظاهر من الصور الثلاث فى تلك الصفحة من الوحى الخاتم أن الإيمان مبتوت الصلة بالتقليد الأعمى أو النظر القاصر أو الفكر البليد .

إنه يلحظ إبداع الخالق فى الزروع والزهور والثمار ، وكيف ينفلق الحمأ المسنون عن ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان ، ثم كيف يحصد ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان ، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى زرعا جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق! من صنع ذلك كله؟

قال صاحبى ـ وكأنه سكران يهذى ـ الأرض صنعت ذلك!!

قلت : الأرض أمرت السحاب أن يهمى ، والشمس أن تشع ، وورق الشجر أن يختزن الكربون ويطرد الأوكسجين ، والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟

قال : أقصد الطبيعة كلها فى الأرض والسماء!

قلت : إن طبق الأرز فى غدائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء ومابينهما على صنع كل حبة فيه ، فما دور كل عنصر فى هذا الخلق؟ ومن المسئول عن جعل التفاح حلوا والفلفل حريفا أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال : لا أعرف ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قلت : ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ، ومشيئة تصنف؟ فأين ترى العقل الذى أنشأ ، والإرادة التى نوعت ، فى أكوام السباخ أو فى حزم الأشعة؟

قال : إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء ، ولا نعرف الأصل ولا التفاصيل!!

قلت له : أشرح لكم ماتقولون : تقولون : إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان مجموعة من العناصر العمياء تضطرب فى أجواء الفضاء ، ثم مع طول المدة وكثرة التلاقى سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر ، فنشأت الخلية الحية فى شكلها البدائى ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى!!

(١) الزمر : ٢١ .

هذا هو الجهل الذى أسميتموه علمًا ، ولم تستحوا من مكابرة الدنيا به!!

أعمال حسابية معقدة تقولون : إنها حلت تلقائيًا ، وكائنات دقيقة وجليلة تزعمون أنها ظفرت بالحياة فى فرصة سنحت ولن تعود!! وذلك كله فرارًا من الإيمان بالله الكبير!!

قال : ــ وهو ساخط ــ أفلو كان هناك الله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسى والآلام ، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء وضيقا يحتبس فيه الأذكياء ، وأطفالاً لايمرضون ويموتون ، ومشوهين يحيون منغصين . . إلخ .

قلت : لقد صدق فيكم ظنى ، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!! ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق مايصيبهم من عسر ويسر ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ** ﴾(١) .

قال : لسنا أنانيين كما تصف نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا ، إننا نستعرض أحوال البشر كافة ثم نصدر حكمنا الذى ترفضه . .

قلت : آفتكم أنكم لاتعرفون طبيعة الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها أنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم ، ولكى يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمتيه لابد أن يبتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه ، وهذا الابتلاء فنون شتى ، وعندما ينجح المؤمنون فى التغلب على العقبات التى ملأت طريقهم ، وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم ﴿ **يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ** ﴾(٢) .

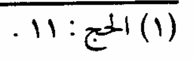
قال : وماضرورة هذا الابتلاء؟

قلت : إن المرء يسهر الليالى فى تحصيل العلم ، ويتصبب جبينه عرقا ليحصل على الراحة ، ومايسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب ، فإن كان ذلك هو القانون السائد فى الحياة القصيرة التى نحياها على ظهر الأرض فأى غرابة أن يكون ذلك هو المهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال : مستهزئا ــ أهذه فلسفتكم فى تسويغ المآسى التى تخالط حياة الخلق ، وتصبير الجماهير عليها؟

(١) الحج : ١١ .

(٢) الزخرف : ٦٨ .



قلت : سأعلمك بتفصيل أوضح حقيقة ما تشكو من شرور ، إن هذه الآلام قسمان : قسم من قدر الله فى هذه الدنيا ، لاتقوم الحياة إلا به ، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا على حره ، فالأمر كما يقول الأستاذ العقاد «تكافل بين أجزاء الوجود ، فلا معنى للشجاعة بغير الخطر ، ولا معنى للكرم بغير الحاجة ، ولا معنى للصبر بغير الشدة ، ولا معنى لفضيلة من الفضائل بغير نقيصة تقابلها وترجح عليها . وقد يطرد هذا القول فى لذاتنا المحسوسة كما يطرد فى فضائلنا النفسية ومطالبنا العقلية إذ نحن لانعرف لذة الشبع بغير ألم الجوع ، ولا نستمتع بالرى مالم نشعر قبله بلهفة الظمأ ، ولا يطيب لنا منظر جميل ما لم يكن من طبيعتنا أن يسوءنا المنظر القبيح . .» .

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته ويوائم نفسه وبيئته ، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان ، وقد يصرخ إنسان مما لايكترث به آخر ، ولله فى خلقه شئون ، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التى لا ريب فيها إلا أن هذه العدالة كما يقول الأستاذ العقاد «لاتحيط بها النظرة الواحدة إلى حالة واحدة ، ولا مناص من التعميم والإحاطة بحالات كثيرة قبل استيعاب وجوه العدل فى تصريف الإرادة الإهية ، إن البقعة السوداء فى الصورة الجميلة وصمة قبيحة إذا حجبنا الصورة ونظرنا إلى تلك البقعة بمعزل عنها ، ولكن هذه البقعة السوداء قد تكون فى الصورة كلها لونا من ألوانها التى لاغنى عنها أو التى تضيف مزيدًا إلى جمال الصورة ولا يتحقق لها جمال بغيرها ، ونحن فى حياتنا القريبة قد نبكى لحادث يصيبنا ثم نعود فنضحك أو نغتبط بما كسبناه منه بعد فواته» .

تلك هى النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التى يتعرض لها الخلق .

أما القسم الثانى من الشرور التى تشكو منها ياصاحبى ، فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين . قال مستنكرًا : أنا وأشباهى لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى! فكيف تتهمنا؟

قلت : بل أنتم مسئولون ، فإن الله وضع للعالم نظامًا جيدًا يكفل له سعادته ، ويجعل قويه عونًا لضعيفه وغنيه برًا بفقيره ، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود . ووعد على ذلك خير الدنيا والآخرة ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[1] .

(١) النحل : ٩٧ .

«فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أحدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم ، وفى هذا يقول الله جل شأنه ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾[1] .

إن الصديق ـ رضى الله عنه ـ جرد جيشًا لقتال مانعى الزكاة ، وبهذا المسلك الراشد أقر الحقوق وكبح الأثرة ونفذ الإسلام فإذا تولى غيره فلم يتأسَّ به فى صنيعه كان الواجب على النقاد أن يلوموه لا أن يلوموا الأقدار التى ملأت الحياة بالبؤس!

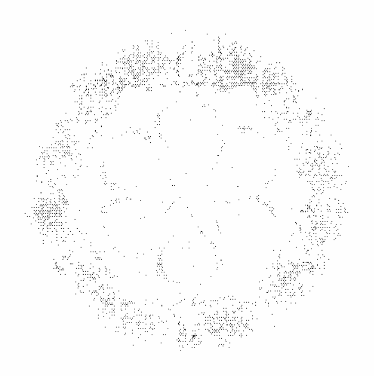
قال : ماذا تعنى؟

قلت : أعنى أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير ، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله!!

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض!!

وبدلا من أن يقوم بواجبه فى تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين . . .!!

إنكم معشر الماديين مرضى ، تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج ، وعدت إلى نفسى بعد هذا الحوار الجاد أسألها : إن الأمراض توشك أن تتحول إلى وباء ، فهل لدينا من يأسو الجراح ويشفى السقام؟!! أو أن الأزمة فى الدعاة المسلمين ستظل خانقة؟!!



(١) الشورى : ٣٠ .

ضوء على بعض المشكلات

قرأت مقالاً عن الانفجار السكانى وإمكانات التحكم فيه نشرته صحيفة الأهرام يوم الجمعة ١٩٧٠/١/٢ ولا أكون مغاليًا إذا وصفت هذا المقال بأنه صائب الفكرة عميق النظرة مملوء بالحقائق الجديرة بالاحترام .

ولقد لفتُ عددًا من الدعاة المسلمين وعلماء الدين إلى هذا المقال ؛ لأنه يصور فى نظرى عودة إلى أفكار سبق أن كتبتها ووقفت عندها ورأى جمهور المسلمين أنها التعبير الحق عن أحكام دينهم ونهج حياتهم وإن كان البعض قد مارى فيها مراء يعلم الله بواعثه والكاتب بعد مقدمات جيدة حول مشكلة النسل يقول : إن تفسير الزيادة السكانية بغير التخلف الاقتصادى أورد هذه الزيادة إلى عوامل أخرى مثل غلبة الغريزة الجنسية أو وجود الأديان المحبذة للتناسل أو عدم المبالاة بالرقى . يدخل تحت باب التضليل العلمى!» .

وقد استخلص هذه النتيجة الصادقة من جملة ملاحظات علمية واجتماعية جديرة بالتأييد الحار .

ويعجبنى أنه استهجن صيحات التشاؤم المفتعلة التى تخصص فى إرسالها بين الحين والحين نفر من مقلدى الأساليب الممجوجة فى الإحصاء الجزئى والحكم العام ، وهى أساليب تخدم سياسة معينة ولاتخدم حقيقة مجردة .

يقول الكاتب : «فى أواخر الستينيات تدفق سيل جارف من البيانات والبلاغات التى يتبرع بها نفر من نجوم الرأى الأمريكيين يزعمون فيها أن العالم قد بلغ فى مسيرته نحو الكارثة نقطة (اللاعودة) بسبب الزيادة المفرطة فى سكانه ، تلك الزيادة التى نشأت من أن أقطار العالم الثالث ــ الذى يضم عشرات من الدول النامية أو بتعبير آخر عشرات من الدول المتخلفة ــ لم تكبح جماح شهواتها الجنسية ، ولم تستجب لدعوة المندوب الأمريكى إلى (تخطيط الأسرة) أو تحديد النسل الذى رأى سيادته أنه الطريق الوحيد لحسم المشكلة السكانية» .

بل لم يستح نفر من قادة الرأى فى أرقى الدول أن ينادوا جهرة بضرورة استخدام القسر فى الحد من هذا التفوق العددى للمراتب السفلى من البشر(!) بالقدر الذى يمنع دفع المراتب الأعلى إلى الخلف .

هذا ، ولما كانت نسبة الأولاد تكاد تكون ثابتة من عشرات السنين فإن الزيادة المحذورة نشأت للأسف من قلة الوفيات بسبب ارتفاع المستوى الصحى فى أرجاء العالم . .!!

والحل؟ إنه عند أرباب الثقافة الغربية الرفيعة عدم مقاومة العلل بين شعوب لاتجد الأكل ، وترك الأمراض تفتك بهذه الأجيال الوافدة ، فإن إقحام طوفان من الأطفال الجياع على اقتصاد مضطرب أمر يهدد بكارثة . .!!

لكن كيف يوصف هذا التصرف؟

إنه تصرف إنسانى عادى!! لأنه يساعد الطبيعة على انتخاب الأصلح وإبقاء الأقوى . .!! بل إن هذا التصرف يتفق مع أرقى ثمرات الفكر الإنسانى ، ألم يقل أفلاطون فى جمهوريته الفاضلة : (إنه يجب قتل كل طفل يزيد عن العدد الضرورى؟ ونحن قد وصلنا بالفعل إلى ما يزيد عن هذا العدد الضرورى!!!

ويستتبع الفكر الغربى أحكامه على الأمور فيقول الدكتور (هوايت ستيفنز) ـ أحد خبراء علم الاجتماع ـ إن يوم القيامة سيوافق ٢٠٢٦/١١/١٣ لأن المجاعة العالمية فى هذا اليوم ستقضى على الجميع هكذا يقول الدكتور الألمعى بعد حساب وفق قواعد علم الاجتماع لا قواعد علم التنجيم!!

وبناء على ذلك الهوس الإحصائى يدعو الأمريكيون المتشائمون إلى التعقيم الإجبارى ، وإلى فرض نظام صارم لتحديد النسل ، وإلى دعوة الأمم المتحدة إلى إجراء ما ، كى ينخفض عدد الأولاد بين العرب والزنوج والهنود وأشباههم ، وهم سواد العالم الثالث .

ويلاحظ الأستاذ كمال السيد ـ كاتب المقال ـ أمورًا ذات بال ، منها أن الولايات المتحدة مثلا تنفق سبعين ألف مليون دولار على معدات القتال .

وأن شركاتها الكبرى تعامل شعوب العالم الثالث بنهم مستغرب لا مكان معه للرحمة بهؤلاء الجياع المساكين .

يقول : «وهناك صيغة شائعة فى أمريكا الجنوبية فحواها : أن خمسة من سكانها يموتون جوعًا كل دقيقة ، فى حين أن الشركات المستغلة العاملة بها تكسب خمسة آلاف دولار كل دقيقة ، أى ألف دولار من كل ميت» . .!

ومع شعورنا باتجاه الكاتب إلا أننا نعرف أن المساعدات الاستعمارية مغشوشة النية ، سيئة الهدف ، قد توزع على الأطفال مقادير من الألبان والجبن ، ولكنها تفرض على بيئتهم قيود الفقر الأبدى إلى هذا النوع من المساعدات . .

هذه البرامج توزع المواد الاستهلاكية وحسب ، على الأمم المتخلفة ، وتمتنع امتناعًا غريبًا عن تصنيع البيئة ، وإعانتها على أن تخدم نفسها بنفسها ، وتستغل مواردها الوطنية بقدراتها الخاصة!!

كأن شعوب هذا العالم الثالث ـ كما تسمى ـ ينبغى أن تظل مشلولة المواهب مكشوفة العجز ، لاتستطيع ارتفاق ما لديها من خيرات .

وعليها ـ بعد ـ أن تسمع الحكم بأن القيامة بعد كذا من السنين!!

ويتلقى هذا الكلام بعض قصار العقل فيطيرون به هنا وهناك ينذروننا بالويل والثبور وعظائم الأمور فإذا حاولنا التفاهم معهم قالوا : إنكم رجعيون تائهون عن مقررات علم الاجتماع ، وأخطار يوم القيامة الذى سيجىء حتمًا مع زيادة السكان!!

ولنتناول الآن صميم المشكلة : هل حق أن بلاد العالم الثالث لاتكفى حاجات أهلها ، وبالتالى لاتتسع لمزيد من الأفواه التى تطلب القوت ، والأجساد التى تطلب الكسوة؟

تلك هى الأكذوبة الكبرى التى يضخم الاستعمار صداها ويزعج الدنيا بطنينها!!

إن أقطار العالم الثالث مشحونة بخيرات تكفى أضعاف سكانه ، بيد أن هذه الخيرات تتطلب العقول البصيرة والأيدى القديرة .

ولو رزقت هذه الأقطار المتخلفة نهضة إنسانية نزيهة ، تستهدف إيقاظ الملكات الغافية ، والحواس المخدرة ، وتطارد الخمول والوهن ، وتجند القدرات والخبرات ، وتمنع التظالم والترف ، وتضرب سياجًا منيعًا حول مصالح الشعوب يرد عنها غوائل الاستعمار بجميع أنواعه ، لكانت هذه الشعوب تحيا فى رغد من العيش تحسدها أقطار الغرب عليه!

ليست المشكلة اقتصادية كما يزعم الخبثاء من المستعمرين ، ومقلدوهم من الصياحين الذين يهرفون بما لايَعْرِفُون .

الفقر فقر أخلاق ومواهب لافقر أرزاق وإمكانات!!

لماذا يكون المولود القادم أكَّالاً لا شَغَّالاً ، مستهلكًا لامنتجًا ، عبئًا على الحياة لا عونًا على الحياة؟!

لماذا تهون الإنسانية فى هذه الأجيال الوافدة ، فيكون وجودها مبعث قلق لامثار استبشار؟

إن الجهود المادية والمعنوية التي يبذلها المتشائمون لقتل هذه الأنفس أو للحيلولة دون وجودها لو بذلت فى تصحيح الأخطاء الاجتماعية ، وتقويم الانحرافات العقلية لكانت أقرب إلى الرشد وأدنى إلى الغاية!

ولكن الاستعمار الأنانى الشره يريد التهام كل شيء لنفسه وحده ، بل الأنكى من ذلك أنه يعترض طريق كل نهضة تصحح الأوضاع ، لماذا؟ كى تبقى الأمور كما هى ، ويبقى منطقه السقيم فى علاج الأمور!

على أن تخلف العالم الثالث ليس علة أزلية ولا أبدية ، فقد كان الأوروبيون والأمريكيون أسوأ حالاً منذ قرون تعد على الأصابع ، وكانت الخرافة تفتك بعقولهم فتك الأدران والعلل بأبدانهم ، فإذا صعدوا فى سلم الترقى ، وهبط غيرهم بعد رفعة أو بدأ لأول مرة يخطو على درب المدنية فلا معنى للاحتيال عليه والتشفى منه!! ﴿ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾(١) .

والأمر لايستدعى أكثر من تغيير الظروف المؤثرة فى أحوال المجتمعات فهناك مكان ينبت العز ـ كما يقول المتنبى ـ ومكان ينبت الذل ـ وهناك آخر يوقظ العقل أو ينيمه . .!!

والمعتوهون الذين يصرخون جزعين : قفوا نسل الأرانب حتى لا تقوم الساعة أو حتى ترقى الأمة .

لايعلمون أن العالم الثالث لن يرقى ولو فقد تسعة أعشار عدده ما بقيت ظروفه النفسية والفكرية جامدة على أوضاعها الحالية .

ونعود مع كاتب الأهرام لنبصر الواقع حيث يقول : «إن موارد العالم ، خصوصا موارد البلاد المتخلفة مازالت تفوق كثيرًا زيادة أعداد السكان ، فالفائض الاقتصادى المحتمل يمكن تحويله إلى ضروب من النشاط المنتج بدلاً من أن يذهب إلى جيوب المرابين والوسطاء وملاك الأرض ، أو يتبدد فى وجوه السرف المختلفة ، وهذا الفائض هو ما يعرفه الاقتصاديون بأنه : الفرق بين الإنتاج فى ظروفه الطبيعية ، وبين ما يعد استهلاكه ضروريا للجماعة المنتجة ، ويقدر هذا الفرق بنحو ٢٠٪ من الإنتاج القومي ، وهو يكفل عند استثماره زيادة سنوية فى الدخل تبلغ ٨٪ وهذه الزيادة تكفى بل تفيض عن متطلبات الزيادة السكانية . .»!

الفقر الواقع أو المتوقع لايعود إذن إلى علل طبيعية ، بل إلى سوء تصرف واضطراب إدارة .!!

---

(١) النساء : ٩٤ .

أو كما يقول الاقتصادى الأمريكى المشهور (يول باران) : «إننا يجب أن ندق ناقوس الخطر لا لأن القوانين الأبدية فى الطبيعة قد جعلت من المستحيل إطعام سكان الأرض ، بل لأن النظام الاقتصادى الاستعمارى يحكم على جموع كثيفة من الناس ، لم يسمع بضخامتها من قبل ، أن تعيش فى كنف الفاقة والتدهور والموت قبل الأوان!!

ثم أنهى الكاتب كلمته مؤكدا أنه لا حل لمشكلات التخلف - ومن بينها ضغط السكان على الموارد - إلا بتنمية بلدان العالم الثالث لثرواتها ، ومضاعفة اعتمادها على نفسها . على القدر الميسور من المعونات الأجنبية المنزهة . .» .

لقد قررت هذه الأحكام تقريبا فى كتابى **(من هنا نعلم)** المطبوع من ربع قرن ، ولذلك فقد انشرح صدرى عندما قرأت هذه الأيام ما يزيد الحق وضوحًا ، وما يبدد ضبابًا كثيرًا نشره فى أفق الحياة العامة أقوام قصار الباع طوال الألسنة .

وإنى ــ إذ أؤكد المعانى الآنفة ــ أوجه كلمة إلى نفر من المتحدثين باسم الإسلام أساءوا إلى حقائقه مرارًا وهزموه فى مواطن كثيرة .

إن الإسـلام ليس هو بالدين المحلى لأهل قطر من الأقطار ، إنه دين القـارات الخمس! وداره الرحبة الخصبة تمزج بين أجناس أمته فى أخوة جامعة لاتعرف الحدود الضيقة المفتعلة التى صنعها الاستعمار!! فكيف يعالجون مشكلة السكان وهم لايدركون هذا الأساس المبين؟ ثم إن هذا الدين يتعرض لحرب إبادة فى هذه الأيام من تحالف الصهيونية والاستعمار ، فكيف تصدر الأوامر من رؤساء الأديان الأخرى بتكثير الأتباع ، ومباركة النسل ، ويفتون هم بالتعقيم والتقليل؟ إننى لا أدرى علة هذا الزيغ؟ أهى قلة العلم أو ليونة الضمير؟

وتحذير آخر إلى هؤلاء : إن أحدهم يقع على الكلمة تخدم غرضه منسوبة إلي عمرو[1] بن العاص أو غيره من الرجال فيطير بها غير آبه بقيمة سندها ولا مكترث بأنها ملتقطة من كتب تجمع الجد والهزل والخطأ والصواب .

ولو فرضنا جدلا صحة نسبتها إلى عمرو ، فما كلام عمرو بالنسبة إلى كلام الله ورسوله؟ وإلى طبائع الأشياء وفق منطق الفطرة وحالة الدين وأوضاع المسلمين؟

أرجو بعد كلمة الأهرام التى لخصتها فى مقالى أن تنتهى هذه المأساة .

(١) أنه أوصى بتقليل الأولاد ويبنون على ذلك أشياء كثيرة .

فوضى الحلال والحرام فى غياب التشريع الحق

الأمة الإسلامية اليوم تمثل جماهير كثيفة من الشعوب المتخلفة .

والفروق بين الشعوب المتخلفة والشعوب المتقدمة كثيرة ومنوعة ، ويمكن ردها إجمالاً إلى خلل حقيقى فى المواهب الإنسانية الرفيعة ، خلل عاق هذه المواهب عن أداء وظائفها باقتدار وإجادة !!

وليس بصعب على من يرقب الأمم المتأخرة أن يلحظ كسلها العقلى في ميدان المعرفة ، وكسلها العقلى فى ميدان الإنتاج ، وضعف الأخلاق التى تحكم أقوالها وأحوالها ، وكثرة التقاليد التى تمثل طبائع الرياء والأثرة والملق والضياع الفردى والاجتماعى .

إن هناك انهيارًا حقيقيًا فى البناء الإنسانى للشعوب المتخلفة ، والإصلاح الجاد يستهدف إعادة هذا البناء ، ودعمه خلقيًا ، واقتصاديًا ، وسياسيًا . .

ونحن ـ المشتغلين بالدعوة الإسلامية ـ نعالج هذا العمل الشاق ، ونزيح العقبات التاريخية والطارئة التى تعترض طريقنا وما أكثرها .

وهناك ناس يعملون لهذا الهدف ، هدف بناء أمة جديدة ، ولكنهم ـ بمؤثرات شتى ـ لا يرتبطون بالإسلام ولا يستشيرونه فى حل مشكلة أو شفاء علة .

وظاهر أن هؤلاء الناس هم الذين نشئوا فى ظل الاستعمار الأوروبى ، وآذاهم أن تكون بلادهم محقورة الشأن ، زرية الظاهر والباطن ، فأرادوا أن تلتحق بالركب المتقدم عن طريق التشبه به والاقتباس منه .

ولما كان علم هؤلاء بالإسلام قليلاً ، فإنهم لم يحاولوا الإفادة منه أو الارتباط به ، بل مضوا فى طريق التقليد للشعوب المنتصرة فى ظاهر أمرها وباطنه ، وعذرهم ـ أمام أنفسهم على الأقل ـ أنهم يبغون النهوض بأمتهم .

ولست الآن بصدد نقد هؤلاء ، بل سأتناول باللوم والإنكار مواقف بعض المتدينين القاصرين الذين يسيئون إلى الإسلام من حيث ينشدون خدمته .

إن تبذل النساء فى هذا العصر بلغ حد السفه ، وهبط إلى درك سحيق من الحيوانية المنكورة .

وصيحات الوعاظ لوقف هذا التيار تذهب بددًا . .

لماذا؟ لأن تناولهم لقضايا المرأة مشوب بالغموض أو الجهالة ، متسم بالسلبية والعجز ، محكوم بتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان .

وأغلبهم لو أمكنته الفرص لرد المرأة إلى البيت ، وغَلَّقَ عليها الأبواب ، وحرمها مختلف الحقوق المادية والأدبية ، وجعلها القدم العرجاء للإنسانية السائرة أو الجناح المكسور للأم الصاعدة .

والمسلمون فى العصر الماضى خالفوا الإسلام مخالفة مستغربة فى الطريقة التى تحيا بها المرأة .

فهم حرموها حق العبادة ـ بتعبير العصر الحديث ـ وحظروا عليها دخول المساجد ، ويوجد فى أنحاء مصر نحو سبعة عشر ألف مسجد لا ترحب بدخول المرأة ، ولم يُبْنَ فى أحدها باب مخصص للنساء ، كما فعل ذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بنى مسجده بالمدينة المنورة .

وقد بذلنا بعض الجهود لتغيير هذه الحال ، ولم ننجح إلا فى حدود تافهة .!! مع أن صفوف النساء فى بيوت الله كانت إحدى معالم المجتمع الإسلامى الأول .

وهم حرموها حق العلم ـ بتعبير العصر الحديث ـ فلم تفتتح المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والعالية للمرأة إلا بعد محاولات ومجادلات مضنية ، ولم تدخل الأزهر إلا بعد تطوره الحديث . مع أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جعل طلب العلم فريضة على الرجال والنساء ، ومع أنه أمر بإخراج النساء وهن حوائض ليشهدن الخير ويعرفن دعوة الإسلام .

وهم رفضوا أن يكون لها دور فى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وصيانة الأمة بنشر المعروف ، وسحق المنكر مع أن الله قال فى كتابه : ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ . . .** ﴾[1] .

إن الفكرة التى سيطرت على أدمغة نفر من المتدينين هى عزل المرأة عن الدين والدنيا معًا ، واجتياح كيانها الشخصى والمعنوى .

ولاتزال هذه الفكرة أملاً يحركهم ويحملهم على ترويج أحاديث موضوعة أو واهية ، وتكذيب أحاديث صحيحة أو حسنة ، وعلى تفسير القرآن الكريم بآراء لم يعرفها أئمته ، ولا قام عليها مجتمع الأصحاب والتابعين!!

---

(١) التوبة : ٧١ .

بل أستطيع القول : إن الجاهلية التى دفعت إليها المرأة الإسلامية بهذا الفكر القاصر جعلتها دون المرأة فى الجاهلية الأولى .

فإن المرأة العربية ظهرت فى بيعة العقبة الكبرى كما ظهرت مبايعة بعد فتح مكة ، وقارب عدد النساء المبايعات ستمائة امرأة .!!

وجهلة المتدينين تستكثر على المرأة المسلمة هذه المكانة الكبيرة ، وقد نتج عن هذا التفكير فى قضية المرأة ، وعن التفكير المماثل له فى قضايا أخرى كثيرة ، إن ظلم الإسلام ظلمًا شديدًا وأن أساء به الظن من لم يحط به خبرًا ، ومن لم يحسن له فقهًا .

وعندى أن إفلات النهضة النسائية من قيود الإسلام الحقيقية يرجع إلى هذا العجز والغباء .

وقد لاحظت أن بعض المصلحين الذين اشتغلوا بتحرير المرأة قد جرأهم هذا الموقف على ارتكاب حماقات سيئة .

فهم لما قاوموا بنجاح أخطاء بعض المتدينين اندفعوا فى طريقهم مغالين فخطَّئوا الدين نفسه ، حيث لامجال لتخطئة ولا مكان لتصويب .

وإنه لمن المحزن أن يسىء الدعاة عرض دينهم فى ميدان ما فترفع الثقة بهم فى كل ميدان ، ثم ينفتح الباب على مصراعيه ليتناول من شاء أحكام الإسلام بالمحو والإثبات . يقبل منها مايعجبه ، ويرد منها ماينبو عنه مزاجه اللطيف .

أكتب ذلك وبين يدى كتاب مطالعة للمدارس الثانوية ألف على عهد وزارة المعارف ، وراجعه الدكتور طه حسين بك وآخرون .

فى الفصل الثالث من هذا الكتاب حديث عن قاسم أمين ، وردت فيه هذه العبارات وصفًا له ولمذهبه فى الحياة العامة يوم كان يلى منصب القضاء « . . ولم يتقيد فى قضائه بآراء الفقهاء أو أحكام المحاكم مما يعتبره أكثر القضاة حجة لامحيد عنها ، بل لم يتقيد بنص القانون إذا لم يصادف هذا النص مكان الاقتناع منه . وهذا مما جعله ميَّالاً للرأفة فى قضائه نافرًا أشد النفور من حكم الإعدام!! فقد كان يرى أن العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لإصلاح المذنب ، وأن معاقبة الشر بالشر إضافة شر إلى شر» وأن «التسامح والعفو عن كل شىء وعن كل شخص هما أحسن مايعالج به السوء ويفيد فى إصلاح فاعله ، وأن الخطيئة هى الشىء المعتاد الذى لامحل لاستغرابه والحال الطبيعية اللازمة لغريزة الإنسان» .

فإذا كانت الجماعة لم توفق بعد إلى إدراك هذه الأفكار ، وكانت قوانينها التى وكل إلى تطبيقها ــ هكذا يتحدث قاسم أمين القاضى عن نفسه! ــ ماتزال تجرى على سنة

القصـاص والانتقام ، وماتزال دموية متوحشة فلا أقل من أن يتحاشى الإعدام وهو أشد ما فيها وحشية ، وهو العقوبة الوحيدة التى لاسبيل لعلاجها إذا ظهر خطأ القاضى ، أو ثابت الجماعة إلى رشدها ورأت تعديل عقوبتها بجعل العقوبة للإصلاح لا للقصاص ، أو أخذت بمذهب العفو والتسامح .

والقارئ الذى يطالع هذه الجمل العمياء يحس أن صاحبها يصطدم بالوحى الإلهى اصطدامًا مباشرًا ، وينكر شريعة القصاص ، ويصفها بالوحشية!! ويكذب أن فى القصاص حياة ويوغل مع الخيال فيظن العفو العام فى كل حال وعن كل شخص قاعدة الإصلاح الاجتماعى الصحيح!!

والكلام كله لغو قبيح بل مجون يعزل صاحبه لا عن منصب القضاء وحسب بل عن الفتيا فى مشكلات الناس ، ودعك من أن قائل هذا الكلام مجرد تجردًا تامًا من كل احترام لنصوص الكتاب والسنة . .

ومع ذلك فإن طلاب المدارس الثانوية أيام وزارة المعارف ـ يقرءون عقب هذا الكلام الغث تلك العبارات : كانت روح قاسم روح أديب ، وكانت الروح العصبية الحساسة الثائرة التى لا تعرف الطمأنينة ولا تستريح إلى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى كن ، بل تظل متمحضة للبحث والتنقيب حتى تنسى نفسها ، وتستبدل بكنها ما فى الكون من نشاط وجمال ، وفى ظننا أن الدعوة إلى تحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لم تكن كل برنامج قاسم أمين الاجتماعى ، وإنما كانت حلقة منه هى أعسر حلقاته وأعقدها .

ونحن نقول إن قاسمًا وغيره ممن نهج فى الحياة منهجه كانوا أشخاصًا ينقصهم قدر كبير من العلم الدينى والمدنى ، وأنهم استغلوا القصور الشائن الذى غلب على المتحدثين باسم الإسلام فهجموا على الأمور هجومًا شاملاً كان شره أكثر من خيره .

وربما استطاعوا أن يكتسحوا رجال الدين ـ إن صحت التسمية ـ فى مجال النشاط النسائى كما علمت من حقيقة الموضوع . لكن التطويح بشرائع القصاص ومن ورائها بقية الحدود غباء ضارب الجذور وانسلاخ عن الإسلام لايجدى فيه دفاع ، ولا يساق فيه عذر .

إذا قال الله ﴿ **فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ فجاء غِرٌّ يقول : فى القصاص هلاك فليس هذا جهلاً فقط ، ولكنه ارتداد عن الإسلام وكفر بواح عندنا من الله فيه برهان .

وقد بلغنى أن موظفة فى الإذاعة فى أحد البرامج وصفت قطع السارق بأنه وحشية ، ولم يفاجئنى هذا الارتداد الصريح ، فإن التمهيد الثقافى له بدأ من عهود الاحتلال الأجنبى لشتى البقاع الإسلامية . .

وما نقلناه هنا من أن آراء قاسم التى وضعت بين يدى طلاب الصفوف الثانوية يشهد لذلك .

ونريد أن يعلم القاصى والدانى أن كل طعن فى نصوص الإسلام القاطعة مردود على صاحبه ، وأنه ضرب من الارتداد يخدم الاستعمار الحاقد على بلادنا وتاريخنا .

ولا فرق عندنا بين ارتداد جزئى وارتداد كلى ، فإن أبابكر ــ رضى الله عنه ــ حارب جاحدى الزكاة مع من عاد إلى الوثنية بعد وفاة رسول الله ﷺ .

مع أن مانعى الزكاة زعموا أنهم مؤمنون بالله وإقام الصلاة .

بيد أن هذا الزعم لم يخدع الخليفة الأول ولا جمهرة الصحابة ، فقاتلوا الفريقين جميعًا وعدوا هؤلاء وأولئك كفارًا لاشك فى كفرهم .

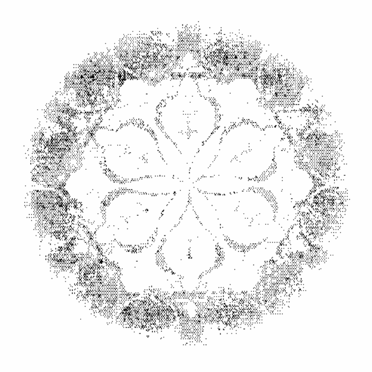
والحقيقة التى لمسناها أن الناقمين على شرائع الحدود والقصاص قوم لايقين لديهم ولا صلاة لهم ، وأن علاقتهم بالقرآن مقطوعة ، وأنهم مايستبقون نسبتهم إلى الإسلام إلا لظروف عارضة ، أو ليكيدوا له وهم داخل دائرته .

وكلمة أخيرة للمتصلين بالعلوم الدينية ، إنه لايشرفهم أن يتبعوا حديثًا واهيًا ويدعوا الأحاديث الصحيحة ، كما لايشرفهم أن يعرفوا رأيًا فقهيًا ويجهلوا رأيًا آخر . .!! إنهم يضرون الإسلام ضررًا بالغًا حين تكون صورته فى أذهانهم ناقصة أو شائهة ، ثم حين يزعمون مع هذا النقصان والتشويه أنهم علماء الدين وحراسه .

إن القرن الأول ــ من بين القرون الأربعة عشر التي تمثل تاريخنا ــ هو أقرب الصور إلى حقيقة ديننا . فكيف يحكم الإسلام (متن) من متون الفقه ألف أيام الاضمحلال العقلى لأمتنا ، أو كيف يحكم الإسلام تصرف تركى فى مجال السياسة أو المجتمع . .؟

لقد كان الاستبحار العلمى سمة ساطعة لأمتنا في أعصارها الأولى ، فلايجوز أن يقطعنا عن هذا الماضى الزاهى جهل عارض ، أو فكر غامض .

ويوم يعود المسلمون إلي دينهم الحق ، فإن التخلف المزرى اللاصق بهم اليوم ستنجلى غمته وتنكشف ظلمته وسيأخذون طريقهم مرة أخرى إلى الصدارة والتقدم .



يهوديَّة وصهيُونيَّة

لاتبعدوا اليهودية والإسلام عن المعركة .

التنادى بالإسلام هو صيحة النجاة .

إن وسائل الإعلام فى الأمة العربية حريصة أشد الحرص على أن تفرق بين اليهودية والصهيونية ، وعلى أن تجعل القارئ أو المستمع العربى يقصى الدين إقصاء عن الصراع الدائر اليوم على اغتصاب فلسطين وما حولها .

ولا يخفى خطر هذا المسلك ، وبعده عن التاريخ والواقع وتخذيله لوسائل الدفاع التى ينبغى توفيرها فى وجه هجوم دينى حاقد !!

إن الصهيونية ليست وليدة بحث اليهود عن وطن لهم بعدما أحسوا وحدة الغربة فى أرض الله الواسعة .

كلا ، فقد وسعتهم بلدان شتى ، وعاشوا فيها جزءًا من أبنائها الأصلاء ووصلوا إلى درجة فاحشة من الثراء ، ومناصب كبيرة فى الحكم .

ولكنهم رجحوا نداء دينهم على علاقاتهم بأوطانهم ، وآثروا التجاوب مع توراتهم وتلمودهم على الذوبان فى الوطنية الأمريكية أو الألمانية أو الروسية أو المصرية أو العراقية .

سيرتهم فى مختلف القارات واحدة ، ونزوعهم إلى خدمة عنصرهم وحسب ديدنهم فى كل مكان وزمان . .

لقد عاش اليهود ملوكًا بيننا نحن ـ المصريين ـ فى أواسط هذا القرن ، فلم تركوا مصر إلى إسرائيل ؟ فرارًا من اضطهاد ؟ إنه نداء الدين وحده .

وهم الآن يحيون ملوكًا فى أمريكا وفى أوروبا الغربية ، ولكنهم عرضوا مصالح الأوطان التى وسعتهم للبوار .

فى سبيل ماذا ؟ فى سبيل إسرائيل ، فى سبيل دولة دينية تجمعهم فى سبيل الملك الذى تهفو إليه ضمائرهم ، ويتلون آياته فى صحف العهد القديم على أنه وعد الله الذى لا يتخلف لهم ولذراريهم من بعدهم .

إن الصهيونية ليست نزعة سياسية تولدت عن الاضطهاد النازى فى ألمانيا .

فإن اليهود قبل هذا الاضطهاد بسنين أو بقرون كانوا يحلمون بامتلاك فلسطين وطرد أهلها منها أو إبادتهم فيها .

ونحن لا نقر فى العالم أجمع أى تفرقة جنسية ، ولكن مسلك اليهود فى ألمانيا كان هو السبب الأول فى إهاجة الألمان عليهم وإيقاع المذابح الشائنة بهم .

لقد ظهر أن ولاء اليهود لأوطانهم الرسمية مزيف ، وأن ولاءهم الأول هو جنسهم وتاريخهم وأمانيهم الحرام فى حقوق الآخرين .

وربما تعرض اليهود فى أمريكا بعد سنين معدودة لمثل ما تعرض له أسلافهم فى ألمانيا النازية ؛ عندما يصحو الأمريكيون فيجدون أن مصالحهم فى العالم العربى والإسلامى قد تلاشت ، لأن يهود أمريكا قد باعوا هذه المصالح فى سبيل قضاياهم الخاصة .

والمهم- ونحن نواجه معركة الحاضر والمستقبل- أن نحذر من الببغاوات التى تردد بغباء كلمات لا تفهمها وتريد بجهلها الغالب إبعاد اليهودية والإسلام عن المعركة مع أن المعركة لا تعنى إلا القضاء على الإسلام لحساب القوى المعادية له .

إننا لقينا العنت من أولئك الشامخين بجهلهم ، سواء كانوا فى الصحف أو الإذاعات ، أو المسارح ، وظاهر أنهم ثمار الاستعمار الثقافى لبلادنا ، ذلك الاستعمار الناقم على الإسلام وحده ، الحريص على تربية أجيال تكره شرائعه وفضائله ، وترفض مناسكه وشعائره وتنسى ماضيه وحاضره .

تلك هى الأجيال التى وقفت فى ميدان السياسة تصف الغزو اليهودى لفلسطين ، بأنه حركة عنصرية ، أو عدوان محلى ، أو تعاون بين الإمبريالية والصهيونية ، أو تآمر رأسمالى على حركات التحرر الحديث ، أو غير ذلك من الترهات التى أتقنها الجهل المستكبر الفاشى هنا وهناك .

ولو أن واحدًا من هؤلاء ذهب إلى أقرب مكتبة ، ودفع قروشًا قليلة أو كثيرة ، واشترى العهد القديم وحده ، أو الكتاب المقدس كله ، ثم كلف خاطره القراءة فيه لوجد التخطيط الدينى لإسرائيل الكبرى واضحًا فى صحائفه ، ولوجد الكفن يلف رفات العرب منسوجًا من كلماته ، ولوجد حرب الإبادة التى تعرض لها قومه ناضحة بين سطوره .

إن مؤامرة الاستعمار فى القرون الأخيرة خلع العرب من دينهم فى الوقت الذى يتحمس فيه كل ذى دين لدينه .

إن صحف العهد القديم لم تكتف بحداء بنى إسرائيل كى يجيئوا من كل مكان إلى فلسطين ، بل صورت لهم البقاع التى ينزلون بها ، والحدود التى تفصل كل سبط عن أخيه !!

ووزعت عليهم دمشق وحماة وبيروت وعشرات من البلاد الواقعة قرب البحر المتوسط .

اقرأ هذه السطور من سفر حزقيال .

لذلك هكذا قال السيد الرب : الآن أود سبى يعقوب وأرحم كل بيت إسرائيل ، وأغار على اسمى القدوس . فيحملون ضربهم وكل خيانتهم التى خانونى إياها عند سكنهم فى أرضهم مطمئنين ولا مخيف .

عند إرجاعى إياهم من الشعوب ، وجمعى إياهم من أراضى أعدائهم ، وتقديسى فيهم أمام عيون أمم كثيرة ، يعلمون أنى أنا الرب إلههم بإجلائى إياهم إلى الأمم ثم جمعهم إلى أرضهم . ولا أترك بعد هناك أحدًا منهم ، ولا أحجب وجهى عنهم بعد ، ولأنى سكبت روحى [1] على بيت إسرائيل يقول السيد الرب .

الإصحاح الأربعون

فى السنة الخامسة والعشرين من سبينا ، فى رأس السنة ، فى العاشر من الشهر ، فى السنة الرابعة عشرة بعدما ضربت المدينة .

فى نفس ذلك اليوم كانت على يد الرب وأتى بى إلى هناك .

فى رؤى الله أتى بى إلى أرض إسرائيل ووضعنى على جبل عال جداً عليه كبناء مدينة من جهة الجنوب ولما أتى بى إلى هناك إذا برجل منظره كمنظرً النحاس ، وبيده خيط كتان وقصبة القياس وهو واقف بالباب .

فقال لى الرجل : يا ابن آدم : انظر بعينيك واسمع بأذنيك واجعل قلبك إلى كل ما أريكه ؛ لأنه لأجل إرادتك أتى بك إلى هنا .

(١) عاش حزقيال ، مؤلف هذه الإصحاحات أيام المحنة الأولى لبنى إسرائيل بعد أن فسدوا فسلط الله عليهم «بختنصر» وجنوده فاجتاحوا البلاد ودمروا وساقوا أمامهم عشرات الألوف من اليهود أسرى ، وقد عزى الرجل قومه بهذه الكلمات ، وملأ روعهم أنهم متخلصون من الأسر البابلى وعائدون إلى بلادهم وقد عادوا فعلا لكنهم سرعان ما زاغوا وطردوا من فلسطين وقد عادوا ثالثة يحملون آثامهم الأولى ومشاعرهم القديمة وسوف يتم طردهم «إن شاء الله» ولو بعد حين .

أخبر بيت إسرائيل بكل ما ترى .

وإذا بسور خارج البيت محيط به وبيد الرجل قصبة القياس ست أذرع طولاً بالذراع وشبر .

فقاس عرض البناء قصبة واحدة وسمكه قصبة واحدة . ثم جاء إلى الباب الذى وجهه نحو الشرق وصعد فى درجه ، وقاس عتبة الباب قصبة واحدة عرضًا والعتبة . إلخ إلخ إلخ .

الإصحاح الأربعون والحادى والأربعون والثانى والأربعون حيث ينتهى وصف قياس بيت الهيكل .

الإصحاح الثالث والأربعون

«ثم ذهب بى إلى الباب . الباب المتجه نحو الشرق وإذا بمجد إله إسرائيل جاء فى طريق الشرق وصوته كصوت مياه كثيرة والأرض أضاءت من مجده» .

«وقال لى يا ابن آدم هذا مكان كرسى ، ومكان باطن قدمى ، حيث فى وسط بنى إسرائيل إلى الأبد اسمى القدوس . لا هم ولا ملوكهم» .

الإصحاح الخامس والأربعون

«وإذا قسمتم الأرض ملكًا تقدمون تقدمة للرب قدسًا من الأرض طوله خمسة وعشرون ألفًا طولاً والعرض عشرة آلاف» .

الإصحاح السابع والأربعون

هكذا قال السيد الرب . هذا هو التخم الذى به تمتلكون الأرض بحسب أسباط إسرائيل الاثنى عشر . يوسف قسمان . وتمتلكونها أحدكم كصاحبه - على الهيئة - التى رفعت يدى لأعطى آباءكم إياها وهذه الأرض تقع لكم نصيبًا .

وهذا تخم الأرض :

نحو الشمال من البحر الكبير طريق حثلون إلى المجىء إلى صدد :

حماة وبيروته وسترائيم التى بين تخم دمشق وتخم حماة وحصر الوسطى التى على تخم حوران .

ويكون التخم من البحر حصر عينان تخم دمشق والشمال شمالاً . وتخم حماة وهذا جانب الشمال . وجانب الشرق بين حوران ودمشق وجلعاد وأرمن إسرائيل

الأردن من التخم إلى البحر الشرقى نفيسون ، وهذا جانب المشرق وجانب الجنوب يمينًا من ثامار إلى مياه مريبوث قادش النهر إلى البحر الكبير . وهذا جانب اليمن جنوبًا .

وجانب الغرب البحر الكبير من التخم إلى مقابل مدخل حماة . وهذا جانب الغرب فتقتسمون هذه الأرض لكم لأسباط إسرائيل» .

هكذا وضع أنبياء بنى إسرائيل الأقدمون خطة تمزيق العرب ، وتقسيم تراثهم على أسباط إسرائيل .

وقد نقلت هذه السطور من العهد القديم وإن كنت لم أفهم أغلب الأسماء [١] التى تحدد تخوم الأرض أو توضح اتجاهات الزحف اليهودى كما أوصى به كاتبو ذلك العهد .

ويظهر أن اليهود لخصوا المراد فى الجملة المشهورة «أرض إسرائيل من الفرات إلى النيل» وهم أدرى بما فى كتبهم المقدسة ، وأدرى بما يعنيه «حزقيال» متلقى هذه الخريطة عن الوحى الإلهى كما يدينون .

وأريد أن أقول باسم الإسلام المستوحش المكتئب كلمة حاسمة .

كلمة سوف تبدو غريبة على الأذان التى طمسها الهوان والإذلال أمدًا طويلاً ، والتى مرنت على سماع الزور والباطل وحده .

إن الدين قد انتقل انتقالة واسعة عن المفهوم البدائى الضيق الذى ألفه الإسرائيليون : مفهوم الهيكل ، ومملكة الرب ، والشعب المختار ، وحكم العالم باسم رب الجنود عن طريق حكماء صهيون أو بيت إسرائيل .

إن هذه الكلمات المصورة لمعنى الدين أليق بالعهد البدائى الذى كانت قبائل إسرائيل فيه تغدو وتروح بقيادة رعاة محليين يؤدون واجبهم حينًا ، أو يقتلون قبل هذا الأداء المفروض .

لقد أصبح للدين مفهوم أرحب ، ليس فيه هيكل مقدس ، ولا شعب مختار ولا أدب محتكر .

حقيقة هذا الدين أن الله رب العالمين أجمعين على سواء .

---

(١) حبذا لو عنى المؤرخون العرب بوضع فهرس مقارن شامل لهذه الأعلام القديمة ، حتى يلقوا ضوءاً على هذه المسميات .

وأن التقدم عنده ليس بالنسب ولا بالادعاء بل بالخلق الزكى والتقوى المهيمنة . لا كهانة هناك ولا تهاويل ولا هياكل .

شيئان فقط هما أساس العلاقة بين الله الأحد ، وبين كل إنسان يمشى على قدميه فى القارات الخمس : الإيمان والعمل الصالح .

إن محاولة بنى إسرائيل مسخ مفهوم الدين على النحو الذى جمدوا عليه من عشرات القرون جريمة فاحشة لا يمكن قبولها .

لقد جاء عيسى ابن مريم ليكسر القيود الصلبة التى أراد بنو إسرائيل حبس الدين داخلها .

وكان مجيئه تمهيدًا للرسالة الخاتمة التى مزجت الدين بكل أشواق الإنسانية الرفيعة فى الإيمان المهدى والأخوة العامة ، حيث لا مكان للتسامى إلا بالقلب السليم والفكر السليم .

نعم بعث الله محمدًا مسوِّيًا بين أجناس البشر فى الولاء للحى القيوم مسقطًا كل سلطان مفتعل فى ميدان الروح أو فى ميدان المال .

فإذا أراد بنو إسرائيل أن يلحقوا بقافلة الإنسانية الحرة المتآخية فلا بد أن يؤمنوا بعيسى ومحمد ، وإذا كانوا حراصًا على استعادة مجدهم القديم فطريق الخلاص مفتوحة أمامهم ، ولكى يعرفوها جيدًا قال الله : ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ . . .** ﴾[١] .

إن بنى إسرائيل يحلمون أن يحكموا العالم من هيكلهم وهم مصرون على تصديق ما لديهم وحده وتكذيب كل ما جاء به عيسى ومحمد .

وما لديهم مزيج من وحى الله وهوى الأنفس .

ولو افترضنا جدلاً أنه حق لا ريب فيه ، فإن الوقوف عنده وحده ، ونبذ ما أوحى الله بعده ، مسلك لا تصلح به الدنيا ولا يسعد به عباد الله .

ومن هنا اشترط الإسلام أن يكون الإيمان بكتب الله كلها ، ورفض ما سوى ذلك من إيمان مبتور فقال جل شأنه : ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ .[٢]

(١) البقرة : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) المائدة : ٦٨ .

وعلى لسان موسى - كبير أنبياء بنى إسرائيل - ذكر ربنا جل جلاله أن أبواب رحمته مفتحة لعباده ، وأن الصلحاء الأتقياء يستطيعون دخولها متى شاءوا ، فعندما دعا موسى : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ كان الجواب الإلهى له : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] .

إن قيادة العالم باسم الله ليست مهمة سهلة يستطيعها اليهود بمهارتهم المالية وألاعيبهم الشيطانية ، وتسخيرهم للشعوب المفرطة وانتهازهم للفرص المتاحة . وقد نبأ القرآن الكريم أن التاريخ اليهودى سيتفاوت بين مدٍّ وجزرٍ ، ومعصية وطاعة وهزيمة ونصر .

قال لهم بعد هدم الهيكل الأثير : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا .. ﴾ وقال لهم أيضًا : ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾[2] .

أى إن عدتم للفساد عدنا للانتقام .

وقد عاد اليهود إلى فلسطين - لأسباب شتى - فكيف عادوا ؟ وما هى مثلهم العليا ، وما مواقفهم من وصايا الله للنبى الخاتم والنبى الذى سبقه وبشر به ؟

لقد عادوا متشبثين بما لديهم وحده مكذبين لكل ما جد بعد .

وكسبوا نصرًا بعد نصر ، على من ؟

على أوزاع من العرب جهلوا رسالتهم ، ونسوا تاريخهم ، وعاشوا فى دنيا الناس أذنابًا ، وعن كتاب الله وهدى نبيه غرباء .

إن مجموعة الشعوب الإسلامية تشعر بجزع مر لا للحروب التى جرت بين العرب واليهود ، ولكن للطريقة التى جرت بها هذه الحروب ، ولمظاهر الانحلال والفسق عن أمر الله التى ملأت جوها .

---

(١) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) الإسراء : ٧ .

كان العرب أزهد الناس فى كتابهم ، وكان اليهود ألصق الناس بتوراتهم . كان اللص متحمسًا فى الهجوم ، وكان رب البيت باردًا فى الدفاع .

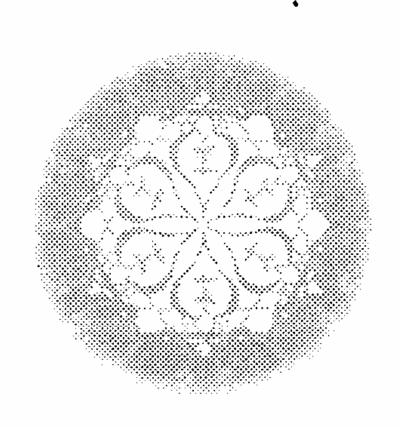
وبلغ من نجاح الغزو الثقافى لبلادنا أن الحرب تعلن علينا لفرض دين ، واجتياح أمة ، ومع ذلك تتبارى وسائل الإعلام فى تضليل الفكر العربى ، وتصف هذه الحرب بأى شىء إلا أنها تتصل بالدين .

ولم ذلك ؟ حتى لا يستيقظ الوعى الإسلامى العارم ، وتتجاوب الأصداء بضرورة العودة العامة الجادة إلى الإسلام لوقف هذا الفناء القادم .

لكن آمالنا أن غرائز الأمم تصحو لملاقاة الخطر الداهم ، وأن التنادى بالإسلام سوف يكون اليوم صيحة النجاة .

وسوف يكون غدًا صيحة النصر .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾[١] .



(١) النمل : ٩٣ .

الإسلام كلٌّ لا يتجزأ(★)

أصاب جهاز (التليفزيون) عندى عطل مبهم فلم تظهر الصورة المرتقبة ، ونظرت إلى الجهاز الجاثم فى مكانه لا يؤدى عمله نظرة استغراب ! وتحسسته بيدى فخيل إلى أنه لا ينقص شيئًا من آلاته الجلية والخفية .

وأخيرًا جاء العامل المتخصص فى إصلاحه ، واستبدل بجزء تالف منه جزءًا صالحًا ، واستأنف الجهاز عمله ، وشرع يحقق الفائدة المرجوة منه !!

وقلت فى نفسى : إن الجهاز كله توقف عن أداء رسالته حتى تعاونت أجزاؤه الصغار والكبار على تحقيق وظائفها المنوطة بها !!

ولا عجب فقد تتوقف الدبابة عن السير والقتال لقطعة تنقصها فى مقدمتها أو مؤخرتها .

وقد يتعطل مصنع عن الإنتاج تكلف إنشاؤه الألوف المؤلفة من الجنيهات ؛ لأنه يفتقر إلى تكملة لا تساوى مائة جنيه .

وهكذا شئون الحياة المادية والأدبية ، قد يصيبها عطب فادح ؛ لأن شطرها أو أغلبها موجود ، وبقيتها الأخرى مفقودة عن خطأ أو تعمد .

ومن ثم قد ترى أمامك أشياء صالحة ، ولكنها قليلة الجدوى ، لأنها مبتورة ، وما تتم قيمتها وتبرز ثمرتها إلا إذا دارت الحياة فيها وفيما يكملها ، وعندئذ ينطلق التيار فى دائرته المغلقة فيسطع النور .

إن تعاليم الإسلام كذلك لا تصلح الحياة وتقيم المجتمعات إلا على النحو الذى شرحنا .

وعناصر الوحى تشبه عقاقير الأدوية لا يتم الشفاء بها إلا إذا أخذناها كما جاءت .

أما إذا طرحنا عقارًا ، وتناولنا آخر فلن يذهب لنا سقام .

وقد وجدت أن كثيرًا من علل المسلمين الفكرية والنفسية ، بل عللهم الاقتصادية والسياسية ترجع إلى أنهم يجدون مع بعض النصوص ، ويهزلون مع بعضها الآخر ، فلا يحصدون من هذا التناقض إلا ضياع النصوص كلها .

(★) من مجلة الوعى الإسلامى (جمادى الثانية ١٣٨٩م - ١٤ أغسطس ١٩٦٩)

ولا يفيدون من النصوص التى عملوا بها - فيما يزعمون - شيئًا طائلاً ! لأن وجودها المنقوص فى المجتمع كوجود جهاز (التليفزيون) الذى سقت لك خبر عطله .

تأمل معى هذا الحكم الشرعى فى فرع من فروع الفقه الإسلامى .

يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾(1) .

إلى هنا يمكن تقرير الحكم العملى فى شأن يتصل بكيان الأسرة ، وربما لا يشغل العلماء أنفسهم عند تقرير الحكم بأبعد من ذلك عند إيراد النص .

أفهذا ما فعل القرآن الكريم ؟ لا ، لقد أعقب ذلك بخمس جمل تتضمن فنونًا من النصح والتأديب والتربية يضيع المجتمع إن أضاعها ، فقال جل شأنه :

١ - ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ .

٢ - ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ .

٣ - ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ .

٤ - ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ .

٥ - ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(2) .

وعندما توجد فى بلادنا أحكام الطلاق ولا توجد معها بقية المعانى التى صاحبتها فى هذه الآية فسوف يلعب بكتاب الله ، ولن تزيد الأمة إلا خبالاً . !!

خذ مثلاً آخر ، لقد نهى الإسلام عن السرقة ، وأمر بقطع يد السارق ، بيد أن هذا الحد من حدود الإسلام يكون خيرًا وبركة مع إحياء أوامر الله كلها ، وإقامة شعب الإيمان الكثيرة ، التى تسد يقينًا كل ثغرة ، وتمنع أى غبن ، وتطارد آفات البطالة والجوع عند البعض ، وآفات النهب والحيف والسرف عند البعض الآخر .

أما مع رفع كل رقابة عن طرق الاكتساب ، وإتاحة الثراء من شتى وجوه الحرام ، وإيقاع الضعاف فى عقابيل البأساء والضراء ، فالأمر يحتاج إلى تبصر فى التطبيق .

---

(1) ، (2) البقرة : ٢٣١ .

ومعاذ الله أن نتريث فى إقامة حد من حدود الله ، ولكننا نقول مقالة الحسن ، وقد رأى الشرطة تقبض على لص فقال : **أسارق السر يسعى به إلى سارق العلانية . . . ؟!!**

وما كذلك دين الله .

وسمعت متحدثًا فى الدين يذكر أنه لا حدود للمهر ، ويستشهد بقصة المرأة التى اعترضت عمر بن الخطاب لما أراد تقييد المهور .

والقصة صحيحة ، ولكن المتحدث قليل الفقه فى الإسلام ، ضعيف الشعور بمآسى المسلمين اليوم . .

إن الجمهرة من الشباب ألفت أن تقضى صدر عمرها ، ولا أقول شطره ، فى التسول الجنسى والانحراف الشائن ، وكل تعسير للحلال سيتبعه حتمًا تيسير الحرام ، فكيف يلقى فقيه ربه بإقرار هذه الحال ، أو إقرار ما يؤدى إليها يقينًا ؟

إن قصة عمر مع المرأة المعترضة تُفْهَمُ فى جو كان الرجل يستطيع فيه الزواج مثنى وثلاث ورباع . وكان الحرام يقع فلتات نادرة أو استثناء من قاعدة عامة .

أما اليوم فإن العرف السائد بين جماهير المسلمين فى الزواج والمهور والهدايا لا صلة له بتقوى الله ، ولا إشاعة الاستعفاف ، ولا إقرار الطهر النفسى والاجتماعى .

إنه عرف يقوم فى جملته على رذائل الرياء ، والكبرياء ، ورغبة أسر كثيرة فى الانتفاخ والتعاظم .

إن الإسلام كُلٌ لا يتجزأ ، والشبكة التى تنسج تعاليمه الدقيقة تفقد جدواها عندما تخرق من جانب واحد ، فكيف إذا تعددت فيها الخروق ، وتفاحش الإهمال والتلف ؟

والواقع أن هجر بعض الأحكام الإسلامية ، والإقبال على بعضها الآخر ، هدم لمبدأ السمع والطاعة المأخوذ على جماعة المؤمنين .

فإن تقسيم الوحى الإلهى على هذا النحو لا يعدو أن يكون تحكيمًا للهوى الشخصى فيما ورد ، فما أعجبنا قبلناه وما لم نسغه رفضناه .

وهذا قريب من مسلك المشركين أنفسهم مع رسول الله ، فإنهم لم يردوا كل ما جاء به ، بل وافقوه على البعض ، وحاربوه على البعض الآخر ، **ولذلك أمره الله بالثبات**

على الكل ، وقال له : ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾(١) .

واتباع الهوى فى استبقاء حكم واطراح آخر ، معناه أن ما استبقى ليس لأنه أمر به!!

فقد أمر بغيره كذلك فلماذا ترك ؟

معناه أن ما استبقى ظفر بالحياة ؛ لأنه أرضى رغباتنا فقط ، ولو صادمها لطوحنا به هو الآخر .

وقد نبه القرآن الكريم إلى أن فساد بنى إسرائيل نشأ مع هذا العوج ، فقد أخذت عليهم المواثيق بأمور سواء ، ففعلوا بعضها وتناسوا بعضها ؛ لأنهم يتصرفون وفق شهواتهم ، ولا يرتبطون بأمر الله ونهيه .

فكان التعقيب الإلهى على هذا السلوك : ﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾(٢) . .

والأمة الإسلامية اليوم موزعة على عشرات الدول ، وأمر الإسلام فى كل دولة منها يستحق الدراسة ، ويؤسفنى أن أقول : إنى لم أره مكتمل الشكل والموضوع فى قطر من أقطار الأرض .

هناك مجتمعات لا تعترف بالحدود والقصاص ، ومجتمعات لا تعترف بدساتير الحريات والحقوق ، ومجتمعات لا تعترف بالحلال والحرام ، وأخرى تترك الصلاة والصيام ، وأخرى . . . وأخرى . . .

وأعداء الإسلام كلما رأوا جزءاً منه أصابه الشلل ، سارعوا بالتدخل الماكر ، ليزيدوا الطين بلة ، أو ليزيدوا المريض علة .

ونحن نصرخ بأولئك المسلمين المفرطين أن يرجعوا إلى دينهم كله ، لا يدعون منه شيئًا ، ولا يفرطون فى جانب ، ولا يأذنون لعدو سافر ولا لصديق جاهل أن يصرفهم عن كتاب ربهم وسنة نبيهم ، فذاك وحده طريق النصفة والانتصار .

إن شعب الإيمان التى تبلغ السبعين موزعة توزيعًا دقيقًا على الدائرة الرحبة التى تمد إليها وظيفة الإيمان وتنتشر فيها أشعته .

---

(١) هود : ١٢ .　　(٢) البقرة : ٨٥ .

ولما كان الإسلام علاقة تشمل النفس والمجتمع والدولة ، وتتناول المعاش والمعاد فى إطار من معرفة الله ورقابته ، فإن تعاليمه تشبه شبكة الأعصاب المربوطة فى الكيان الإنسانى كله لا تخلو منها جلدة بين الرأس والقدم . . !

قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(١) . .

ومن الخطأ تصنيف تعاليم الإسلام على أساس فنى وتصور أن بعضها يقوى وينمو ، فى حين أن بعضها الآخر يذبل ويذوى .

إن ذلك قد يجوز فى عالم الدراسات النظرية حيث ينجح الطالب فى مادة ويرسب فى أخرى ؛ لأنه استوعب الأولى وأهمل الثانية .

أما فى المجتمع الكبير فإن اعتلال بعض الإسلام ينقل العلة إلى البعض الآخر على عجل أو على مهل ما لم نسارع بالاستشفاء والتصون وإنفاذ أوامر الله فى كل مجال .

فضعف العقيدة مثلاً ليس يترك أثره الردىء فى صلة المسلم بربه بل يتعدى ذلك إلى موقف الفرد من الجماعة وموقف الدولة من العالم أجمع .

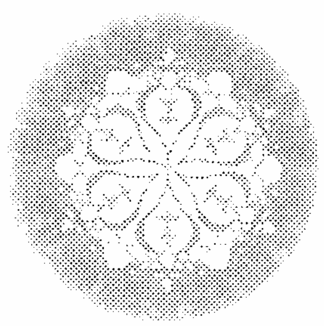
وترك الصلاة ليس معصية خاصة فقط بل هو ذريعة إلى انهيار الأخلاق وانتشار الآثام .

وإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ليس بروداً فى عاطفة التدين فقط ولكنه آية على موت الضمير الاجتماعى وتلاشى رسالة الأمة .

والاستعمار الحديث فى حملته على الإسلام لا يقوم بهجوم شامل على كل شىء إنه أذكى من ذلك وأدهى .

إنه يصر على إماتة بعض التعاليم أو سرقتها من الوعى العام عالمًا أن ما بقى سيتبع ما أخذ .

ترى هل سنخدع عن ديننا أم ندافع عن كل ذرة منه؟!! .



(١) النمل : ٨٩ .

مشاعر نفسيَّة وَراء بعض الخلافات

المؤمنون أفرادًا وجماعات يتحرون صراط الله فى مسالكهم كلها ، ويجتهدون أن تقع أعمالهم وفق مراد الشارع الحكيم سواء فى العبادات المنقولة ، أو المعاملات المعقولة .

وغير المؤمنين يخطون طريقهم فى الحياة بجهدهم الفكرى ، وتجاربهم الخاصة ، وصلتهم بالوحى الأعلى مقطوعة أو واهية .

وفى الوقت الذى تحكم فيه النصوص السماوية والقواعد الدينية حياة المؤمنين بالله ، نجد غير المؤمنين ينشطون بفكرهم المجرد للتصرف فى هذه الحياة ، ووضع ما يرون من دساتير وقوانين يظنون أنها تكفل مصالحهم وتضمن سعادتهم .

وقد اتسعت علوم السياسة والاجتماع والأخلاق والاقتصاد وغيرها من العلوم الإنسانية البحتة وانفردت بقيادة الإنسان على ظهر الأرض إلى جانب مجموعة من الفلسفات النظرية التى اشتغل بها العقل البشرى من قديم .

أما المؤمنون بالله ـ ونحن فى هذا الفصل نعنى المسلمين خاصة ـ فهم يعتمدون على شمول التعاليم السماوية لشئون حياتهم ويستغنون بها عما وراءها من مذاهب ونظرات ، معتقدين أن فى هدايات الله الغنى الكامل ، وأن الله جل شأنه قد ضبط معاشهم ومعادهم بكلامه وسنة نبيه ، فلا مكان لشىء آخر بعد . .

﴿ **اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ . .** ﴾[1]

﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾[2]

والحق أن الوحى الإلهى فى الرسالة الخاتمة قد كفى وشفى ، فحدد حيث ينبغى التحديد وفصل حيث يستحب التفصيل ، وأجمل وعمم حين يقتضى الأمر إرسال التعليمات مجملة عامة ، وحث العقل على أداء وظيفته فى البحث والاكتشاف والتبصر والاعتبار ، وحذره أن يجانب الحق بالحدس والتخمين ، وأن يبدد قواه فى اقتحام الغيوب المعجزة .

كما علمه الأدب مع الله ورسوله ، فلا مكان لاقتراحاته حيث يتكلم الوحى ، ولا لابتداعاته حيث مضت السنة!!

---

(١) الشورى : ١٧ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

والمعانى التى قررناها آنفا ليست موضع خلاف بين المسلمين ، ولكن الخلاف أخذ لونًا آخر يقترب اقترابًا شديدًا من هذا الموضوع ، فقد تساءل أسلافنا غفر الله لهم عن مكانة العقل بالنسبة إلى الحظر والإباحة والفعل والترك والاستهجان والاستحسان ، وكانت إجابة كثير منهم أن العقل فى هذا الميدان صفر ، وأن الشرع وحده هو كل شىء .

وفى هذه الإجابة غموض وجَور !

فإن العقل يستطيع بنوره الذاتى أن يعرف الشر فى أشياء كثيرة ، وأن يلحظ الخير فى أشياء كثيرة وقد لفت القرآن الإنسان إلى أنه بفطرته قادر على التفرقة بين شناعة الجهل وكرامة العلم : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾[1] ، وإلى أنه بفطرته يستقبح الظلم ويأبى الحكم به : ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[2] .

صحيح أن العقل الإنسانى بحاجة إلى عون من الله ، ومدد من الوحى ، بيد أن هذه الحاجة لا تعنى بخس قيمته ، ولا التهوين من قدرته المحدودة فى مجال التحسين والتقبيح لكن جمهور السلف رأى - سدًا لباب الاستغناء بالعقل - أن يجعل الشارع صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى هذا المجال ، ويقرر هذا العلامة الزنجانى فى كتابه [3] : (تخريج الفروع على الأصول) فيقول : ذهب الشافعى رضي الله عنه وجماهير أهل السنة إلى أن الطهارة والنجاسة وسائر المعانى الشرعية كالرق والملك والعتق والحرية ، وسائر الأحكام الشرعية ككون المحل طاهرًا أو نجسًا ، وكون الشخص حرًا أو مملوكًا ، ليست من صفات الأعيان المنسوبة إليها ، بل أثبتها الله تحكمًا وتعبدًا ــ غير معللة !! لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، ولا تصل آراؤنا الكليلة ، وعقولنا الضعيفة . وأفكارنا القاصرة إلى الوقوف على حقائقها ، وما يتعلق بها من مصالح العباد ، فذلك حاصل ضمنًا وتبعًا ، لا أصلاً ومقصودًا ، إذ ليست المصلحة واجبة الحصول فى حكمه .

---

(١) الزمر : ٩ . (٢) الجاثية : ٢١ .

(٣) أخرجت جامعة دمشق هذا الكتاب فى السنوات الأخيرة وهو من ذخائر الفقه الإسلامى المقارن .

واحتج على ذلك : بأن الله تعالى إذا جاز أن يعاقب الكافر على كفره ، والفاسق على فسقه ولا مصلحة لأحد فيه ، جاز أن يشرع الشرائع ، وإن تعلق بها مفسدة ، ولا يتعلق بها مصلحة لأحد !!

ولذلك كلف الله تعالى الإنسان ما ليس فى وسعه فقال تعالى : ﴿ **فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾[1] ﴿ **فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ﴾[2] وقال للملائكة : ﴿ **أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[3] وكل ذلك تكليف للإنسان ما ليس فى وسعه ، وذلك ضرر لا مصلحة فيه [4] .

وسر هذه القاعدة أن الله تعالى مالك الملك وخالق الخلق . يتصرف فى عباده كيف يشاء ، ولا كذلك الواحد منا ، فإنه إذا أضر بغيره كان متصرفًا فى ملك الغير بالضرر ، وذلك ظلم وعدوان . وذهب المنتمون إلى أبى حنيفة رضي الله عنه من علماء الأصول إلى أن الأحكام الشرعية صفات للمحال ، والأعيان المنسوبة إليها ، أثبتها الله تعالى ، وشرعها معللة بمصالح العباد لا غير ، كما أن الحسن ، والقبح ، والوجوب ، والحظر ، والندب ، والكراهة ، والإباحة ، من صفات الأفعال التى يضاف إليها ، غير أنهم قسموا أحكام الأفعال إلى : ما يعرف بمجرد العقل وإلى ما يعرف بأدلة الشرع على ما سيأتى :

أما أحكام الأعيان فقد اتفقوا على أنها كلها تعرف بأدلة شرعية ، ولا تعرف بمجرد العقل ، وأنها كلها تثبت بإثبات الله تعالى .

واحتجوا فى ذلك بقياس الشاهد على الغائب ، بناء على قاعدة التحسين والتقبيح ، وزعموا أن شرع الحكم لا لمصلحة عبث وسفه ، والعبث قبيح عقلاً ، وهو كإقدام الرجل اللبيب على كيل الماء من بحر إلى بحر ، فإنه يقبح منه ذلك ويستحق الذم عليه .

وإذا تمهدت هذه القاعدة فنقول : الشافعى رضي الله عنه حيث رأى أن التعبد فى الأحكام هو الأصل غلب احتمال التعبد ، وبنى مسائله فى الفروع عليه .

وأبو حنيفة رضي الله عنه حيث رأى أن التعليل هو الأصل بنى مسائله فى الفروع عليه ، فتفرع عن الأصلين المذكورين مسائل . . إلخ .

---

(١) هود : ١٣ .
(٢) البقرة : ٢٣ .
(٣) البقرة : ٣١ .
(٤) سترى خطأ ذلك القول فضلاً عما فيه من مغالطة .

ولست هنا بصدد ترجيح مذهب الأحناف ، وتضعيف رأى الجمهور ، فالأمر عندى أعمق من ذلك .

إن المسلمين كافة يعلمون أن الله هو القاهر فوق عباده ، وأنه ليس لبشر ما أن يقف أمامه إلا عانى الوجه مكسور الشوكة .

وإن إرادته نافذة فى أرجاء الملكوت لا يعترضها إنس ولا جن ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾[1] .

لكن الله - وله المجد الذى لا يبلى - خلق السماوات والأرض بالحق لا بالباطل ، وسير الكائنات فى البر والبحر والجو بالحكمة لا بالفوضى ، ودبر الأمور من الأزل إلى الأبد وفق نظام دقيق ، لا خبط عشواء ولا تقدير مجازف ﴿ **وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ** ﴾[2] .

فكيف يتصور فى شرائعه أن تتجنب المصلحة أو تنطوى على مفسدة ؟

إنه حقًا لا يُسأل عما يفعل ، ولكن لماذا نتصور أن من ذاته فوق المسئولية يجوز أن يصدر عنه ما لا ينبغى ؟ بحجة أنه مالك الملك ؟

الأولى من ذلك ، والأدنى إلى الصواب ، أن تعرف حدود الدائرة التى يستطيع فيها العقل البشرى الإدراك الصحيح والحكم السديد .

إن الإنسان الفرد يتفاوت حكمه فى مرحلتين من عمره على شىء واحد ، وربما استقبح وهو شيخ ما كان يستحسنه وهو شاب .

وربما نسج القصور غشاوة كثيفة أو خفيفة على أبصارنا فظننا نفعًا لنا ما هو ضار بنا ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾[3] .

فإذا توهمنا عوجًا ما فى مظاهر الخلق ، أو جورًا ما فى أحوال الناس ، فلنتهم أفكارنا نحن ولنعترف بقلة علمنا بدل أن نقول : ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ** ﴾[4] .

وأعتى علماء المادة يعترف بأن ما نجهل أضعاف أضعاف ما نعلم ، وأن حصيلة الذكاء البشرى طوال القرون تشبه عودًا من الثقاب أوقد فى ظلمات ليل ضرير الآفاق ، إنه ما يرى فى هذا الكون الكبير إلا النزر اليسير .

---

(١) الأعراف : ٥٤ . (٢) القمر : ٥٣ . (٣) البقرة : ٢١٦ . (٤) الأنبياء : ٢٣ .

وقد شاء رب العالمين أن يزود الإنسان بالعقل ليستبين به ـ فى نطاق محدود ـ الخير من الشر والخطأ من الصواب ، كما زود العين بالقدرة على الرؤية فى نطاق أبعاد معينة . وربما أصيبت العين بعاهة عارضة تمنعها من النظر البعيد أو القريب ، بيد أن ذلك لا يعنى أن طبيعة العين العجز عن الرؤية .

وكذلك لا نسلم لأحد القول بأن العقل عاجز بطبيعته عن إدراك الحسن والقبح فى الأشخاص والأشياء ، ولا نسلم أبدًا بأن الكذب والصدق ، والعدل والجور معان متساوية القيمة أصلاً حتى تنزل الوحى الأعلى فحسن هذه وقبح تلك .

والذى نراه أن جمهور المسلمين وفى مقدمتهم الإمام الشافعى رضي الله عنه يقصدون بكلامهم فى التحسين والتقبيح رفض تحكيم الفلسفة العقلية فى سير الإنسان ومصيره ، وحاضره ومستقبله ، وشئون حياته كلها ما دق منها وما جل .

وهذا مذهب خطير بلا ريب ، بل هو تجاهل لرسالات الله كلها ، واستعلاء على ما جاء بها ، وقبول ما يعجب ورد ما لا يعجب .

ومن فجر الخليقة حاول الإنسان أن يعتمد على نفسه فى الفعل والترك والقبول والرفض ، وفى عصرنا هذا أعطى الإنسان نفسه حرية مطلقة فى التشريع الخاص والعام ، وتصرف فى شتى التقاليد بالمحو والإثبات . وجعل حقه فى التحسين والتقبيح فوق ما قرع آذانه ليلاً ونهارًا من آيات الله والحكمة .

وما يختلف مسلم ومسلم فى أن ذلك المسلك مردود جملة وتفصيلاً .

وإذا كانت هناك الآن مقررات فى علوم الاجتماع والاقتصاد ، أو فى ميادين السياسة والقانون تختلف مع نصوص الدين وقواعده العامة فهى فى نظر فقهاء المسلمين قاطبة منكورة مبعدة . .

فإن أوامر الله ونواهيه هى المصدر الأعلى ، أو قل هى المصدر الأوحد لما يحظر أو يباح ، وقد عاد الزنجانى فى كتابه القيم (تخريج الفروع على الأصول) إلى هذا الموضوع مرة أخرى فقال : «ذهب جماهير العلماء إلى أن التحسين والتقبيح راجعان إلى الأمر والنهى ، فلا يقبح شىء لعينه ، ولا يحسن شىء لعينه ، بل المعنى بكونه قبيحًا محرمًا ، أنه متعلق النهى ، والمعنى بكونه حسنًا واجبًا أنه متعلق الأمر ، واحتجوا فى ذلك بأن إيجاب العقل شيئًا من ذلك لا يخلو إما أن يكون ضروريًا ، أو نظريًا .

والأول محال ، فإن الضروريات لا تنازع فيها ، كيف ونحن جم غفير وعدد كثير لا نجد أنفسنا مضطرين إلى معرفة حسن هذه الأفعال ولا قبح نقائضها .

والثانى أيضًا محال لإفضائه إلى التسلسل .

وذهب المنتمون إلى أبى حنيفة رضي الله عنه من علماء الأصول إلى أن الأفعال تقسم إلى ثلاثة أقسام :

فمنها : ما يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه بديهة ، كحسن الصدق الذى لا ضرر فيه وقبح الكذب الذى لا نفع فيه .

ومعنى استقلال العقل بدرك ذلك عندهم : أنه لا يتوقف على إخبار مخبر .

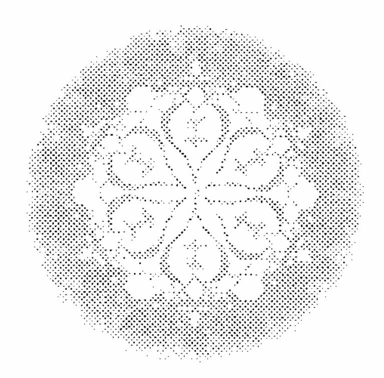
ومنها : ما يدرك حسنه وقبحه بنظر العقل كحسن الصدق المشتمل (على الضرر) وقبح الكذب المشتمل على النفع .

ومنها : ما لا يستقل العقل بدرك حسنه وقبحه أصلاً ، دون تنبيه الشرع عليه كحسن الصلاة والصوم والحج والزكاة ، وقبح تناول الخمر والخنزير ولحوم الحمر الأهلية ، وزعموا أن أمر الشرع فى هذا القسم ونهيه ، كاشف عن وجه حسن هذه الأفعال وقبحها ، لعلمه بأن امتثال أمره فيها يدعو إلى المستحسنات العقلية ، وكذلك الترك فى نقيضها من المناهى واحتجوا على كون العقل مدركًا لمعرفة الحسن والقبح بأن البراهمة يقبحون ويحسنون مع إنكارهم الشرائع وجحدهم النبوات .

وقد رفض الزنجانى مذهب الأحناف الذى صوره فى إيجاز ، وآثر عليه غيره .

والذى نعود إلى توكيده أن الله جل شأنه هو الحاكم المقسط ، وأنه لا يشرع إلا ما فيه صلاح أمرنا فى العاجل والآجل ، وأنه منحنا عقولاً تستطيع أن تبصر وجه الحكمة فى أغلب ما شرع ، وأن ما يفوتها عرفانه فلقصورها عن الإحاطة بكل شىء .

وتلك معان لا يختلف الفقهاء فيها ، وما ورد يشعر بخلاف فأساسه الحرج النفسى من مذاهب جائرة عن الطريق الحق أو بتعبير فقهائنا الأقدمين أساسه (سد الذريعة) .



حقيقة وشريعة .. !!

جلست يومًا أختم الصلاة وأردد الألفاظ المائة المأثورة ، متدبرًا ما تدل عليه من تسبيح وتحميد وتكبير ، بيد أن الشيطان سرق فكرى دون أن أدرى ، فإذا أنا أسرح فى إحدى القضايا ، أستعرض أحداثها وأتتبع مراحلها وأتوجس من نتائجها !! وغصت فى أعماق القضية العارضة حتى ارتطمت بقاعها ولسانى يحصى آخر الكلمات المائة التى تعقب الصلوات المكتوبة ، لتكون ذكرًا بعد ذكر ، وتحية بعد تحية !!

وشعرت بتناقض بين حالى ومقالى ، وساءلنى ضميرى : أكنت حقًا تذكر ربك ، وتسبحه وتحمده وتكبره ؟

ولم يكن للكذب مجال ، لقد كان فؤادى فى وادٍ آخر ، وإن كان لسانى يردد ما تعوده من كلمات .

لقد كنت حاضرًا كغائب ، أو غائبًا كحاضر ، وما أستطيع الزعم بأنى فيما هممت كنت من الذاكرين !!

إن البون بعيد جداً بين الكلمات التى ننطق بها ، وبين معناها المصاحب لها ، المخبوء تحت حروفها .

لو كانت إدارة الألفاظ على الشفتين تثبت معانيها للفور كما تدير أزرار الكهرباء فتسطع المصابيح للفور ، لكنا فى حال غير الحال ، ووضع غير الوضع ! ولكن المسافة شاسعة بين الكلمات ودلالتها الملاصقة .

وكم فينا من ببغاوات تجرى على أفواههم كلمات جليلة ، فإذا ذهبت تلتمس حقائقها فى نفوس القائلين ، وجدت الفراغ أو وجدت النقيض .

والمؤسف أن أغلب معاملتنا لله يسيل من هذه العين الحمئة !!

إن أسوأ ما يعترى الفرائض المكتوبة والعبادات الرتيبة أن يؤديها المكلفون وهم فى شبه غيبوبة ، لا تلاحق عقولهم معانيها ، ولا تحصل نفوسهم حكمتها . .

ويقول علماء النفس : إن درجات الحس تتفاوت عند مباشرة المرء لشتى الأعمال ، فقد يقع الإحساس فى بؤرة الشعور وذلك فى حالات الانتباه الكامل ، وقد يهبط الوعى إلى حاشية الشعور عند ملاحظة أمور مألوفة .

وهناك منطقة شبه الشعور التى تصحب القيام بأعمال معتادة ، وأظن بعض الدواب تشارك البشر فى هذه الحالة ، فهى إذا دُرِّبَتْ على أشغالٍ معينةٍ اعتادتها . والتكاليف الدينية يوم تؤدى على أنها عادات مجردة ، ليس معها الصحو العقلى المطلوب تصبح إلى الأدواء أقرب منها إلى الأدوية .

بل إن الكفار الصاحين الأيقاظ إذا التقوا فى ميادين الحياة بعابدين من هذا النوع المخدر الغافى سرعان ما يسبقونهم سبقًا بعيدًا ويغلبونهم غلبًا أكيدًا .

إن الله شرع الدين موضوعًا وشكلاً ، معنى ولفظًا ، يقظةً نفسيةً ، وحركةً بدنيةً ، فمن أخذ الظاهر من هذا كله وترك الباطن فهو يعبث بالدين ، ويتخذه لعبًا ولهوًا .

ويحسن أن نفرق هنا بين عدة أحوال ، فإن المؤمن الجاد الصادق عندما يشرع فى نسك ، يقبل على الله معقود العزم حسن القصد .

وربما اختلس الشيطان شيئًا أو أشياء من عبادته ، فهو يحزن لذلك ويتعلم الحرص والحذر ، ومراتب المؤمنين فى مدافعة هذه الغارات لا حصر لها .

وخيرهم من تنجح مجاهداته فى صيانة عمله جوهرًا ومظهرًا ، وأعجزهم من استغفله الشيطان فشتت لُبَّه فى متاهاتٍ ليس لها آخر ، كلمات تقرب إلى الله بعمل .

ولا بد من استبعاد النيات الملتاثة فى هذا المجال .

إننى أحيانًا أسمع الأغنية الدينية تصف مناسك الحج أو تعرض حياة الرسول ، فيمتلئ قلبى بالرقة والضراعة . ثم استحضر سيرة المغنى والملحن والعازفين فأحس فجوة رهيبة بين جلال ما يقال وفساد مَنْ يقول . .

إن الفرق الماهرة فى أداء هذه الألحان الدينية هى هى التى تستفز الشهوات الساكنة ، وتزين مزالق الشر لألوف من الخلق وتجدد نشاط الأشرار كى يسترسلوا فى غوايتهم . ولذلك عندما أسمع مناجاة الله على لسان مغنٍّ أو مغنيةٍ أسأل النفس : أهذا ذكر الله حقًّا أم هى صنعة الكلام والتطريب وحسب؟

ولِمَ التمثيل بالغناء الدينى ؟!!

هل تتبعت مجالس القرآن التى تحف بنفر من القراء المشهورين ورأيت ما يسود هذه المجالس من صخبٍ وخفةٍ ؟!!

إن الصياح الطائش الذى يفتعله بعض السامعين يستخف للأسف هؤلاء القراء فتراهم ينسون الكتاب ومنزله ، وما ينبغى له من إجلال وتوقير ، ويحولون الآى إلى نغم معجب للجهال يزيدهم ولهًا على وله !!

ثم ينفض الحفل الماجن دون أن ينشرح بذكر الله صدر أو تدمع لخشيته عين ، أو تنعقد على طاعته إرادة ، ويئوب القارئ والسامعون إلى بيوتهم وهم يخوضون فى غضب الله خوضًا !!

إن ما يطلب من الناس ليس شيئًا صعب التصور أو عسر المنال ، مطلوب من الإنسان العاقل أن يعى مايقول ، وأن يعنيه ، وأن يفقه ما يسمع ويستوعبه ، فهل هذا تكليف بما يبهظ الهمم ؟ مطلوب من المصلى إذا وقف بين يدى الله أن يعرف من يناجى ، فإذا قال : الله أكبر ، كان شعوره أنه فى حضرة الكبير المتعال عاصمًا له من الالتفات إلى غيره ، ومحرمًا عليه الاشتغال بأمر دونه ، وهذا سر تسمية افتتاح الصلاة بتكبيرة الإحرام .

مطلوب من التالى للوحى أن يفك إغلاق قلبه فإذا نُودِىَ سَمِعَ ، وإذا بُصِّرَ رأى ، وإذا استثير نشط ، وقد جاء فى وصف عباد الرحمن : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا** ﴾(١) .

العلاقة بالله - على الحقيقة لا على التجوز - تطلب البعد عن آفتين : التوهم أو الخيال ، والتميل أو التصنع . فأما عن الآفة الأولى فقوانين الآفة الأولى تجعل المرء يرسل القول على عواهنه ، وقوانين الإيمان لا تدع المؤمنين طويلاً بإزاء هذه الأوهام ، بل ترميهم الأحداث تلو الأحداث حتى ينكشف معدن النفس . فإما ثبت الإنسان عندما يقول وتحمل تبعاته كاملة . وإما انهزم وبدا عواره . وفى ذلك يقول جل شأنه : ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ** ﴾(٢) .

والأمل فى الاستشهاد قبل مواجهة العدو شىء عظيم . وأعظم منه وأدل على صدقه ألا يتبخر الحماس عند اللقاء . ويتغلب حب الحياة وإيثار السلامة .

---

(١) الفرقان : ٧٣ .
(٢) آل عمران : ٤٢ ، ٤٣ .

إن الله تبارك اسمه يبغض أصحاب المزاعم العريضة . فإذا دقت ساعة الجد وجدت الثرثارين خرسًا ﴿ **لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾[١] .

أما الآفة الأخرى التى تبعد ذويها عن جوهر الدين فهى أخذ العبادات من مراسمها البادية . وبذل الجهد فى إتقان الظاهر وحده .

ولو عقلنا لأدركنا أن القليل مع صحو الضمائر أفضل من كثير لا روح فيه ، تأمل فى حديث إبراهيم الخليل عن ربه . إنه حديث ليس فيه كشف لمجهول ، ولا تصوير لمعنى مبتدع ، إنه يتناول أقرب المحسوسات إلينا : ﴿ **الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾[٢] .

إن الرجل العامى يجد هذا الكلام قريبًا من حسه ، ولكن حقائق هذا الكلام هى التى فاتت العباقرة فزاغوا .

ليس الأمر تزويق عبارات بليغة . ولا شرح فلسفات عويصة ، الأمر لا يتطلب أكثر من أن يقرأ المسلم فاتحة الكتاب ، فَيَعِى كل كلمة ينطق بها ، ويكون قلبه مرآة نقية لما احتوت من حمد الله ، وثناء عليه ، وتعاهد معه ، وتطلع إلى هداه ونعمته .

هذه هى الحقيقة التى تحدث عنها التصوف ورجال التربية .

لا دلالة لهذه الكلمة غير ما قلنا ، أن يلتزم المسلم بشريعته مبنى ومعنى ، أن ينفعل بتعاليمها لُبًا وقلبًا وجسدًا ، أن يرقى إلى مستواها فكرًا وعاطفة وسلوكًا .

لا تعريف للحقيقة غير ما أوضحناه فى الكلمات الآنفة ، أن يتطابق الفؤاد مع اللسان عند ذكر الله ، وأن تتعانق الروح والجسد عند الانقياد لأمره .

ولبعض الصوفية كلام متهافت يوهم أن الشريعة شىء والحقيقة شىء آخر . !

يقول ابن عجيبة فى شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى : «**الأعمال عند أهل الفن - يعنى فن التصوف - على ثلاثة أقسام : عمل الشريعة ، وعمل الطريقة وعمل الحقيقة أو تقول عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان أو تقول عمل أهل البداية وعمل أهل الوسط وعمل أهل النهاية ، فالشريعة أن تعبده والطريقة أن تقصده والحقيقة أن تشهده أو تقول الشريعة لإصلاح الظواهر والطريقة لإصلاح الضمائر والحقيقة لإصلاح السرائر**» . . إلخ .

---

(١) الصف : ٢ ، ٣ .

(٢) الشعراء : ٧٨ - ٨٠ .

وهذا كلام مضطرب مدخول يقوم على التلاعب بالألفاظ والعبث بالمفاهيم فإن الشريعة إصلاح للظاهر والباطن معًا ، وهى عبادة وَنِيَّةٌ وإحسان ، ولا ينفك أحد هذه العناصر عن الآخر .

ويوغل ابن عجيبة - غفر الله له - فى خطئه ، فيصور لقرائه أن الكتاب والسنة أقسام ، بعضها يشير إلى الشريعة ، والآخر يشير إلى الحقيقة فيقول :«أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[1] مع قوله ﷺ «**لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» والجواب - كما يزعم ابن عجيبة - أن الكتاب والسنة وردا بين شريعة وحقيقة ، أو بين تشريع وتحقيق ، فقد يشرعان فى موضع ويحققان فى آخر ، وقد يشرع القرآن فى موضع وتحقق السنة هذا الأمر فى موضع آخر» . فقوله تعالى : ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ تشريع لأهل الحكمة وهم أهل الشريعة وقوله ﷺ « **لن يدخل أحدكم الجنة بعمله**» تشريع لأهل القدوة وهم أهل الحقيقة . .إلخ .

وهذا كلام باطل ، لا ينطوى إلا على الفراغ والدعوى . . وليس فى دين الله أهل شريعة وأهل حقيقة . ولا انقسم الوحى الإلهى إلى فريق لهؤلاء وفريق لأولئك .

أما الإشكال الذى أورده فإليك تفسيره .

اتفق أئمة المسلمين على أن العمل لا بد منه لدخول الجنة ، وأنه سبب شرعى مطلوب لا يستثنى منه بشر ، ولا يدخل بدونه أحد . وقد تظاهرت الدلائل على ذلك من الكتاب والسنة جميعًا . . قال تعالى : ﴿ **لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[2] وقال : ﴿ **الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[3] وقال : ﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ . .** ﴾[4] وقال فى المستقيمين : ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[5] . . .إلخ .

---

(١) النحل : ٣٢ . (٢) الأنعام : ١٣٧ . (٣) النحل : ٣٢ .
(٤) الزخرف : ٧٢ ـ ٧٣ . (٥) الأحقاف : ١٤ .

ولكن المطلوب من العابدين لله أن يتواضعوا له وأن يكبروا حقه وأن يخافوا لقاءه مهما قدموا من صالحات قال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ** ﴾[١] .

ويؤتون ما أتوا ، ليس معناها فعل المعاصى والحذر من عقباها ! بل معناها فعل الطاعات والحذر من عدم قبولها ؛ لأنها دون ما يجب لله أو دون ما يحسن المرء .

وبهذا المعنى جاء الحديث الشريف فهو نهى عن الاغترار بالعمل وليس نفيًا لقيمة العمل ، إنه نهى عن الاطمئنان إلى العمل والاستكبار به والجراءة على الله بعد إتمامه وليس نهيًا عن التزود بالصالحات والاستكثار منها .

وغريب أن يفهم عوام المسلمين الحديث الشريف أن العمل لا لزوم له ، فَلِمَ نزل القرآن ؟

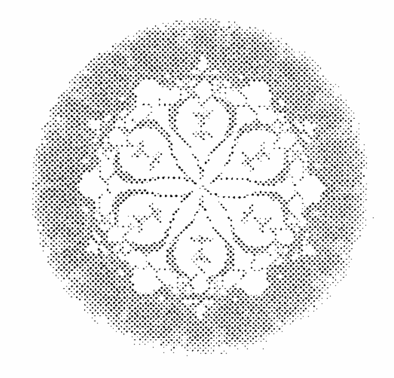
ولماذا جاهد نبيه ربع قرن لإبلاغه وإقامة الأمة عليه .

الحديث نفى لأن يكون العمل ثمنًا حقيقيًا للجنة ، وليس نفيًا لأن يكون سببًا حقيقيًا لدخولها .

نعم ، فإن الخلود الدائم فى نعيم مقيم ليس الثمن المكافئ لعبادة الله سنين عددًا ، ذاك لو خلت العبادة من شوائب الرفض ، فكيف وأكثرنا لو فحص عمله رد فى وجهه ثم كيف لو حوسب الإنسان على النعم المغدقة عليه فى الدنيا ، وقيل له : عملك نظير بعض هذه النعم !!

الحديث ليس مناقضًا للآيات ، ولا للأحاديث الأخرى ، وإنما هو كما قلنا كسر للغرور البشرى وتذكير برحمة الله وتجاوزه وصفحه .

وعلى ضوء هذا التفسير نعرف أن ما ذكره ابن عجيبة وغيره عما يسمى حقيقة وشريعة لا أصل له فى الإسلام ، فدين الله واحد لجميع خلقه .



(١) المؤمنون آية ٦٠ ، ٦١ .

الهجرة منطق اليقين

نحن فى عالم يسوده المنطق المادى . ويعد المحسوسات وما يتصل بها هى الوجود الذى لا وجود وراءه !

وجمهرة البشر أخذت تستكين لهذا التفكير . وتبنى عليه سلوكها فى الحياة ، وفرحها أو حزنها لما يصيبها من نعماء وبأساء . . !

نعم . إنها تحت تأثير الدين تؤمن بما وراء المادة ، وتأوى إلى هذا الإيمان فى الساعات العصيبة . .

بيد أن لغوب الناس على ظهر الأرض ، وكدحهم لتحصيل ما يريدون إنما يثور غباره وراء ضرورات العيش ومرفهاته - أما الدار الآخرة وما يمهد لها . فأمر قلما يخطر على البال وإذا خطر فقلما يقترن بالشعور الجياش والفكر المستغرق والعزم الحديد . . !

وحقيقة الدين تنافى هذا المسلك الخامل ، فإن الإيمان بالغيب قسيم للإيمان بالحاضر . ولا يصح تدين ما ، إلا إذا كان المرء مشدود الأواصر إلى ما عند الله مثلما يتعلق بما يرى ويسمع فى هذه الدنيا .

والغيب الذى أقصده هنا أوسع دائرة من عالم الملائكة مثلاً ، أو مشاهد الجزاء الأخروى ، أو المرويات التى أنبأنا الوحى بها ، ولا نستطيع الوصول إليها بمداركنا .

الغيب الذى أقصده هنا ما يتصل بالسلوك الإنسانى المأنوس لنا ، أى ما نبعث عنه فى كفاحنا القريب لبلوغ ما نحب وإقصاء ما نكره !

إن النصر على الأعداء غيب ، خصوصًا إذا وهنت الوسيلة ، وقل العون ، وفدحت العوائق .

ولكن الإيمان بهذا النصر المأمول ينبع من الإيمان بالله وحده جل شأنه ، ومن ثم فالمجاهد الموقن يمضى فى طرق الكفاح المر ، وهو واثق من النتيجة الأخيرة!

إن غيره يستبعدها ، أو يرتاب فيها . أما هو فمعتقد أن اختلاف الليل والنهار يقربه منها وإن طال المدى .

فإذا قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] فإن الجماعة المؤمنة لا تهولها وعثاء الطريق ، وضراوة الخصوم ، وكآبة الحاضر .

إن إيمانها بالمستقبل يعزيها عن متاعب اليوم . ويشعرها بأنها غيمة عارضة توشك أن تنقشع ﴿ .. فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. ﴾[2] والرزق - مثل النصر - غيب مرتقب . وعندما ينفق المؤمن ما عنده على أمل أن الله باعث خلفًا له وعوضًا عنه ، فهو يسير على منطق اليقين المحض .

ومن هنا قال رسول الله ﷺ لبلال لما ادخر له صبرًا من طعام :

«أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً» .

ولماذا يخشى الإقلال وقد وعد الله أن يخلف على من أنفق ؟ ووعده منجز لا ريب فيه .

إن هذا الإيمان بما عند الله هو الذى يرجح عند المؤمن جانب العطاء عندما توسوس له نفسه بالإمساك والمنع ، خصوصًا مع التأميل فى الحياة ، والرغبة فى سعة الثراء ، والقلق من أحداث الزمان !

ولذلك جاء فى الحديث **«أفضل الصدقة أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تحب الغنى وتخشى الفقر»** . والإيمان العميق يجعل المرء كما وصف الرسول الكريم : **«أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك»** .

كان المسلمون قبل الهجرة يملكون أنصبة وافرة من الإيمان بالمستقبل ، يعتقدون أن دينهم لن يغلب - وإن ضعف اليوم حملته - ويؤدون فرائض الجهاد والبذل وهم راضون عن ربهم ، راجون ما عنده .

والمجاهدون فى سبيل الله بشر تجيش فى أنفسهم المشاعر التى تجيش فى نفوس غيرهم ، من تقدير للحياة ، والرأى العام ، وكفالة الأولاد ، وتأمين العيش لأنفسهم وأهليهم ! بيد أنهم وازنوا بين مطالب الحق ، وأشواق الدنيا ، ثم آثروا وعد الله على وحى العاجلة .

وتأمل هذا الحديث الذى يصور الصراع النفسى لدى أنصار الحق ، وكيف يخرجون من غباره أوفياء لله ، أحقاء بكرامته .

---

(1) الروم : ٤٧ .

(2) الرعد : ١٧ .

عن «سبرة» بن «الفاكه» رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : «**إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك» ؟**

فعصاه ، فأسلم ، فغفر له !

وقعد له بطريق الهجرة : فقال له : تهاجر ، وتذر دارك ، وأرضك ، وسماءك ؟ فعصاه فهاجر .

فقعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد وهو جهد النفس والمال ، فتقاتل ، فتقتل ، فتنكح المرأة ويقسم المال؟

فعصاه فجاهد .

فقال رسول الله ﷺ : **فمن فعل ذلك فمات ، كان حقًا على الله أن يدخله الجنة . وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابة كان حقًا على الله أن يدخله الجنة» .**

هذه طبيعة الاستمساك بالحق والتفانى فى نصرته .

والواقع أن إيمان هؤلاء بالغيب مثل إيمان غيرهم بالمحسوس . إن الرجل الذى يقطع تذكرة للسفر من القاهرة إلى الإسكندرية لا يخامره شك فى أن الإسكندرية موجودة وأن القطار المنطلق ذاهب به إليها !

والمجاهد المسلم يؤمن بأن الموت نداء الحق ينقله يقينا إلى جنة عرضها السموات والأرض ، إيماننا اليوم بأن السفر من عاصمة إلى عاصمة أو من قارة إلى أخرى يصل بنا إلى ما نريد . . !

وعندما يرتفع الإيمان بالغيب إلى هذه القمة الراسخة ، فإن أصحابه ينتصرون بمبادئهم حتمًا وناشروها فى الحياة نشرًا لا يدركه طى ، ومكتسحون ما يضعه المبطلون أمامهم من عوائق .

والمستقبل الذى تنتصر فيه الرسالة وينتصف فيه أصحابها يتكون من جزأين أحدهما قريب والآخر بعيد .

أما القريب ففى هذه الدنيا وعلى أرض الميدان الذى تدور فيها المعارك . أما البعيد فعند الله حيث تنكشف خبيئات النفوس وينال المحقون والمبطلون جزاءهم العدل ، وفى

المرحلتين كلتيهما يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[١] .

وجاء فى سورة أخرى : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾[٢] .

والمسلمون الأوائل لن تنقصهم الثقة فى مستقبل الدعوة التى آمنوا بها وكل ما عناهم أن ينهضوا بحقوق الدين الذى اعتنقوه ، وأن يثبتوا على صراطه المستقيم مهما تكاثرت المحن وترادفت الفتن .

من أجل ذلك هاجروا لما اقتضاهم الأمر أن يهاجروا ، وخاضوا غمرات الحروب لما كلفهم الحق أن يبذلوا النفس والمال .

ولو شققت عن ضمائر القوم لوجدت الهجرة عندهم أشبه بانتقال الموظف اليوم إلى بلد اتصل فيه رزقه أو نال فيه ترقية !

غاية ما هنالك من فرق أن هذا مسلك بدت فيه بواعثه المادية التى تواضع الناس على الاحتفال بها .

أما المهاجرون الأوائل فهم ينتقلون من بلد إلى بلد إقامة لدين مضطهد ، ويعاملون رب العالمين وحده حين يحلون وحين يرتحلون ، ويستيقنون من رضوانه ، تعبوا أم استراحوا .

إن هجرات الأحياء على ظهر الأرض كثيرة . بل إن الطيور فى الأجواء تهاجر من مكان إلى مكان .

لكن الهجرة التى علت بها أقدار . وخلد بها أقوام تلك التى قامت ودامت ببواعث الإيمان المحض ، والغضب لله والارتباط بتعاليمه ، والعيش بها أو الموت دونها .

ومع أن الوحى الأعلى لقن المؤمنين أن رسالتهم ستستقر ، ورايتهم ستعلو ، وأن الكفر سيذوب ، وينخذل حزبه ، إلا أنه تملق أفئدتهم بالمستقبل البعيد ، أعنى الدار الآخرة وما حوت من ثواب وعقاب ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[٣] .

(١) البقرة : ٤٥ ، ٤٧ .　(٢) غافر : ٥١ ، ٥٢ .　(٣) الزخرف : ٤١ ، ٤٤ .

ولهذه الآيات معنى ينبغى أن نقف عنده طويلاً . فإن المؤمن المجاهد قد يترك هذه الحياة دون أن يعرف نتائج الصراع المحتوم بين الهدى والضلال . وهذا جائز ، بل كثير الوقوع ؛ لأن انتصار الحق ربما اقتضى هذا المؤمن نفسه أن يقدم حياته ، فيكون استشهاده ، واستشهاد غيره من ا لمؤمنين الجسر الذى تعبر عليه المبادئ وتشق طريقها إلى مستقبل وطيد .

لكن هل ذهاب عدد قل أو كثر من أهل الإيمان يفيد الضالين شيئًا ؟ كلا ، إن الانتقام الإلهى لاحق بهم يقينًا .

ولذلك يؤكد القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ **فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ** ﴾ .

والخطة المثلى أن يؤدى الإنسان واجبه المجرد دون استعجال المصير فى هذه الدنيا ، وألا يتعلق بالفوز الشخصى له ، أو الاندحار الشخصى لخصومه .

فمن يدرى ؟ ربما رشد هؤلاء الخصوم يومًا ، وتحولوا إلى الإيمان الذى جحدوه من قبل!

وفى أعقاب أحد ، ومع مرارة الهزيمة التى أصابت المسلمين ، يبين الله لنبيه هذه الحقيقة فيقول ﴿ **..وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ..** ﴾[1] .

فى إطار هذا اليقين العميق ، لَبّىَ المسلمون النداء إلى الهجرة عندما طولبوا بالهجرة ، واستجابوا لله ورسوله غير ضائقين ولا جازعين .

إن الحياة بالنسبة إلى المؤمن خط طويل يمتد مع الزمن لا يقطعه الموت ، ولا يعروه الفناء .

والمؤمنون حين يغرسون فى هذه الدنيا فهم يرقبون ثمار غرسهم فى المستقبل القريب ، أو المستقبل البعيد ، بين أهليهم هنا أو عند الله هناك .

ولن يخامرهم قنوط ، لأن ما ارتقبوا تأخر ميعاده .

ولن يسأموا تكاليف الجهاد ولو كلفتهم أن يحرموا وطنهم الغالى ، وأن يرغموا على ترك معايشهم به وذكرياتهم فيه .

---

(١) آل عمران ١٢٦ ، ١٢٨ .

مسئولية المسلم تجاه المجتمع

معرفتى بالإسلام تجعل ولائى للناس كلهم جزءاً من ولائى للدين الذى أحببته ، فأنا لا أشعر بانشطار فى هذا الولاء الواحد .

وقد سمعت أحد الشيوخ فى أثناء الدرس يقول : نحن المسلمين أمة الإجابة ، وغيرنا من أهل الأرض أمة الدعوة قلت : ما معنى هذا ؟ قال : إن محمدًا ﷺ دعا العالمين إلى الله ، فنحن استمعنا إلى النداء وأسلمنا وجوهنا لله ، وحق فينا قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾[1] ، فنحن أمة الإجابة !!

أما غيرنا فهو مدعو مثلنا ، ولما يجب بعد ، لعل النداء لم يصل إليه ، ولعله وصل إليه مشوهًا لا يحرك دواعى القبول وأيًا ما كان الأمر فهو مدعو .

وعَلَيَّ أن أبلغه ما يجهل . وأن أثير فيه دواعى التصديق ، لقد عرفت الحق قبله فآمنت ولست أولى منه بذلك الخير وقد يكون خيرًا منى لو عرف ما أعرف ، والواجب يفرض عَلَيَّ أن أكون صورة مرغِّبة لا صورة منفِّرة ، وإلا كنت مسئولاً عن إضلاله ، أو حاملاً معه بعض أوزاره !!

ومن المحزن أن عددًا من علماء المسلمين شغله الترف العقلى فخان أمانة الدعوة والبلاغ ، قد تقول : أهذا كل ولائك للإنسانية ؟ وأجيب على الفور : لا . . لاتنس أنى حسن الظن بالفطرة الإنسانية نفسها لأنى مسلم أعلم أن الصفة الأولى لدينى أنه دين الفطرة ! إن الناس يولدون عليه ويتجاوبون مع تعاليمه إذا أدركوها . . ويوم تخف قبضة الموروثات الرديئة فإن الجماهير ستكون قريبة منى أو أكون أنا قريبًا منها .

ولو خُلى المرء وفكره لاتجه إلى إله واحد ، ولشعر بدوافع ذاتية إلى هذا الرب الوحيد ، ولو خُلى المرء وفكره لآثر الزواج على العهر ، والصحو على السكر ، والإخاء على الأثرة ، والنصيحة على الغش !

---

(١) آل عمران : ١٩٣ .

إننى حسن الظن بالفطرة البشرية ، واعتقادى أنها كالثمر الذى ينبت جميل الرواء شهى الطعم ، بيد أن النبات قد تعدو عليه أمراض تشوه لونه ومذاقه ، إن هذه الأمراض علل طارئة ، وقد تعارف الزراع على مقاومتها كى يحموا محاصيلهم ، لكن الأجيال الناشئة بيننا لا تجد الحماية الكافية ، ومن ثم قد تلتهمها الأوبئة الخلقية والاجتماعية والسياسية ، فيشب الصغار مائلين زائفين !

وماذا يفعل أولئك الصغار إذا سمعوا منذ نعومة أظفارهم أنه لا إله والحياة مادة ؟ أو سمعوا أن الآلهة شركة مقرها جبل أولمب أو صحراء الجزيرة أو فوق السحاب ؟ إنهم يكبرون زائغين .

أترانى أدافع عن ذلك الانحراف ؟ كلا ، وإنما أذكر الواقع المجرد ! والذى أعلمه أن الله زود الفطرة بخصائص تملك بها حق الاعتراض على الباطل الذى يعرض أو يفرض عليها ، وأن هذه الخصائص من القوة بحيث يعد إهمالها تقصيرًا سيئًا وأساسًا لمساءلة عادلة يوم الحساب . قال تعالى ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ، أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ، وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[1] .

هذا الحوار ناضح بأن الخصائص الذاتية للفطرة الإنسانية قادرة على المقاومة والرفض ، يجب أن يرفض العقل الخرافة ، ويتشبث بالحقيقة ، يجب أن يرفض الضمير البشرى الآثم ويتشبث بالبر والطيبة .

وإذا حدث أن خفت صوت الفطرة ، جاءت نجدات من الخارج لمعاونته كى يؤدى وظيفته ، ويبقى الإنسان إنسانًا ، يعرف ربه ويؤثر دربه !!

وإذا كان الوحى الإلهى غير كافٍ فى إيقاظ الفطرة وإعادة التائه إلى رشده أحاطت بالأفراد والجماعات آلام تكسر الغرور وترفع الحجب وتحمل البشرية على الخضوع لمولاها ومناشدته الرحمة : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ** ﴾[2] .

---

(١) الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٤ .

(٢) الأعراف : ٩٤ .

نهج الأحرار من قديم

فى السهول المستوية ينداح السيل حتى يبلغ منتهاه ، ما يعترضه شىء .

وفى حقول الأرز والقمح تهب الريح فتميل السيقان الغضة كلها ، ما ينتصب منها عود .

وبين جماهير الدهماء ، ينتشر التقليد الخاطئ ، أو العرف السيئ فما يرده ذكاء ، أو تمتد رهبة السلطان وسطوة الملك الطائش فما يقمعها تمرد .

ولكن هناك رجالاً من معادن فريدة تشذ عن هذا العموم المهين .

فهى الجبال التى تقف مد السيل ، والأشجار التى لا تنثنى مع هبوب العاصفة .

وهم الصاحون بين السكارى ، فإذا شاع خطأ تعرضوا هم له بالنقد ، وإذا ألف الناس مسلكًا لم يعجبهم تصرفوا هم منفردين على طريقة المعرى حين قال :

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد ... بعدوى فما أعدتنى الثؤباء

وإذا ركع الناس بين يدى ملك ظالم ، أو استكانوا لأوضاع مزرية ، لمحت فى أبصارهم بريق الأنفة ، وفى سيرتهم شرف الحرية ، فما يستريحون حتى تنجو البلاد والعباد من آثار الفساد ، وقيود العبودية .

أولئك هم الثوار الذين يعتز بهم الإيمان وتستقيم بهم الحياة .

وإذا كان الله جل شأنه قد صان العمران البشرى بالجبال ، وقال فى كتابه : ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾[1]

فقد اقتضت حكمته العليا أن تصون المجتمع الإنسانى بهذا النفر من حراس الحقائق الرفيعة وحماة المعالم الفاضلة .

فهم الدواء الخالد لكل ما يفشو فى الدنيا من علل ، وهم الأمل الباقى لبقاء الخير فى الأرض وإن ترادفت النوب ، واكفهرَّت الآفاق .

ربما كان عشق الحق خليقة فيهم فطرهم الله عليها ، كما قال فى كتابه : ﴿ **وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾[2] .

---

(١) الأنبياء : ٣١ .

(٢) الأعراف : ١٨١ .

ولعشق الحق أعباء مرهقة ، أولها الصبر على تثبيط الخاذلين ، وكيد المعوقين والمخالفين ، بيد أن طبيعة الثورة على الباطل لا تكترث لشيء من هذا ، وفى الحديث الصحيح . «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة - أو حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك**» .

وأكثر الناس يعرف الحق معرفة حسنة ، غير أنه لا يأسى لهزيمته ، ولا يأسف لضياعه !

أو لعل إحساسًا من الضيق يخامره خذلان الحق ، إلا أن هذا الإحساس يصطدم بمصالح النفس وضرورات العيش ، ومطالب الأولاد ، فيتراجع المرء رويدًا رويدًا عن هذا الشعور النبيل ، ويؤثر الاستسلام على المقاومة ، والاستكانة للواقع عن تغييره وإنكاره .

وهذا السلوك لا يتفق مع طبيعة الإيمان ، ويستحيل أن تتقبله نفس ثائرة لله مؤملة فيما عنده .

فالغاضب لله ورسوله يذهل فى سورة يقينه عما يحرص عليه الجبناء من حياة ومتاع ، ولا يرى أمامه إلا نصرة الحق ورفع لوائه وليكن ما يكون .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «**لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» على أن من العبث انتظار التفانى فى الحق من عبيد أهوائهم وصرعى نزواتهم ، إن الأمر يحتاج إلى تربية وتبصرة حتى يكون مذاق الإيمان أحلى فى فم الإنسان من كل لذة عاجلة .

عندما يشعر امرؤ بالسعادة ؛ لأنه واسى محرومًا ، أو نصر ضعيفًا ، أو آمن قلقًا ، أو آوى هائمًا ، أو أحصن عرضًا ، أو حقن دمًا ، فهو إنسان كبير ، ومثله أهل لأن يفتدى عناصر الإيمان بالنفس والنفيس .

والثائرون ضد الظلم والناقمون من أعوانه رجال من ذلك المعدن الصلب ، واندفاعهم لتقليم الأظافر الشرسة ضرب من الإصلاح العام للحياة والأحياء ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ** ﴾ .(١)

وفى الأعصار الأخيرة قامت ثورات شتى استهدفت إنقاذ الجماهير من الملوك المسلطين ، وأسرهم المحظوظة ، وثورة يوليو سنة ١٩٥٢ من بين هذه الثورات الخطيرة ، ونحب أن نقول بجلاء إنه حيث يسود الحكم المطلق تنتقض الإنسانية من أطرافها ، بل من صميمها !

---

(١) البقرة : ٢٥١ .

وذلك أن الله قد خلق البشر آحادًا صحيحة وجعل لكل أحد منهم مدًى معينًا يمتد فيه طولاً وعرضًا . فإذا عَنَّ لأحدهم أن يتطاول وينتفخ ويتزيد ، فعلى حساب الآخرين حتمًا .

ومن هنا تجد من حوله أنصاف بشر أو أرباع بشر ! أصبحوا كسورًا لا رجالاً سواء ، وما نقص من تمام إنسانيتهم أضيف زورًا إلى الكبير المغرور ، فأصبح فرعونًا مالكًا بعدما كان فردًا كغيره من عباد الله .

ولما كان الإسلام إنقاذًا من جهالاتهم المتوارثة ، وحماية للفطرة من أن تأكلها تقاليد السوء وقوانين الاستبداد الأعمى ، فقد جعل كلمة التوحيد – وهى عنوانه وحقيقته – نفيًا للوثنيات كلها ورفضًا لآية عبودية فى الأرض وتدعيمًا للحرية التى ذرأ الله الناس عليها والكمال الذى رشحهم له .

ذلك بعض ما تعنيه الكلمة العظيمة «لا إله إلا الله» ، وهى الكلمة التى يرددها الألوف دون وعى . بل لعلهم يعيشون فى ظلها عبيد أوهام .

وقد بعث محمد للناس وفى قلوبهم وجل من سطوة الملوك الأولين ، فلما جىء بأعرابى يومًا فى حضرته أخذته رعدة – يحسب نفسه قريبًا من أحد الجبابرة – فقال له الرسول : «**هَوِّنْ عليك ، إنى لست بملك . أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد**» .

كان قد وقر فى الأذهان أن الملوك ليسوا من عبيد الله المألوفين ؛ فإن الأبراج التى يحيون فيها قطعت نسبتهم من الأرض ووصلتها بالسماء ، فزعموا أنهم نسل آلهة أو عاشوا كذلك وإن لم يقولوا بألسنتهم ما يقولون بأفعالهم !

فأراد محمد أن يعرف العرب أنه بشر مثلهم لا ملك فوقهم ، ثم انتسب إلى أمه ، لا إلى العظماء من أجداده ، ليزداد لله تواضعًا ومن الناس قربًا .

وجاء الحكام الراشدون بعده فمشوا فى أثره وربطوا نسبهم بالجماهير التى نبتوا منها فما تنكروا لها ولا تكبروا عليها ولا حسب أحدهم نفسه من دم أنقى أو عنصر أزكى .

واسمع إلى أبى بكر بعد ما ولى الخلافة يقول : «**أما بعد فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم ، إلا أن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم**» .

وجاء فى خطبة لعمر بن الخطاب : «**اعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادت أضعافًا على الظالم والمعتدى ، والأخذ لضعيف المسلمين من قويهم فاتقوا الله وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولاَّنى الله من أمركم**» .

أيها الناس : «**إنه لم يبلغ ذو حق فى حقه أن يطاع فى معصية الله**» .

هذا هو وضع الحاكم المسلم فى الدولة المسلمة ! . رجل من صميم الأمة يطلب أن يعان على الحق وأن يمنع من الباطل ، ويرى السلطة المخولة له سياجًا للمصالح العامة لا مصيدة للمنافع الخاصة ولا بابًا إلى البطر والطغيان ذلك هو دأب الإسلام الذى خط مصارع الجبابرة فى الدنيا وحط منازلهم فى الآخرة ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ .(١)

حيث يكون العسف والخسف لابد أن يكون الإسلام دينًا ثائرًا يطلب النصفة والرحمة .

وحيث يكون الاستعلاء والاستعباد لا بد أن يكون المسلمون ثُوَّارًا ينشدون العزة والكرامة .

وقد تكون عقبى الجهاد موتًا فى غربة ، أو قتلاً فى معركة ، والثائرون ضد الباطل أدنى الناس إلى البلاء والعطب .

وماذا فى هذا؟ إن ما يحذره غيرهم هو الذى ينشدون لأنفسهم !

وتلك طبيعة الثائرين ، إما أن يحيوا كما يريدون ، أو يموتوا كما يريدون .

إنهم عزيمة تؤثر فى الحياة سلبًا وإيجابًا ، وليسوا عربات تشد إلى جياد الآخرين .

ويعجبنى قول الطِّرِمَّاح بن حكَيم ، وهو يسعى إلى الغنى حتى لا يحتاج إلى فسقة الأمراء فى عهده أو إلى عَداة الخلفاء - كما سماهم :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف
به وبنفسى العام إحدى المقاذف

لأكسب مالاً ، أو أءول إلى غنًى
من الله يكفينى عداة الخلائف

ثم اسمع إلى هذا الثائر الضارب فى مناكب الأرض طلبًا للعزة يقول :

فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن
على شرجع يعلى بخضر المطارف

---

(١) القصص : ٨٣ .

- أى علـى نعـش ملفـوف بالأقـمـشـة المطرزة -

ولـكـن قـبـرى بطـن نسـر مـقـيلـه

بجـو السـمـاء فـى نسـور عـواكـف

وآسى شـهـيـدًا ثـاويـًا فـى عـصـابـة

يصـابـون فى فَـجٍّ مـن الأرض خـائـف

والمسلمون اليوم لن ينجحوا فى حرب الاستعمار إلا إذا استهتروا بالموت وأحبوه فى ذات الله .

أرأيت تاريخنا القديم وأبطالنا الأولين :

لقد كانوا يتمنون من أعماق قلوبهم أن تثوى جثثهم الممزقة فى حواصل الطير وأجواف الوحوش . وهم هلكى ، لا بين أحضان الأهل الباكين والأحباب المواسين ، ولكن فى وحشة الصحراء ورحاب الميادين أو فى أفق مبهم من أعماء الدنيا ، وعلى شفة أحدهم وهو يجود بروحه قول الشاعر :

وذلك فى ذات الإلـه وإن يشـأ

يبـارك عـلى أوصـال شلـو ممـزع

هكذا مضت سنة الإيمان منذ أبرم عقد الجنة ، ووصفت آيات الله من وقعوا عليه بأنهم ﴿ يقتُلون ويُقتلون ﴾[1] .

وهكذا مضت سنة الرجولة من قديم الزمان . فاعتبرت موت الرجل بين أهله معرة ؛ لأن هذا شأن النساء والعبيد .

فمصارعهم تحمر بها صحائف التاريخ ، ويلبس الشفق القانى ثوبه الأرجوانى منها ! وبذلك المعنى هتف الشاعر القديم :

وإنا لقـوم مـا نـرى القتـل سُـبَّةً

إذا ما رأتـه عـامـرٌ وسـلـولُ

تسيل على حـد الظبـات نفوسنـا

وليست على غـير الظبـات تسيـلُ

---

(١) التوبة : ١١١ .

وما مـات منـا سيـدٌ حتـف أنفــه

ولا طــل مـنا حيـث كان قـتـيـلُ

أجل هذه شارات السيادة ألا يموت الرجل حتف أنفه ، ولكن يموت فى عرصات الوغى .

لما قتل الأمويون مصعب بن الزبير ، قام أخوه عبد الله فخطب الناس فكانت خطبته تعبيرًا لبنى أمية أنهم يموتون على فرشهم ! أما آل الزبير فقد كفنوا فى دمائهم بطلاً من بعد بطل . .

وخطب أبو حمزة الخارجى يصف رجاله ، وكيف جند لهم المنايا واستهلكهم صدق الجهاد ، فكان من كلامه فى لقائهم الحتوف : «**استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء . .**

فكم من عين فى مناقير طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله . . !

وكم من كف زالت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله .» .

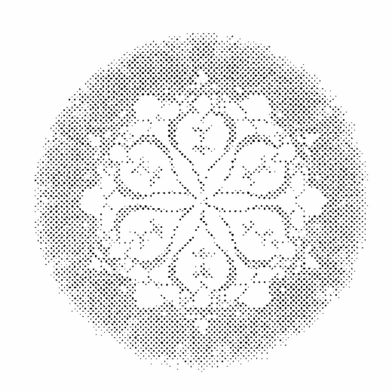
فانظر مصاير أولئك الشباب كيف خطها القدر ؟

وكيف تذكر فى سياق الدلالة على حب الله والتفانى فيه ؟

إن أولئك الشهداء المستميتين فى محاربة البغى ، الذين رضوا أن تدق أعناقهم قبل أن تدق على أبواب الإسلام يد آثمة ، وأن تمزق أعضاؤهم قبل أن يتمكن من الكيد لدين الله كافر سافر أو منافق خناس .

إن أولئك الشباب الهلكى ، المبعثرة أحشاؤهم هنا وهناك ، سوف تجمعهم القدرة العليا بكلمة واحدة ، فإذا الجبين المشجوج ناصع مشرق ، وإذا العين المفقودة حوراء مبصرة ، وإذا الجثة الممزعة بشر سوى يقول لله : «**آمنت بك وتحملت فيك ما ترى**»

تلك سنة المؤمنين الأحرار ، فى المحيا والممات .



نبوة وكتاب وأمة وارثة

النبوة هبة لا كسب ، فضل يتنزل من الله لا شأو يسعى إليه البشر .

والأنبياء قبل أن يبعثوا لا يخطر بأنفسهم شىء عن مستقبلهم المغيب ولا يتشوقون إلى وحى أو يرتقبون مجىء ملك ، ووقت الاختيار الأعلى ، ومكانه . ليس إليهم فى قليل أو كثير ، وقد جاء فى القرآن الكريم هذا الخطاب المبين : ﴿ **وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ . .** ﴾ .[1]

ومن هنا كانت حياة الأنبياء قبل استقبال الوحى لا تتجاوز أشخاصهم ، أعنى ليست مناط تشريع ولا مصدر أسوة .

وكل ما يقال فى أشخاص الأنبياء : إن معادنهم النفسية والفكرية لابد أن تكون من طراز يكافىء الوظائف الجسام التى توكل إليهم ، وأن حياتهم الأولى تمهيد صالح لما يوشك أن يظهر على أيديهم ويربط الأم بهم .

والأربعون سنة الأولى من حياة محمد عليه الصلاة والسلام جاءت على هذا الغرار .

إنسان يعيش فى مكة يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لا يعرف بثروة ظاهرة ، أو قدرة خارقة . ولكن الذى يتفق عليه العدو والصديق ، ويبلغ فى ثبوته عين اليقين ، أن ثروته من الفضائل كانت رابية ، وأن رجولته التقى فيها ما يعرف العرب وفوق ما يعرفون من مروءة ونبل ، ومجادة وسيادة . .

والأوج الذى عاش فيه محمد قبل بعثته هو الذى أخرس خصومه الناقمين يوم أعلن حربه الهائلة على الوثنية وآثارها . . الاجتماعية والسياسية .

لقد هاجموه بكل سلاح وكان غيظ قلوبهم شديدًا ، ومع ذلك فقد انقطعت الأمانى دون غمزه بشىء قط ، تصريحًا أو تلميحًا .

كان رواء الصدق يتألق فى جبينه أبدًا ، ما تخلف فى جاهلية ولا إسلام .

---

(١) القصص : ٨٦ .

ونستطيع أن نصف هذه السنين الأربعين بأنها تمثل حياة رجل نقى المعدن، شريف السيرة، يعرف بكل خير، ولا يعرف بشر أبدًا، يكابد السعى وراء رزقه، فيرعى الغنم صغيرًا، ويضرب فى الأرض كبيرًا.

والاختلاط بالناس فى هذه الميادين امتحان قاس للنفس البشرية وقد خرج محمد من هذه الظروف جميعًا، موفور العصمة والفطنة، عايش قومه فى نطاق الضرورة الماسة، واعتزلهم فى جبال مكة ينشد فى صمتها وعزلتها راحة القلب واللب، حتى تجلى عليه الحق فى غار حراء.

ويومئذ عرف أن رب العالمين قد اصطفاه لأمر عظيم! لقد أضحى واحدًا من أنبياء الله، بل إن الأمر على مر الأيام قد بدا أعظم من ذلك، إن الوحى الذى استقبل كلماته الأولى كان طليعة رسالة تستغرق الدهور الباقية من عمر الحياة، وتستوعب القارات الغاصة بالعمران، وتتناول شئون الناس بالتوجيه والفتوى، فلا تترك عقدة مبهمة، ولا طريقًا حائرة، ﴿ . . وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وكما يتحول الجنين - بعد نفخ الروح فيه - خلقًا آخر، تتحول حياة المرسلين - بعد استقبال الوحى - نسقًا آخر، لحمته وسداه هذا الضياء الهادى الهابط من السماء.

ومحمد عليه الصلاة والسلام عندما شرع يستدرج القرآن بين جنبيه كان قبل غيره من الناس أول من ينتفع ويرتفع بما تضمنه من صدق وجلال، وخير ومرحمة.

إن الرجل الذى خلت فطرته من شهوات الأرض وأكدار الدنيا، انتشرت فى أرجائه الباطنة شعاعات الوحى، فهى تبرق فى شمائله ومسالكه كما تتلألأ الآفاق فى ضحوة صاحية صافية. . وقد أومأت السيدة عائشة إلى هذا المعنى عندما سئلت عن خلق رسول الله فقالت: كان خلقه القرآن!

إننا نقف عند هذه العبارة طويلاً لندرك غورها. فالقرآن قبل أن يكون معجزة الرسالة الخاتمة هو مجمع ما حفلت به من عقائد وعبادات وآداب ومعاملات، وما استعرضته من قصص، وبراهين، ونظرات كونية ونفسية.

ونبى القرآن كان فى حياته الخاصة المثال الأول، والأزكى، والأرقى، لكل ما وصى به الله، ووجه إليه العباد.

(١) النحل: ٨٩.

أمر الله بفرائض ، وحث على نوافل ، وأحل حلالاً ، وحرم حرامًا ، ووضع حدودًا وساق عبرًا ، إنك واجد ذلك كله «نظريًا» فى كتاب الله ، ولكنك واجد التنفيذ «العملى» له ظاهرًا وباطنًا فى سيرة محمد نبى القرآن .

فمعرفة الله مثلاً أمر عام للخلائق كافةً ، بيد أن العارف الأعظم لله ، والذى تنضح هذه المعرفة على سريرته وعلانيته ، وتطرد من بؤرة الشعور إلى حاشية الشعور إلى شبه الشعور إلى اللاشعور ، المعرفة فى أوجها المطلق وقمتها الفارعة ، تبدو أول ما تبدو فى خلق محمد .

والصلاة مثلاً فريضة عامة على المؤمنين ، بيد أن المصلى الساجد القلب قبل الجوارح ، القرير العين بين يدى ربه كلما أذن مؤذن للصلاة ، المستريح إليها من وعثاء الدنيا ومشاغل التراب ، الصادح بها فى هدأة الليل . ساجدًا وقائمًا يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه . هو محمد نبى القرآن .

إن أشخاص الأنبياء ليست جسورًا لهدايات السماء وحسب ، كَلا ، إنهم ترجمة عملية لمراد الله من خلقه .

ويمتاز محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأنه قدم للبشر كافةً أكبر مجموعة من النماذج العملية للإنسانية الفاضلة ، والعبودية المخلصة .

والثلاث والعشرون سنة التى استوعبت نزول القرآن الكريم استوعبت كذلك أوطار سيرة عامرة بالحب والبغض فى الله ، بالسلم والحرب ، بالشدة والرخاء ، بالسفر والإقامة ، بمعاناة كل ما يعرو النفس الإنسانية من أحوال ، وما يفرض عليها من قيود . وما تمحص به من تجارب .

ومن هنا كانت سيرة الرسول وسنته من قول أو فعل أو حكم أو تقرير دينًا يتبع ، فما كان منها قرآنا فهو ظاهر ، وإلا فهو نضح التخلق بالقرآن ، والاصطباغ بهداه ، والاستقامة مع غاياته .

وإنى لأشعر بكلال ذهنى وأنا أتصور هذا الرسول يحفظ أحرف الوحى فى السور الطوال التى تنزل عليه ، ثم بعد هذا الاستظهار الرائق ، تبدأ «عملية» تحويل القرآن إلى خلق شخصى ، ومسلك نفسى ، واجتماعى ، وهى عملية تصاحب تلاوته على الناس ، وأخذهم بحدوده ومعالمه وحلاله وحرامه .

لقد صح أن سورة الأنعام نزلت جملة واحدة !! أى وعى حاد مستوفز التقط هذه الصفحات الطوال ، واستطال إشراقه حتى أحاط بها بدءًا ونهاية ، وامتد انتباهه حتى بقى التسجيل دون أن يفلت حرف أو تغيب كلمة ؟

ثم نتجاوز ذلك المظهر لتلقى الوحى ، إلى استنارة صاحبه به ، وإقامة حياته خلجة خلجة ، وخطوة خطوة على أساسه .

فهو يتقلب فى جو من مصاحبة الله ، كما ينطلق أحدنا فى طريق مشمس طويل مغمورًا بوضح النهار من كل ناحية .

ولقد صور القرآن الكريم طبيعة الخلق النبوى الشامل ، فى هذه الآية : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[١] .

أبلغت الإنسانية فى واحد من أبنائها مثل هذا المجد السامق ؟ مجد الاستغراق فى الحق والانطباع بآياته ، والانطلاق بها فى جنبات الأرض لتكون شريعة حاكمة ، وبصيرة هادية ؟

هذا وأبيك المجد ، الذى عرفه التاريخ لمحمد ، وقدمه به على المستقدمين والمستأخرين .

وانتقل محمد إلى الرفيق الأعلى ، ولكنه بقى كتابًا وسنة بين ظهرانى الناس ، فقد طبع على غراره جمهورًا من أصحابه كانت أخلاقهم القرآن ، يتلونه بألسنتهم ويحيون به فى شئونهم كلها .

فمنه عقائدهم الدافعة ، وضمائرهم الوازعة ، ومثلهم الحادية ، وشرائعهم الحانية ، وتقاليدهم الضابطة ، وموازينهم لكل ما يجد من أحداث .

إنه معقد صلتهم بربهم وبأنفسهم وبالناس أجمعين .

ورسالة الإسلام لا يحصرها زمان ولا مكان ، ولا تحتبس فى أفق من أحوال البشر وتدع أفقًا آخر ، وهذا الشمول ظاهر فى سور الكتاب ، وسنة الرسول ، وعمل الأصحاب .

ووسيلته الفذة أمة من الناس خلقها القرآن تفقهه نصوصًا ، وتستبطنه شمائل ، وتقيمه شرائع وشعائر .

تتعلم من رسولها ما تعلمه هذا الرسول من ربه ثم تقدمه للناس علمًا وعملاً ! تلك وظيفة الأمة الإسلامية ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** ﴾[٢] .

---

(١) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) البقرة : ١٤٣ .

واتصال هذه الأمة بغيرها ليس اتصال اللسان البليغ أو القلم الساحر ، كلا ، إنه اتصال الأسوة الحسنة ، والنموذج المعجب ، وما يكون الوحى الإلهى إلا كذلك ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ . [١]

ليت شعرى ، أأصيب المسلمون اليوم بفقدان الذاكرة ، فجهلوا أنفسهم ونسوا رسالتهم الإنسانية الرفيعة ؟ أم تطاول عليهم العمر فتبلدت المشاعر وقست القلوب ؟ .

سواء كان هذا أم ذاك فالأمر يحتاج إلى تجديد أو توكيد حتى تعرف الأمة الكبيرة وظيفتها بوضوح .

إن الله مذ عزل عن اليهود الوحى ، وأبعد عنهم النبوة ، وأصبحت قصة الشعب المختار فى خبر كان ، وتولى قياد العالم جنس جديد ، أو دم جديد ، قوامه أمة تقدس الحق ، وتصون آياته ، وترفع فى الأرض راياته .

وفى هذه الأمة المختارة على أنقاض الماضى البعيد وذكرياته ، يقول الله جل شأنه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .[٢]

وظاهر من صدر الآية أن الأمة الإسلامية مصطفاة من بين الأمم ، وأنها مسئولة عن الميراث النفيس الذى آل إليها ، وأن تبعاتها أمام الله جسيمة بإزاء هذا الاختيار الأعلى ، وأمام الكتاب الضخم الذى اختتم به الوحى ، ووكل إليها درسه ونشره وكلفت أن تحيا به وتحيا له .

نعم ، إن أمتنا ورثت منصب الرسالة بعد موت الرسول ؛ لأنها ورثت الكتاب الذى جاء به ليخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وواجبها الأكبر ، بل لُبُّ وجودها أن تقود باسم الله قافلة البشر قيادة تحفظ على العالم الهدى والتقى والعفاف والغنى ، وتقى حضارته الزيغ والأثرة والعدوان والضر .

ولا يجوز لشعب ما أن يزعم أنه مختار من السماء لمعنى مبهم ، أو تفضيل مجرد ، فهذا كذب على الله ، وإنما تفضل أمة غيرها بمدى ما تملك من قدرة على النفع ، ورحمة للعالمين .

(١) الأنبياء : ٧٣ .
(٢) فاطر : ٣٢ .

وأسلافنا الأوائل أسدوا للحياة أيادى بيضاء جعلتهم طليعتها المرموقة قرونًا عددًا . ثم وهنت الكواهل والضمائر عن حمل اللواء فأصابنا ما أصابنا .

ولكى ننهض بوظيفتنا العتيدة يجب أن نستجمع خلالاً عدة ، وأن نسابق الزمن حتى نغطى فترة التخلف الماضية ، وحتى نصل قبل أن يستمكن العميان من قيادة الدنيا إلى الهاوية .

ومرة أخرى نلفت الأنظار إلى معنى التخلق بالقرآن ، إن الأخلاق كما قيل : هى اللغة العالمية التى يستطيع أهل الأرض على اختلاف ألسنتهم أن يتعارفوا بها .

ولقد يلتقى رجلان لا يفهم أحدهما لغة الآخر ، ولكن تنعقد بينهما مودة غالية ؛ لأن المسلك الرفيع ربط بين قلبيهما .

وهل نشر أسلافنا الكبار من صحابة وتابعين دينهم بين أشتات الشعوب إلا بهذه اللغة الواضحة ؟ .

كان الناس يرمقونهم عن بعد ، أو يخالطونهم عن قرب فيرون الأيدى المتوضئة تعف عن الشبهات بله الدنايا ، ويرون من سناء قلوبهم ورقة طباعهم وعدالة حكمهم ونزاهة نياتهم ما يدفعهم إلى الدخول فى دين الله أفواجًا .

ومن هنا فإن المسلمين لن تنهض لهم حجة ما بقوا أممًا متخلفة ، متفرقة ، لا تعرف القرآن إلا أمانى جوفاء .

ومن حق العالم أن ينأى بجانبه عنهم ، ووزر انحرافه عن صراط الله عندئذ واقع أكثره على ورثة الكتاب الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات .

فى أحيان كثيرة يخامرنى إحساس بأننا نحن المسلمين مسئولون قدرًا ما ، عما شاع فى العالم من كفر بالله ، وإلحاد فى آياته ، لأننا نملك المصباح المضىء ، ولكننا حجبنا نوره ، ووضعنا على زجاجته قتامًا فما ينفذ منه شعاع .

ثم ليسأل المسلمون أنفسهم : ما مأتى هذا التخلف الشائن ، فى فقه الطبيعة ، واستكناه قوانينها ، واستخراج دفائنها ؟ .

ما هكذا كان أسلافهم ، ولا بهذا أوحى كتابهم !!

كيف وهو الكتاب الذى يؤسس اليقين على ركائز التفكر والبحث ، ويسخر لبنى آدم فجاج البر والبحر ، والأرض والسماء وما بينهما .

إن من التخلق بالقرآن أن يكون رقى المسلمين العلمى مكافئًا لحديث كتابهم عن الكون وآياته ، والحياة وروائعها .

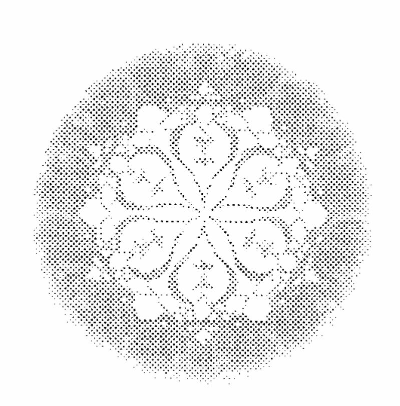
إنهم بهذا التقدم العلمى يحيون على مستوى كتابهم ، ويقدرون على خدمة رسالته بما يتيحه التفوق العلمى من إبداع صناعى ، وتنظيم عمرانى .

ولنعترف بأن هناك مسلمين يتدحرجون على السفوح لا يدرون من أسرار الكون الكبير شيئًا ، على حين استطاع أقوام لا يؤمنون بالله ، أو يؤمنون به على غموض وشرك ، استطاع هؤلاء وأولئك ، أن يقتربوا من فطرة القرآن بيقظتهم العقلية العارمة ، وأن يحرزوا من التقدم المادى المجرد ، ما أثار فى الحياة الفتنة والحيرة .

فإن يك على هؤلاء حرج فالمسلمون المفرطون شركاؤهم فيه ، ومن يدرى ؟ ربما كان كفلهم منه أربى .

لقد ورثنا النبوة والكتاب ، ترى هل سنسعد بهما ونسعد العالم معنا أم ماذا ؟ .

إن العرب اليوم على أبواب تجمع جديد ، ومستقبل ممتد ، وميراثنا مصون ، وتبعتنا بينة ، وصراعنا مع الاستعمار يجب أن يعتمد على كل ما لدينا من أسباب النصر وضمانات السماء .



الحقائقَ وحدها.. من أجل الإنسان

يجب إحكام الرقابة على الطرائق التى نؤثر بها فكرة عن فكرة ، واتجاهًا على اتجاه ، فإن الغش فى المقاييس العقلية أكثر شيوعًا من الغش فى موازين التجار الخونة !

والغريب أن الإنسان قد يضيق إذا بخس حقه فى سلعة دفع ثمنها كاملاً ، ويشعر بسوأة الختل وسوء المعاملة ، بيد أن هذا الإنسان نفسه لا يشعر بكبير حرج عندما يصدر حكمًا خاطئًا على أمر من الأمور ، أو عندما يقتنع بصدق أسطورة مبتوتة الصلة بالواقع . . وقد حرك القرآن الكريم جمهور المشركين كى يستبينوا طبيعة ما لديهم من عقائد ومذاهب ، وأهاب بهم أن يعيدوا النظر فى تقويمها ! وأن يكشفوا الغش الذى زين لهم قبولها ! وساءلهم أين الدليل على ما ذهبوا إليه ؟

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] .

﴿ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[2] .

والمطالبة بالبرهان فى كلتا الآيتين ليست أكثر من عرض لإعادة النظر فى المواريث الفكرية السائدة حتى ينبذ منها ما لا دليل عليه ، وحتى يتخلص الإنسان من قيود الوهم التى تشل قدرته وتضلل غايته .

ولسنا هنا فى مقام التنديد بقوم ألغوا عقولهم وتبعوا ما انتقل إليهم عن آبائهم ، فإذا بدا لهم خطله أصروا عليه ، لبلادة غلفت عقولهم بالتعصب ، وجعلتهم يردون هاديهم إلى الحق بهذا الجحود **﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾**[3] ، فإن هذا النوع من الدهماء مهدر الكرامة ، بين الرذيلة .

إنما حديثنا هنا عن كثير من أولى العقل الذكى ، والفكر النير ممن يحترمون المنطق وينحنون للدليل ، ولكنهم لأمر ما سمحوا لأفكار شتى أن تتسرب إلى نفوسهم ، وأن تؤثر فى سلوكهم دون وعى كامل ونقد حصيف .

---

(١) الأنبياء : ٢٤ .   (٢) النحل : ٦٤ .   (٣) الزخرف : ٢٤ .

والزلل الفكرى لهؤلاء الكبار بعيد المدى .

وأشيع ما يكون هذا الزلل بين المبرزين فى فن ما عندما يتكلمون فى فن آخر .

إن الرجل قد يتبوأ القمة فى علم الطب ، فإذا تحدث فى التشريع أو اللغة وقع فيما لا تقع فيه الناشئة ، وبعض المخترعين تحدث فى الدين بكلمات تثير الضحك ، وأبدى آراء لا وزن لها .

وإذا تركنا ميادين التخصص العلمى المختلفة وجدنا أنفسنا أمام عوائق أخرى دون الحقيقة المجردة .

إن العلماء فى ميدان واحد قد يبدءون البحث من أساس هو موضع ثقتهم التامة ، مع أن هذا الأساس نفسه مدخول خادع .

وما أكثر الوراثات والإشاعات والأفهام التى لا تثبت على التمحيص وهى عند أصحابها عقائد مكينة ، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون إلى المنطق العلمى الصارم فى تقويم كل شىء ، وترتيبه حسب منزلته من اليقين .

يقول «ألكسيس كاريل» : «فى جميع الأزمان كانت الإنسانية تتأمل نفسها من خلال منظار ملون بالمبادئ والمعتقدات والأوهام ، فيجب أن تهمل هذه الأفكار الزائفة غير الصحيحة . ومنذ أمد بعيد أشار «كلود برنار» فى كتاباته إلى ضرورة التخلص من النظم الفلسفية والعلمية كما يفعل الإنسان حينما يحطم سلاسل العبودية العقلية ، ولكن بلوغ مثل هذه الحرية لم يتحقق بعد ، لأن البيولوجيين والمعلمين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ، كانوا إذا ما واجهتهم مشكلات شديدة التعقيد غالبًا ما يستجيبون للإغراء الذى يستحوذ عليهم لكى يبنوا نظريات ثم يقلبوها بعد ذلك إلى معتقدات ، ومن ثم فقد تبلورت علومهم على شكل تراكيب ، شأنهم فى ذلك شأن المتعصبين للديانات . إننا نلاقى كثيرًا من دواعى التذكير التى تثير التعب بسبب هذه الأخطاء فى جميع نواحى المعرفة» .

ونحن نود لو عولجت الآراء والمقترحات والمذاهب بأقصى ما لدى البشر من ذكاء وتجرد وحرية ، فإن الأوهام بين الناس أكثر من الحقائق ، ولو كانت الظنون العلمية والاجتماعية والدينية تتساقط من أذهان أصحابها كما يتساقط ورق الشجر فى فصل الخريف ، لعريت عقول كثيرة مما يتماسك بها ، وما يطلبه مؤلف «الإنسان ذلك المجهول» هو ما سلكه كبار العلماء عندنا ، إن نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين فى مزدحم الآراء التى تلقاهم ولا شك أن القرآن الكريم من وراء هذا السعى الحميد .

وتأمل فى هذه الآيات التى تجمع الرذائل الفكرية والنفسية لأى رأى وتحذر من مقارفتها ﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾[١] ؟ .

التخرص ، والانغماس فى الغفلة ، والسهو عن الواقع ، هذه آفات لا تنتج حقيقة أبدًا ، ومثلها غفلة الحواس وذهولها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[٢] ، فكم من حاضر الجسم غائب اللب ؟ أترى ذلك يعى ما أمامه؟ .

﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ .. ﴾[٣] . المرء المغمور بصور مادية ومعنوية معينة قلما يخرج من محبسه ليدرك مشاهد أخرى للحياة أو جوانب من الحق لا يحسها ، إلا أن تدرك أقدار حسنة فتتيح له أن يعرف ما كان يجهل .

والحضارة الإسلامية فى أعصار ازدهارها ، وقربها من منابعها كانت تلمع فيها هذه الصبغة الباهرة صبغة التجرد للحق ، والبحث عن اليقين .

ولنتناول طرفًا من حياة الغزالى الكبير ، كنموذج إسلامى فى مجتمع شبيه بعصرنا هذا ، كانت الأفكار فيه والمذاهب تتصارع فى كل قرية ومدينة ، إذ إن الثقافات الأجنبية العالمية تمت ترجمتها تقريبًا إلى العربية فى الوقت الذى بلغت فيه علوم الدين واللغة مرتبة الاستقرار ، وشاع الجدل العلمى فى كل ناحية وانتشرت مجالسه ومناظراته .

فكان طالب الحق يجد نفسه أمام ألوان شتى من التفكير ، وبين دعوات تجتذبه من هنا ومن هناك وإنك لتلمح مدى الحرية العقلية التى تمتع الغزالى بها وهو يصف نفسه فى كتابه «المنقذ من الضلال» فيقول :

«ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل العشرين إلى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا

(١) الذاريات : ١٠ ، ١١ .   (٢) ق : ٣٧ .   (٣) المؤمنون : ٥٣ ، ٥٦ .

متكلمًا إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقًا معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا إذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء إلا على التنصر وصبيان اليهود لا نشوء لهم إلا على اليهود ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام ، وسمعت الحديث المروى عن رسول الله ﷺ حيث قال : «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**» فتحرك باطنى إلى حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت فى نفسى : أولاً إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم» .

والمنهج العلمى البحت الصارم فى ضبط المقدمات ووزن النتائج بموازين الذهب ، لا يلقى أشرف من هذه السيرة ، ولو وضعت هذه السطور المضيئة أمام المؤلف الفرنسى الكبير لامتلأ قلبه إجلالاً لصاحبها .

ونحن - حين نخط هذه السطور - نشفق من متاجرين بالحرية العقلية ، لا يؤيدونها إلا بمقدار ما تعطى الشبهات حق الحياة ، والخطأ حق الانطلاق ، والفوضى حق التدمير .

فإذا أتاحت لهم الحرية ما يبتغون سدوا على خصومهم أفواه الطرق ، ودفعوا بالمجتمع كله صوب ما يعتنقون .

وهذه ثمار مرة لا يرى عاقل أن يمهد لها ، والأمر يحتاج إلى تفصيل ومحاذرة .

ففى ميدان العلم ، وفى مجامعه الكبرى ، وصفوفه العليا يمكن أن تدرس النقائص ، وتسمع شتى الآراء وتناقش جهرة دون حرج ، ومع تأمين مطلق لذويها .

أما أن يستمكن بعض المنحرفين من آذان العامة ويصبوا فيها ألوان الإغراء ، ومنازع الشر ، فهذا هدم لا بناء ، وخطره على المجتمع شديد ، إذ هو سيزلزل القيم التى يتحرك بها ، ويوهى الأواصر التى تشد بعضه إلى بعض .

ولقد رأيت بعد إمعان النظر واستقراء الأحداث أن الباطل لا يسير فى الأرض بقواه الذاتية ، وإنما تسيره عوامل الرغبة والرهبة وتسنده الرشا والسيوف ، وعندما نتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه .

أما الحق فإن تجاوبه مع فطرة الله فى النفوس يجعله مقبولاً مستحبّاً ، ويقدره على تخطى العقبات واجتياز السدود ، أى أن الحق لا يخشى الحرية أبدًا ، إنما يخشى الحرية العوج والجهل والبغى فى الأرض بغير الحق . .

ومن ثم فنحن مع توفير الحرية التامة فى أرجاء المجتمع ، نعتقد أن هذه الحرية بما فيها من حرارة ستنضج السنابل النافعة ، وتقتل الحشرات الضارة ، سيأخذ الحق منها جواز مروره إلى الأعقاب على اختلاف الليل والنهار ، وسينكمش الباطل فى جوها ، فإما صعق لفوره ، وإما تحرك قليلاً ريثما يلقى حتفه .

وكم من عوج فى الدنيا ما يمسك بقاءه إلا استخفاء هذه الحرية العزيزة ، ولو هبت رياحها يومًا لخلعت جذوره .

وبديهى أن الحرية التى نعشق ، تلك التى تحد من جهاتها الأربع بما لا يضر الآخرين .

إنها الجو الذى يعيش على تمحيص الحقيقة ويساعد على قبولها دون قسر أو ختل . .

والعلم بالإنسان ورسالته ، وضمان حاضره ومستقبله ، والتسامى به مبنى ومعنى جهد رحيب الدائرة ، بل إن العلم بالإنسان لا يصح إلا مع خبرة محترمة بعلوم الكون والحياة ، وإحاطة حسنة بجملة الحقائق المادية والتاريخية والاجتماعية .

ولا غرو فالإنسان أثمن درة فى هذا الوجود ، والقصور لا يجدى فى فهم قضاياه ، ولذلك يقول «ألكسيس كاريل» : «إن علم الإنسان يستخدم جميع العلوم الأخرى ، وهذا سبب من أسباب بطئه وصعوبته» ويقول : «من الواضح طبعًا أنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتحكم ويتفوق فى جميع الفنون التى لا غنى عنها لدراسة مشكلة واحدة من مشكلات الإنسان» .

وليس هذا مثبطًا للهمم أو معجزًا للباحثين ، ولنبدأ السير من الآن «سيكون علم الإنسان مهمة المستقبل فيجب أن تقنع الآن بالبداية سواء من الناحية التحليلية أو من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الإنسانية» . .

وهنا نشرف على أنفس ما وصل إليه العالم الغربى الألمعى !

ما الإنسان الذى نحيطه بتلك الهالة النيرة ؟ . لقد كرم الله الإنسان من قديم ، وفضله على صنوف البر والبحر .

وفى عصرنا هذا نجد الإنسان بدل أن يصعد السلم بقدمين يحمله المصعد إلى أعلى ، وبدل أن يقطع المسافات الشاسعة فى سفره تحمله الطائرات إلى ما يبغى .

إن عناصر وفيرة فى الأرض والسماء مسخرة لإراحة البشر وترفيههم ، وكلما ارتقت الحضارة زادت أعداد العناصر المسخرة للإنسان ، وزادت مقدرة الإنسان على تطويعها لرغباته .

فهل كرامة الإنسان وعظمته تعودان إلى هذه المهارة ؟ كلا ، إن الإنسان الذى يصعد السلم على قدميه وهو يلهث أشرف ممن يمتطى المصعد ، إذا كان الأول يحمل بين حناياه قلبًا زكيًا ، ونفسًا نقية ، وكان الآخر لا يعرف إلا ملء معدته وإطفاء شهوته .

ليس شرف الإنسان بمدى سطوته فى الأرض ، بل بمدى تنمية مواهبه العليا وملكاته النبيلة .

وفى هذه الأيام(*) نستقبل أنباء غزاة الفضاء وهم يحاولون ببأس شديد أن يتعرفوا الكواكب الأخرى ، ويضعوا أقدامهم على سطحها .

إن هذا تقدم علمى رائع بيد أن قيمته الإنسانية هابطة ما بقى البشر على ظهر الأرض يأكل أبيضهم أسودهم ، ويستذل قويهم ضعيفهم ، ويصبحون ويمسون وهم لا يحسنون إلا خدمة الإهاب الطينى الذى احتوى خصائصهم ووظائفهم المادية والمعنوية فإن كل إنسان منصرف الآن - هكذا يقول كاريل - إلى الاهتمام بالأشياء التى تزيد من ثروته وراحته فى حين لا يوجد من يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والعقلية لكل فرد يجب أن تتناولها يد التحسين فإن صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الأدبى والتطور الروحى تتساوى فى أهميتها مع صحة الأبدان من الأمراض المعدية .

إننا لن نصيب أية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية وقد يكون من الأجدى ألا نضفى مثل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء . ومن ثم فإن من الأفضل كثيرًا أن نوجه اهتمامًا أكثر إلى أنفسنا عن أن نبنى بواخر أكثر سرعة وسيارة تتوافر فيها أسباب الراحة وأجهزة راديو أقل ثمنًا أو تلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق . ما هو مدى التقدم الحقيقى الذى

(*) كان هذا فى وقت كتابة المقال يونيو ١٩٦٥ م .

نحققه حينما تنقلنا إحدى الطائرات إلى أوربا أو إلى الصين فى ساعات قلائل ؟ هل من الضرورى أن نزيد الإنتاج من غير توقف حتى يستطيع الإنسان أن يستهلك كميات أكثر باطراد من أشياء لا جدوى منها؟ ليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الخلقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام ، يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر ونوجهه فى اتجاه آخر . .

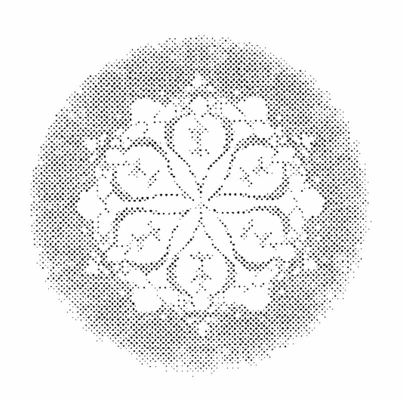
يجب أن ننصرف عن الأبحاث الطبيعية والفسيولوجية لتتبع الأبحاث العقلية والروحية .

وقائل هذا الكلام رجل يستمد معرفته من المعمل والأرقام ، والوقائع ، وهو يبغى بمنطق العلم التجريبى المنزه عن الوهم والمجازفة أن يعرف الإنسان نفسه ومصلحته العاجلة أو الآجلة .

ولو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصيب كريم فى هذا الميدان . . أعنى أن يلفتوا إلى هذا العلم الجديد «علم الإنسان» ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحى ، فإن كل علم للإنسان يجب إرساء قواعده على الإيمان بالله واليوم الآخر ، وعلى اعتداد مرحلة العمر فترة اختبار لها ما بعدها .

وعبيد الدنيا ينكرون هذا الكلام أشد الإنكار ويتوهمون أن مستقبلهم هنا ، وحسب .

ما أشبههم برجل قرر أن يزرع صحارى القطبين واستصحب فى رحلته إليها قناطير البذور إنه لن يجنى من جليدها إلا متاع الغرور .



التفاوت بين التقدم الروحى والتقدم العقلى

هناك شعور عام بأن العالم قطع مراحل شاسعة فى طريق التقدم العقلى ، لكنه تخلف ، أو - على إحسان الظن - بقى مكانه من الناحية الروحية .

وقد نشأ عن ضمور ملكاته الأدبية وتضخم قدراته المادية تفاوت مقلق . اختل معه سير القافلة البشرية ، واتزانها ، وبصرها بما تقبل عليه أو تحجم عنه .

وصارح عدد من المفكرين الكبار بتشاؤمهم من هذا العوج ، كما أن لفيفًا ضخمًا من رجال الدين والأخلاق لا ينقطع جؤارهم من القحط الروحى الذى يسود أرجاء الأرض والذى يطلق الأفراد والجماعات مسعورة وراء مطالبها الخاصة لا يلوى عنانها بشىء .

وأريد أن أكون حذرًا فى تناول هذا الموضوع ، لا لريبتى فى صدقه ، بل لرغبتى فى استبانة ما ينشده الضائقون بالتقدم المادى والارتقاء العقلى المجرد .

إنها غيرة مشكورة أن ننوه بالتسامى النفسى ، وأن نحض الناس على العودة إلى الدين ، والتشبث بتعاليمه ، ولكن يجب أن يكون مفهومًا أن الفضائل والعبادات التى قررها الدين لا تعوق بتة ازدهار الحياة وتقدمها المادى .

إن الإنسان عقل وقلب ، والظن بأن يقظة القلب ما تتم إلا مع خمول الفكر وازدراء الدنيا ، خطأ فاحش .

وكذلك الظن بأن سيادة العقل ما تتم إلا بتضحية الإيمان وإيحائه خطيئة كبيرة . إن الأعصار الأخيرة شهدت نتاجًا عقليّاً رائعًا نقل العالم من حال إلى حال . وأريد أن أقرر دون تردد أن جهاد العقل الإنسانى ومكاسبه التى ظفر بها موضع احترامنا ، وأن هذا الجهاد إذا كان قد مضى فى طريقه منفردًا ، لم يستصحب الدين معه ، فليس هو الملوم فى ذلك . .

فإن كثيرًا من أهل الدين أساءوا إلى ربهم وإلى أنفسهم يوم بخسوا العقل قيمته ، وافتعلوا العراقيل أمام حركته .

وإذا كانوا اليوم يبكون لمتاعب العالم الروحية ، فليس الاستماع إليهم سليمًا بوجهة نظرهم فى قيادة الحياة حسب ما يتصورون .

إن التدين الذى انكمش أمام أقدام العلم ، وقبع مكانه ساخطًا على ثمرات التقدم المدنى ، لا يستحق فى نظرنا أن يعطى فرصة أخرى لتخريب الدنيا وشل نمائها .

يجب أن يزداد التفوق العلمى مقدرة على خدمة البشرية ، وغاية ما نريد أن يصحبه على الطريق وحى الله وسنا توجيهه حتى لا يضل أو يزيغ . .

لقد أخطأ بعض المتدينين فظنوا زكاة الروح ما تتم إلا بدمار الجسد ، وضمان الآخرة ما يتم إلا بضياع الدنيا .

ومضيًا مع هذا التفكير الشارد تجهموا لأسباب الحياة والارتقاء ، ووقفوا بعيدًا يرمقون الحضارة الإنسانية الزاحفة وهى تكبو حينا ، وتستقيم حينا آخر .

ولعلهم - وهم يستمعون للتنديد بضراوة المادية فى العالم - يقولون : ألم نتوجس خيفة من هذا المصير ، ونحذركم الانحدار إليه ؟

ونحن نقول لهؤلاء : على رسلكم ، إن ما تريدون للعالم ليس شرًا مما نشكو منه الآن .

إن كل تدين يجافى العلم ، ويخاصم الفكر ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة هو تدين فقد صلاحيته للبقاء بله القيادة .

وما نظن أهل الأرض لعودة إليه بعدما منحوا نعمة الخلاص منه .

التدين الحقيقى إيمان بالله العظيم ، وشعور بالخلافة عنه فى الأرض ، وتطلع إلى السيادة التى اقتضتها هذه الخلافة أعنى السيادة على عناصر الكون وقواه .

ولا تتاح هذه السيادة بداهة إلا لعقل ذكى جواب فى الآفاق ، طلعة إلى اقتحام المجاهل ، راغب فى تطويعها لمشيئته .

التدين الحقيقى ليس جسدًا مهزولاً من طول الجوع والسهر ، ولكنه جسد مفعم بالقوة التى تسعفه على أداء الواجبات الثقال ، مفعم بالأشواق إلى متاع الحياة .

فإن كان حلالاً طيبًا ارتفعه وابتهج به ، وإن كان كسبًا خبيثًا ابتعد عنه وهو قادر عليه .

إن الاستعفاف عن المفقود الميئوس منه ليس تقوى ، بل هو كصفح العاجز عن الانتقام لنفسه ، لا دلالة فيه على سماحة أو تطول :

كل حلم أتى بغير اقتدار   حجة لاجئ إليها اللئام

وعظمة الإيمان إنما تتألق وسط دنيا يملكها المجتمع المؤمن ، ويستطيع الانغماس فى فتنتها ، ومع ذلك فهو يحكم نفسه ويحكمها باسم الله .

عظمة الإيمان تعتمد ابتداء على فقه فى آيات الكون يقف المرء على أسرار الإبداع الأعلى ، ويشعره بما يستحقه الخالق الكبير من مجد وحمد .

عظمة الإيمان تقوم على نشاط عقلى لا حدود له ، يواكبه نشاط روحى لا يقل عنه كفاءة ، بل يربو عليه .

أما إهزال الفكر الإنسانى ، وإضعاف ثماره ، حتى يستطيع التدين المعلول أن يملك زمامه ، فذاك ما نرفضه كل الرفض .

إذا كان عالمنا يشعر بضوائق روحية معنتة فى هذه الأيام ، فالعلاج الفذ ليس شجب التقدم العسكرى والصناعى ، ولكن جعل هذا كله فى وصاية إيمان ممدود المفهوم رحب الدائرة يؤمن بالإنسان عقلاً وقلبًا ، ويستجد إيمانه ذاك من معرفته لله واستمساكه بهداه . .

أما تصور التقدم الروحى على أنه استرخاء فكرى . . يجر سبات الليل إلى سحابة النهار أو عودة بالإنسان إلى عالم من الرؤى والفنون الحالمة والآداب الهائمة ، فهذا ليس تقدمًا بالحياة ، ولكنه عوج من طراز آخر . .

فلنعد – بعد هذا التنبيه – إلى سماع الشكوى من الأزمة الروحية فى عالمنا الحاضر . .

إنها شكوى صادقة كل الصدق فإن الحضارة الحديثة تقوم على عبادة الحياة الدنيا ، والاستكثار جهد الطاقة من لذاتها أو التسابق المضنى لجمع حطامها . .

أما الصلة بالله فهى – مع ضعفها البالغ – ما تظهر فى وعى الناس إلا لمامًا ، وقلما كمن الإيمان بالله وراء نية باعثة ، أو اقترن بغاية كريمة .

ودعك من الحديث عن اليوم الآخر ، فإن ذكر ذلك فى مجمع جاد أمر يثير الدهشة والتهمة !!

وعواصم أوربا وأمريكا – وهى مصدر النظم المدنية التى تسود الأرض الآن – سواء فى هذا المعنى .

فالعالم الشيوعى الشرقى والعالم الرأسمالى الغربى قد يختلف أحدهما عن الآخر فى أسلوب الحياة ، ولكنه يوافقه فى أن الحياة مقصودة لذاتها وإن ما وراءها وهم ، وهذه الوثنية الجديدة – أعنى عبادة الحياة وحسب – هى الطابع الدميم للحضارة الحديثة وقد تناول المؤرخ الإنكليزى الكبير «توينبى» هذه الحقيقة بعبارات استرعت انتباهنا قال : «إنى أشعر بانحسار الأديان الكبرى المعروفة وظهور عبادة القوة البشرية» مرة أخرى فى

العالم الحديث ، ظهرت هذه العبادة فى شكليها التقليديين : شكل عبادة الدولة المحلية أو عبادة الدولة العالمية .

وعبادة الدولة المحلية تظهر بصورة جلية فى النزعات القومية ، بينما تتمثل عبادة المجتمع العالمى إلى حد ما فى الشيوعية ، وفى الأمل الذى يداعب الكثيرين نحو تحقيق ضرب من الوحدة العالمية أو الحكومة العالمية .

وإنى أفترض أن هذه الصور لعبادة القوة البشرية الجماعية تشمل ٩٠ ٪ من الشعور الدينى أو ٩٠ ٪ من سكان العالم فى الوقت الحاضر . .

قال : «والواقع أن الارتكاس فى عبادة القوة البشرية الجماعية بنوعيها السابقين هو السبب الحقيقى للمتاعب والاضطرابات التى تنشب بين الناس . إن الأديان الكبرى جميعًا مهملة وآخذة فى التلاشى . وربما توقف مستقبل الجنس البشرى على عودتها إلى السيطرة أو عجزها عن ذلك» .

وكلام هذا المؤرخ الكبير يشير من قرب إلى موضع الداء فى الحضارة الحديثة ، فالناس يدورون حول أنفسهم ولا يعرفون إلا يومهم هذا . .

وحديثه عن الشيوعية مسلم كله ، لأنها مذهب ظاهر الكفر بالله ووحيه . أما القوميات ، فلعله ابتداء يقصد النزعات العنصرية الحادة التى عرفتها وما تزال تعرفها أوربا وأمريكا .

ولما كانت هذه القوميات ذات مفهوم أجوف فارغ فإن المتعصبين يحشونه بأهوائهم التى لا خير فيها قط ، وربما قبل هؤلاء المتعصبون للجنس أو اللون ، أن يستضيفوا الدين حينًا من الزمن ، بيد أنهم لا يسمحون له أبدًا أن يكون رب البيت ، إنه ضيف موقوت الإقامة ، يجوز طرده إن تجاوز حده !!

وليس الفيلسوف الإنكليزى «توينبى» وحده هو الذى يسوى بين العالمين الشيوعى والرأسمالى فى عبادة الحياة ونسيان الدين «لا» فإن «الكسيس كاريل» فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول» يشرح ذلك بتفصيل وإبانة ، فيقول : «إن الدول التى تبنت بغير تبصر روح الحضارة الصناعية وفنونها مثل روسيا وإنجلترا وفرنسا وألمانيا معرضة للأخطار ذاتها التى تتعرض لها الولايات المتحدة ، ومن الواجب أن يتحول اهتمام الإنسانية من دنيا الآلات وعالم الجماد إلى جسم الإنسان وروحه» . لكن ما هى الأخطار التى تعرض لها العالم الحديث ؟

إنه يفصل ذلك فيقول : «كان من الطبيعى أن تضطر القيم الأدبية إلى التخلى عن مكانتها للانتصارات العقلية التى جلبت لنا الثراء والترف ، واكتسح العقل المعتقدات الدينية وأصبحت معرفة القوانين الطبيعية ، والقوى التى تهيئها لنا هذه المعرفة لتسخير العالم المادى هى الشىء المهم» .

ويقول : «لقد أطلقهم العلم العصرى من القيود الأدبية التى كان يفرضها عليهم النظام الدينى البحت . وهكذا حررتهم الحياة العصرية من القيود الثقيلة التى كانوا يعانون منها الأمرين كما أنها تحفزهم على العمل من أجل الثراء بأية وسيلة مستطاعة ، بشرط ألا تؤدى بهم هذه الوسيلة إلى السجن !!! وتفتح أمامهم جميع بلاد العالم بعد أن حررتهم من شتى العوائق ! وتتيح لهم إشباع رغباتهم الجنسية بطريقة سهلة كلما أحسوا بالحاجة إلى إشباع هذه الرغبة !! إنها خلصتهم من كل عناء ونظام ، ومن كل ما يسبب الضيق والتعب» .

ويقول : «لم يسبق للبشر أن طعموا بمثل هذا النظام الدقيق ؛ نظرًا لما طرأ على حياتهم من ثراء كان عامّا إلى أعوام قليلة مضت . ولضعف الروح الأدبية فيهم أضحوا منصرفين عن الصوم» .

ويقول : «لقد انحلت روابط الأسر ولم يعد للألفة والمودة وجود ، لأن حياة الجماعات الصغيرة قد حلت محلها حياة القطعان الكبيرة» . . .

وشرق أوربا وغربها سواء فى البعد من الله ، والحرمان من الحق ، وفقدان المبادئ التى تمد الخاصة والعامة بالرضا والقرار .

ولا جدوى للأنظمة المدنية التى ولدتها الثورات المختلفة من حمراء وبيضاء .

واسمع لمؤلف «الإنسان ذلك المجهول» يقول : «إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة ، فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين تنطبق فقط على الرجال الجامدين ، ويجب أن يفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية غير معروفة ، فإن علوم الاجتماع والاقتصاد علوم تخمينية افتراضية» .

أى أنها قائمة على ظنون ، وأمر الحياة أكبر من ذلك ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ** ﴾[1] .

---

(١) الفتح : ٢٨ .

ما المخرج من هذه الضوائق ، وكيف يجد العالم سناءه الفكرى والروحى معًا ؟

الراشدون من رجالات الفكر يتفقون على أن شفاء العالم من سقامه مرتبط بعودة الإيمان إلى القلوب الفارغة ، وعودة الأديان الكبرى إلى مكانتها المفقودة .

وهذا الرجاء سيبقى سرابًا خادعًا ما لم نعرف لماذا فقدت هذه الأديان مكانتها ؟ ولماذا أفلت زمام الحياة من يدها ؟

وهل الأرواح الظامئة إلى الحق واجدة ريها فى اتباع هذه الأديان ؟ وهل الجماهير الفقيرة إلى الأمن والسكينة ظافرة بطلبتها فى رحاب العقائد الموروثة ؟ أحب ، بين يدى الإجابة عن هذه الأسئلة ، أن أذكر أمورًا لابد منها . إن الأديان الأرضية يجب سلخ هذه التسمية عنها . فهى فلسفات شاعت بين أصحابها وليست أديانًا على الحقيقة .

وما يصح أن يلتمس علاج لعلل الناس من تفكير أرضى بحت ، فيه من الخطأ أضعاف ما فيه من الصواب ، وفيه من القصور أضعاف ما فيه من التمام .

وما انقطعت نسبته إلى السماء ، فوصفه بأنه دين ضرب من التجوز قد يقبل استصحابًا لبعض الملابسات ، بيد أننا نرفض بتة أن نعد هذه العقائد أديانًا يستريح الناس فى ظلالها .

إن الأديان السماوية المعروفة الباقية إلى يوم الناس هذا ، هى اليهودية والنصرانية والإسلام .

ونحن ـ المسلمين ـ نؤمن بكتب السماء ، ونسوى بين موسى وعيسى ومحمد فى أنهم رجال صدقوا الرغبة إلى الله ، وأخلصوا النصح لعباده ، وحاربوا الشيطان ووساوسه ومهدوا طريق التوبة والعبادة والإحسان .

وفى مواجهة المحنة الروحية والخلقية التى تسود الأرض ، ينبغى أن يعرف مَنْ مِنْ أتباع الأنبياء يسأل عنها ويحمل النصيب الأوفى فى ملاقاتها ؟

إن اليهود اليوم فى أقوى مراحل تاريخهم وأذكاها ، وقد استطاعوا أن يسخروا قوى هائلة فى إقامة دولتهم إسرائيل .

فهل شم أحد رائحة التقوى والسمو فى النشاط الدينى الذى تقوم الصهيونية تحت رايته ؟

وهل شام أحد بريقًا من خير وعفة فى قيام إسرائيل تحمل لقبًا لواحد من الأنبياء ؟



الواقع أن بنى إسرائيل من وراء الكبوة الخطيرة التى تعانيها الإنسانية هنا وهناك ، ومن الحماقة التماس هدى للعالمين فى شىء عندهم . .

ونظرة أخرى إلى الاستعمار الغربى الآثم : لقد جثم على مساحات فيحاء من أرض القارة المحروبة «أفريقية» وبقى أعصارًا طوالاً يعب من خيراتها وينهب ثرواتها الظاهرة والباطنة ، ويتخذ النصرانية ستارًا لأطماعه . . فماذا جنى من هذا المسلك ؟

لقد اغتنت أوربا من المال الحرام ، وجبيت إليها ثمرات كل شىء ، واختفى الماء من الموائد لتحل الخمر محله ! وعريت الأجساد عن ألبسة التقوى لتكرع النفوس من الشهوة كيف شاءت ، وانجرف الآباء الروحيون مع التيار السائد !

فهل هذا المسلك هو الذى يمهد للناس طريق العودة إلى الله ؟

أما الإسلام فهو دين يتيم ، ليست له اليوم أبوة روحية وثقافية تجلو معدنه وتبدى حقيقته .

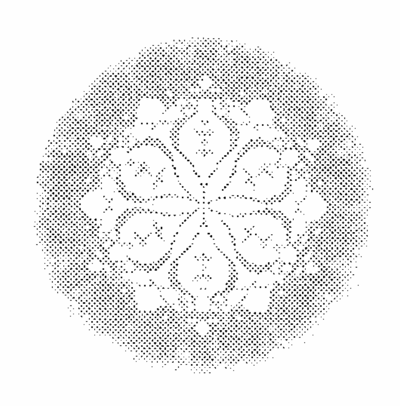
ولعله مشغول بالدفاع عن نفسه وأرضه ضد الضغائن الهابَّة عليه من يمين وشمال .

فكيف يقدر فى هذا الوضع على الوفاء بحاجة العالم إلى السلام النفسى والاجتماعى ؟

إن العالم يتلوى من الفراغ الروحى الرهيب الذى أسعر فى جنباته نوازع الأثرة والتظالم والجشع .

وهو أفقر ما يكون إلى منقذين من الطراز الذى وصف الله رجاله بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

ولعل العرب يقدمون للإنسانية هذا الدواء ، ويؤدون الرسالة التى تخيرتهم لها السماء .



أصول عربية للاشتراكية الحديثة

جرى في نفسي هذا التساؤل : لو كان ملوك فرنسا وروسيا أحنى على الجماهير وأرفق بالضعفاء وأدنى إلى العدالة وأرضى لله . أكانت الثورات العاتية تثل عروشهم وتقض مضاجعهم ؟

إن جنوح هؤلاء الحكام إلى العسف والفوضى أعقب آثاره المتفاوتة فكان رد الفعل مزيجًا من الخير والشر والقسوة والرحمة . بل كان مزيجًا من الكفر والإيمان . فإن الثائرين - إلا من عصم ربك - مندفعون بمشاعر فيها من الغيظ المحبوس أضعاف ما فيها من إحقاق الحق وإبطال الباطل .

لكن عبث الحكام وقع في بلاد كثيرة . ومع ذلك فإن رد الفعل لم يقترن بتلك الأحقاد الجامحة خصوصًا في أقطار العروبة والإسلام . فما السر في هذا المسلك ؟

والجواب فيما نرى يرجع إلى طبيعة الأمة العربية وتعاليم الإسلام الحنيف .

فإن شبكة التقاليد التي تنسجها الطبيعتان في أرجاء المجتمع تحمي الأمة من الهزات الحانقة وتحصن كيانها من المبادئ المتطرفة والنزعات الكفور .

ولأمر ما لم تندلع في تاريخنا الطويل ثورة حمراء قط . ولن يقع ذلك أبدًا .

لا لشيء إلا لأن الثروة الغزيرة من المشاعر الحانية والسير الزاكية التي احتضنت ولا تزال تحتضن أمتنا تحول دون هذا العوج .

في الجاهلية الأولى للعرب كان الناس أكثر تعاونًا وأظهر تراحمًا من روسيا القيصرية وفرنسا الملكية .

ربما هلك الفرد في زمهرير الشتاء هنالك دون أن يجد قوام حياته من غذاء ودفء ، أما العرب في مجتمعهم القبلي فهم يوقدون النار في القمم النجود لإرشاد العافين واستقدام الأضياف . ولسان حالهم ما يقوله حاتم لغلامه :

أوقد فإن الليل ليل قر

والريح يا غلام ريح صر

عــــل نـــــارك مــــــن يـــــــــــر
إن جلـبت ضيفًـا فأنت حــــــــر

والواقع أن العرب أبعد عن الروح الفردية الجافة التى سادت بلادًا أخرى وأقامت علاقاتها على الكزازة والانطواء .

وتأمل كيف تمنى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى الضخم أن يكون ابنًا لعروة ابن الورد الملقب بعروة الصعاليك !

ولماذا ؟ لأبيات قالها عروة تشرح البناء النفسى لهذا الأعرابى الكبير القلب جاء فيها :

أتهـــزأ منـى أن سمنـت وأن بـــــدا
بوجهى شحوب الحق والحق جاهد
فـإنى امرؤ عـــافى إنـــائى شــــــركة
وأنت امرؤ عـافى إنـائـك واحـــد
أقســم جســمى فـى جســـوم كثيـرة
وأغـــذو قــراح المـاء والماء بـــارد

فالشركة التى وردت على لسان عروة أو الاشتراكية التى عاشت على لسان أهل العصر تعنى أن المرء لا يعيش وحده ، ولا يجعل نفسه محور نشاطه وخموله ورضاه وغضبه .

فهناك غيره من الصحب والأخوة والغرباء والطارئين ، هناك عالم رحب وراء دائرة الأثرة الكنود ، عالم تتعلق به الهمم الكبيرة والنفوس الطيبة وتربط كرامتها ومكانتها بالرسوخ فيه .

ومراسم النبل التى يخطها هؤلاء الرجال هى التى جعلت حاتمًا يسدى هذا النصح :

إذا كنـت ربـا للقلـوص فـلا تـــــدع
رفيقـك يمشـى خلفهـا غير راكـب
أنخهــا فأردفهــا فـــإن حملتكـمـــا
فذاك وإن كان العقــاب فـعـاقـــب

والمجتمع الذى يخلط فقيره بغنيه فى وجبات الطعام وأدوات النقل لا يتصور أن تقطعه الثورات الحاقدة ولا أن تمزق ما أمر الله به أن يوصل .

فلما جاء الإسلام ترعرعت فى جوه السمح هذه المعانى العظيمة ، لقد سحق جراثيم الأثرة سحقًا .

وأشعر كل مؤمن بأنه شريك فى الحياة مع غيره فما خلقت الدنيا له وحده ، وما تصلح به وحده ، يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : «**من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له**» .

قال راوى الحديث فذكر أصنافًا من المال حتى رأينا أن لا حق لأحد منا فى فضل .

فلما بنى أول مجتمع إسلامى فى المدينة سنحت الفرصة العملية لتحقيق هذه القاعدة ؛ فكانت الأخوة المتكافلة فى السراء والضراء ، المتقاسمة للخير والشر المتساوية فى نيل الفرص أو الحرمان منها : هى الدعامة المكينة التى قامت عليها هذه الأمة فى أنقى عصورها .

ولقد أراد النبى الغزو مرة فقال : «**يا معشر المهاجرين والأنصار إن من إخوانكم من ليس له مال ولا عشيرة ؛ فليضم أحدكم إليه الرجلين والثلاثة**» .

قال جابر بن عبد الله - راوى الحديث - فضممت إلىَّ اثنين أو ثلاثة ، ومالى إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملى . .

وكان الرسول يقول : «**من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع . بخامس**» .

ولم يكن هذا الترغيب فى استنقاذ الناس من براثن الجوع والفاقة نافلة هينة بل كان الأمر متصلاً بالإيمان وصلب الدين .

ومن ثم قال الرسول : «**ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم**» .

كما روى أن رجلاً جاء إلى النبى وقال له : اكسنى يا رسول الله . فأعرض عنه - لعدم استطاعته - فعاد الرجل يقول : اكسنى يا رسول الله .

فقال له : أما لك جار له فضل ثوبين ؟

قال : بلى ، غير واحد !

قال : «**فلا يجمع الله بينك وبينه فى الجنة**» .

وأصحاب الفضول الذين يبخلون بها ويترفون فيها لا يسالمهم الدين ولا يترفق فى معاملتهم .

فإن الفساد الذى يثيرونه فى المجتمع غليظ ، وحماية الشعوب منه واجبة . وإلا ضاع الدين نفسه فى حريق مطامعهم .

فلا عجب إذا سمى الإسلام هؤلاء شياطين ، واعتبر بيوتهم التى يسكنونها بيوت الشياطين .

ومراكبهم التى يمتطونها مراكب الشياطين ، فعن أبى هريرة قال : قال النبى صلوات الله وسلامه عليه :

«تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين : فأما إبل الشياطين فقد رأيتها يخرج أحدكم بنجيبات معه قد أسمنها فلا يعلو بعيرًا منها . ويمر بأخيه قد انقطع فلا يحمله . وأما بيوت الشياطين فلا أراها إلا هذه الأقفاص التى تستر الناس بالديباج» .

ومن الواضح أن بيوت الشياطين هذه هى التى هدمها الثوار الفرنسيون عندما انطلقوا يبحثون عن حقوق الإنسان ويهدمون معاقل الظلم ، ويتخلصون من ضوائق الكبت والحرمان .

وهى كذلك البيوت التى هدمها الروس الحمر لما أعنتهم تفاوت الطبقات ، وأمضهم الترف المضاعف فى ناحية والبؤس المضاعف فى ناحية أخرى .

وقد تكون هذه الثورات الدامية قد اقتربت بقليل أو كثير من الإغراق والشطط .

ولكن هذه طبيعة الحياة قلما يتمحض فيها الخير والشر .

وعندما يكون الفعل منكرًا يكون رد الفعل أشد نكرًا :

والإسلام يصنع شيئًا كثيرًا حين يشعر كل مسلم أن الناس فى حق الحياة سواء ، وأن الغبن والافتيات لا تصح بهما دنيا ولا يصلح عليهما دين .

فهل هذا الإشعار غاية خلقية يكتفى الإسلام فى غرسها بالوعظ والإرشاد ؟

كلا . إن هناك ركائز اجتماعية واقتصادية مهمة أقامها الإسلام سياجًا حول روح الجماعة حتى لا تضعف أمام وساوس الأثرة الطاغية .

ولنتحدث عن مثال لمنهج الإسلام فى هذه السبيل : الأرض التى نحيا فوقها مرفق كبير لبنى آدم جعله الله لهم مهادًا ويسر لهم التقلب فيه والانتفاع به .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ﴾[1] .

ومن أفحش الظلم فى نظر الإسلام أن يجور امرؤ فى امتلاك شبر من هذه الأرض قال عليه الصلاة والسلام : «**من غصب شبرًا من أرض طوقه من سبع أرضين يوم القيامة**» وهذا وعيد حق ويخيل إلى أن ألوفًا من الناس ستحشر يوم القيامة ، وهى تحمل أتربة زنة الجبال لأن تملك الأرض من غير طريق مشروع خطيئة شائعة .

ولو تياسر الناس فى استغلال الأرض المزروعة لاستراحوا من عنت كبير .

لقد صح أن رسول الله ﷺ قال : «**من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه فإن أبى فليمسك أرضه**» .

وعن مجاهد قال : «**لا يصلح من الزرع إلا أرض تملك رقبتها أو أرض يمنحكها رجل**» .

وقد فهم ابن حزم من هذا ما فهمه رجال من السلف أن كراء الأرض حرام وأن الإنسان يزرع فقط ما يطيق ويدع الباقى لغيره يزرعه وينتفع به دون أجر مقابل .

ويرى فقهاء آخرون أن المنع من إجارة الأرض كان فى صدر الإسلام للتوسعة على الفقراء ثم أبيح التأجير لما صلحت أحوال المجتمع الإسلامى .

وأيا ما كان الأمر فإن التشريع بالحظر والإباحة استهدف منفعة الجماعة ، وإشاعة خير الله بين عباده ، وكبح بواعث الجشع من التحكم والانطلاق .

والدولة - فى نطاق الإسلام وحده - تستطيع تنظيم أوضاعها الاقتصادية دون أن تقرأ سطرًا من مذهب اقتصادى أجنبى فما أغنى الإسلام بمبادئ الإيثار والتراحم والعدل .

على أن هناك ما يجب التنبيه إليه قبل هذا كله ، وهو أن الإسلام دين يغرس تقوى الله فى الأفئدة ، وأن الشرائع المالية المختلفة جزء مسبوق وملحوق بشرائع اليقين والخلق ومراسم العبادة وأنواع الأمر والنهى .

والحق أن الأفكار الاقتصادية الشائعة فى العالم تعتمد على أنظار فلسفية مختلفة القيمة العلمية .

والبرامج اليسيرة ثمرة لنظرة مادية ملحدة تقترن بها دائمًا ، وقلما تنفك عنها إلا زعمًا .

وكذلك البرامج الرأسمالية فإنها ثمرة مغالاة فى تقرير مبدأ الحرية الإنسانية للفرد .

---

(١) الأعراف : ١٠ .

ومعنى ذلك أن الحياة العامة للأمم ليست تشكيلات مالية خالصة أو إرساء للعلاقة بين الاستهلاك والإنتاج على نحو من الأنحاء . كلا . إن الأمم تصطبغ ظاهرًا وباطنًا بأفكار لها خطورتها النفسية والاجتماعية .

ومن ثم أبينا أن نتصور الإسلام نزعة اشتراكية وحسب .

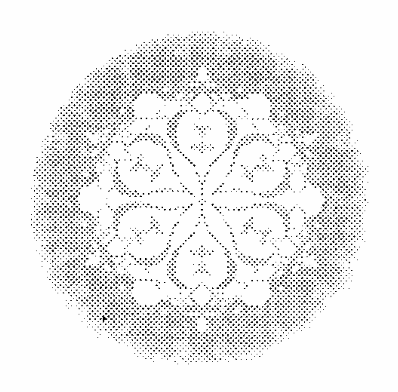
إنه دين للنفس والمجتمع والدولة . وشعب الإيمان الكثيرة تنتشر فى كيان أمته انتشار العروق والأوعية الدموية فى أى كائن حى .

وهنا يتأدى بنا الكلام عن حوافز العمل وحوافز العمل هى الأساس الأول لغزارة الإنتاج أو ضآلته ولفشل الأمم أو نجاحها .

ومعروف أن الإسلام أقر مبدأ الملكية ، وهو محق فى ذلك كل الحق ؛ فالضمان أعظم لكثرة الإنتاج وجودته واستقامة الأعمال وضبطها جعلها فى حضانة فرد حريص مسئول يرى كرامته الشخصية وسعادته الخاصة فى نجاحها ونمائها لكن إقرار مبدأ الملكية لا يسوغ أن يكون ذريعة لإضاعة الصالح العام ولا لجعل طوائف كثيفة من الناس تحت وصاية فرد واسع الثراء يستطيع بجاهه المتاجرة فى ضمائرهم ومصايرهم .

من أجل ذلك يمكن أن توضع قيود شتى على هذا المبدأ بحيث تبقى الحوافز للعمل قائمة وتبقى معها حقوق الجماهير المادية والأدبية مصونة .

والمتأمل فى سيرة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده يرى بسهولة أن الإسلام منهج فريد فى التنظيم الاجتماعى الواعى يمكن أن يوصف بأنه اشتراكية معتدلة أو مسلك وسط بين أقصى اليسار وأقصى اليمين إن صح التعبير .



المرأة بين الإفراط والتفريط

الذين خبروا الحياة فى أوروبا وأمريكا يؤكدون أن الأسرة وهم لا حقيقة له ، وأنها فى أفضل أحوالها تقوم بجزء تافه مما يجب أن تقوم به لإنشاء أجيال أذكى وأقوم . . !

إن البيت خاو على عروشه أغلب اليوم ، لأن الذكور والإناث توزعتهم ميادين العمل والعلم ، حتى الأطفال وكلتهم أمهاتهم إلى دور الحضانة ، وانشغل كل امرئ - بعد - بما انشغل به . . !

وهم يسمعون عن جو الأسرة فى بلادنا ، وربما حلمت بعض المراهقات أن تحيا فيه ، ولكن الهوان الفكرى والنفسى الذى يلف المرأة فيه يصرف الكثيرات عن التعرض لمآسيه . .

وعندى أن المثقفة التى تحيا خارج بيتها ليست خيرًا من الجاهلة التى تعيش داخل هذا البيت . .

العظمة فى توارث العقائد

ألا فلنعلم أنها نعمة حقيقية أن تمتد الحياة من الآباء إلى الأولاد إلى الأحفاد وأن تكون الأسرة المؤمنة المستقرة هى المهاد الوثير لهذا الامتداد .

وليس الإنتاج الحيوانى سر هذه النعمة ، إن العظمة هنا فى توارث العقائد والفضائل ، وانتقال التقاليد الصالحة من جيل إلى جيل .

إن الأسرة هنا حصن الدين وسياج مبادئه وعباداته ، ودور المرأة وأجرها كدور الرجل وأجره سواء بسواء .

وفى عظمة هذه النعمة يقول الله سبحانه فى سورة النحل : ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾[1] .

---

(١) النحل : ٧٢ .

إن الرجال هم حمالو الأعباء الثقال فى قافلة الحياة السائرة ، وسواء كانوا أساتذة أو ساسة ، أو أجراء أو باعة فهم يعودون إلى بيوتهم فقراء إلى المشاعر الدافئة والعون المبذول .

والبيت الذى تكون قاعدته امرأة تنفخ فيه المعانى ، بيت رفيع القدر ، بل هو بيت يحتوى على أثمن الكنوز .

والتقاليد الغريبة هزت كيان الأسرة ، وهى تقاليد تجتاح العالم ، أما التقاليد الإسلامية فالعارفون بها قلة ، ونشرها يلقى مقاومة عنيدة ، خصوصًا من جهة المتدينين .

من أجل ذلك رأيت لفت النظر إلى أن وظيفة ربة البيت من أشرف الوظائف .

وقد تخرج المرأة من بيتها وراء أعمال مشروعة ، بيد أن هذه الأعمال مهما سمت لا يجوز أن تجور على عملها الأول الذى لايشاركها فيه أحد . . !

وافدة النساء

روى ابن عبد البر فى كتابه الاستيعاب ، أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت النبى ﷺ فقالت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! أنا وافدة من النساء إليك . إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة ، فآمنا بك وبإلهك ، إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم ، وإنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمع ، والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل !! وإن أحدكم إذا خرج حاجًا أو معتمرًا أو مجاهدًا ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفنشارككم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبى إلى أصحابه بوجهه كله ، ثم قال : «**هل سمعتم مسألة امرأة قط أحسن مسألة فى دينها من هذا ؟**» . . فقالوا يا رسول الله ، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا ! فالتفت النبى ﷺ إليها وقال : «**افهمى أيتها المرأة وأفهمى من خلفك من النساء ، إن حسن تبعل المرأة لزوجها - يعنى قيامها بحقه وإحسانها لعشرته - وطلبها مرضاته واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله**» . . !!

ميادينها..

على أن هناك ميادين للأعمال لابد أن يكثر فيها النساء ، أولها الميدان الطبى ، فيجب أن تكون هناك طبيبات ماهرات فى كل ناحية من نواحى الطب ، والأشعة ، والصيدلة ، والولادة والتمريض . .

ثم ميدان التدريس لجميع المراحل دنياها وعلياها .

■ **الدين ينشد الصون والاحتشام والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء .**

■ **القول بأن المرأة أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام .**

ولا يجوز أن يوصد باب من أبواب المعرفة أمام النساء إلا أن يكون لأسباب فنية ومواصفات خاصة .

عندئذ ينطبق التخصص على الرجال والنساء جميعًا ، فيوجه كل واحد إلى ما يناسب قدرته ، وخبرته .

إن النساء فى عالم الكفر الشيوعى يغزون الفضاء فلا يسوغ اجترار الإسلام ليمنع امرأة من علم تحسنه .

والنساء فى عالم التثليث يشتغلن بالتبشير والاستشراق فلا يسوغ تسخير الإسلام لمنع النساء من أعمال يجدنها ويجدين فيها .

المسافة المؤلمة...

الدين ينشد الصون ويؤثر الاحتشام والحضارة الحديثة تنشد التبرج وتدفع إلى الإغراء . . ومع ضعف اليقين وحب الحياة العجلة أخذ السعار الجنسى يشتد ويفرض رغائبه ، حتى فقد الاتصال الحرام دمامته وأمسى كأنه حاجة تلبى دون حرج كبير !

والدين يرفض أى خلوة بين رجل وامرأة ، والحضارة المعاصرة تتجاهل هذا الرفض . وهو يباعد بين أنفاس الرجال والنساء ، وهى تقرب بينهم فى الأعمال الجادة والهازلة . وكثيرًا ما تساءلت : لماذا تكون «للمدير» سكرتيرة خاصة ؟

لماذا تشتغل الفتيات بالخدمة فى الطائرات ، وحدهن ؟ يقضين فى الجو أو فى الفنادق ليلهن ونهارهن !!

لماذا تعرض المشروبات – فى ألواح الإعلانات وهى بين يد امرأة وفمها ؟! لماذا ؟! لماذا ؟! . .

إن النساء يحشرن فى أعمال كثيرة لا معنى لها . . وعندما نقرر أحكام الإسلام وتوجيهاته فإن ابتذال المرأة سيمنع للفور ، وسيكون عملها فى أى موقع مضبوطًا بآداب الشرع وحدوده . .

وظائف نصف الوقت..

ذلك ، ومن الصعب أن تكون المرأة ربة بيت متقنة ، وصاحبة منصب منتجة .



إن ذلك قد يقع على ندرة ، وأقترح أن تنشأ للنساء وظائف نصف وقت حتى تستطيع الزوجة القيام الحسن على شئون بيتها وأولادها . .

إن القول بأن المرأة هى التى أخرجت آدم من الجنة تزوير على الإسلام ، والزعم بأنها لا تزال تقوده إلى النار تزوير كذلك .

والتصور الإسلامى كما أثبته القرآن الكريم فى سورة آل عمران ١٩٥ ﴿ **لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ** ﴾ .

إننى غيور على الأعراض كأشد المتزمتين ، ولكن الحفاظ على العرض لا يتم بعقلية السجان .

فالبون بعيد بين تكوين العقل والضمير بالعلم والتقوى ، وبين حبس الأجساد فى قفص من حديد . والإسلام قاد المرأة إلى المسجد لتسمع الدرس ، وتسجد لربها ، وبذلك صقل روحها وفكرها ، وفى المسجد كانت ترى الإمام وربما علقت على ملابسه . . وكانت ترى المدرس وربما ناقشت ما يقول .

أما عقلية السجان فأساسها أن المرأة لا ترى ولا ترى ، وإذا كان المسجد مظنة ذلك ؛ فلا ذهاب إلى المسجد ، وهذا هو الإسلام فى فلسفة السجان .

والحكم هو كتاب الله وسنة رسوله أولاً وأخيرًا . . والمشكلة تجىء من طريق فهم البعض للنصوص والآثار . .

خط وسط..

بين الإفراط والتفريط خط وسط نريد التعرف عليه والتزامه ، وهو خط لا يتطابق مع وضع المرأة الإسلامية فى أغلب المجتمعات ، وكذلك لا يتطابق مع تقاليد الفرنجة التى تستمد من وثنية الرومان ومن فلسفة الإغريق .

إن أفلاطون فى مدينته «الفاضلة» يجعل المرأة مشاعًا بين الآخرين ، فما تكون إذن المدينة الدنسة ؟

على أن عقلية السجان هى الأخرى لا تقيم أمة راقية الفكر زاكية القلب .

وتعاليم الإسلام الصحيحة هى الأمل فى بناء عالم متراحم مصون .

فلسفة الصوم

الصيام عبادة مستغربة أو منكورة فى جو الحضارة المادية التى تسود العالم . إنها حضارة تؤمن بالجسد ولا تؤمن بالروح ، وتؤمن بالحياة العاجلة ولا تكترث باليوم الآخر! ومن ثم فهى تكره عبادة تقيد الشهوات ولو إلى حين ، وتؤدب هذا البدن المدلل وتلزمه مثلاً أعلى . .

إن الأفراد والجماعات فى العالم المعاصر تسعى راغبة لتكثير الدخل ، ورفع مستوى المعيشة ، ولا يعنيها أن تجعل من ذلك وسيلة لحياة أزكى . . !

وتسارع إلى تبرئة الدين من حب الفقر ، وخصومة الجسم ، فالغنى سر العافية ، والجسم القوى نعم العون على أداء الواجب والنهوض بالأعباء ، وإنما نتساءل : هل يتعامل الناس مع أجسامهم على أسلوب معقول يحترم الحقائق وحدها ؟

يقول علماء التغذية : إن للطعام وظيفتين ، الأولى : إمداد الجسم بالحرارة التى تعينه على الحركة والتقلب على ظهر الأرض ، والأخرى : تجديد ما يستهلك من خلاياه وإقداره على النمو فى مراحل الطفولة والشباب .

حسنًا ، هل نأكل لسد هاتين الحاجتين وحسب ، إن أولئك العلماء يقولون : يحتاج الجسم إلى مقدار كذا وكذا من «السعر الحرارى» كى يعيش والواقع أنه إذا كان المطلوب مائة سعر فإن الأكل لا يتناول أقل من ٣٠٠ سعر ، وقد يبلغ الألف !!

الطعام وقود ، لابد منه للآلة البشرية والفرق بين الآلات المصنوعة والإنسان الحى واضح . . فخزان السيارة مصنوع من الصلب ليسع مقدارًا معينًا من النفط يستحيل أن يزيد عليه ، أما المعدة فمصنوعة من نسيج قابل للامتداد والانتفاخ يسع أضعاف ما يحتاج المرء إليه . .

الرغبة القاتلة

وخزان السيارة يمدها بالوقود إلى آخر قطرة فيه إلى أن يجىء مدد آخر .

أما المعدة فهى تسد الحاجة ثم يتحول الزائد إلى شحوم تبطن الجوف ، وتضاعف الوزن ، وذاك ما تعجز السيارة عنه ، إنها لا تقدر على أخذ «فائض» ولو افترضنا فإنها

لا تقدر على تحويله إلى لدائن تضاف إلى الهيكل النحيف فيكبر أو إلى الإطارات الأربعة فتسمن !!

الإنسان كائن عجيب ، يتطلع أبدًا إلى أكثر مما يكفى ، وقد يقاتل من أجل هذه الزيادة الضارة ، ولا يرى حرجًا أن تكون بدانة فى جسمه ، فذاك عنده أفضل من أن تكون نماء فى جسد طفل فقير ، أو وقودًا فى جسد عامل يجب أن يتحرك ويعرق !!

كان لى صديق يكثر من التدخين ، نظرت له يومًا فى أسف ، ثم سمعنى وأنا أدعو الله له أن يعافيه من هذا البلاء ، فقال ـ رحمه الله فقد أدركته الوفاة ـ (اللهم لا تستجب ولا تحرمنى من لذة «السيجارة») .

ولم أكن أعرف أن للتدخين عند أصحابه هذه اللذة ، فسكت وقد عقدت لسانى دهشة .

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يعرف ما يضره ، ويقبل عليه برغبة . . إنها الرغبة القاتلة !!

على أن النفس التى تشتهى ما يؤذى يمكن أن تتأدب وتقف عند حدود معقولة ، كما قال الشاعر قديمًا :

والنفس راغبة إذا رغبتها　　　وإذا ترد إلى قليل تقنع

عندما نصوم حقًا

وهنا يجىء أدب الصيام : إنه يرد النفس إلى القليل الكافى ، ويصدها عن الكثير المؤذى ! ذاك يوم نصوم حقًا ، ولا يكون الامتناع المؤقت وسيلة إلى النهام مقادير أكبر كما يفعل سواد الناس !!

لعل أهم ثمرات الصوم إيتاء القدرة على الحياة مع الحرمان فى صورة ما . . .

كنت أرمق النبى ﷺ وهو يسأل أهل بيته فى الصباح ، أثم ما يفطر به ؟ فيقال : لا! فينوى الصيام ، ويستقبل يومه كأن شيئًا لم يحدث . . .

ويذهب فيلقى الوفود ببشاشة ، ويبت فى القضايا وليس فى صفاء نفسه غيمة واحدة وينتظر بثقة تامة رزق ربه دونما ريبة ، ولسان حاله : ﴿ **فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا** ﴾[1] .

---

(١) الشرح : ٥، ٦ .

إنها لعظمة نفسية جديرة بالإكبار أن يواجه المرء البأساء والضراء مكتمل الرشد ، باسم الثغر . والأفراد والجماعات تقدر على ذلك لو شاءت !

وأعتقد أن من أسباب غلب العرب فى الفتوح الأولى قلة الشهوات التى يخضعون لها ، أو قلة العادات التى تعجز عن العمل إن لم تتوافر .

يضع الواحد منهم تمرات فى جيبه وينطلق إلى الميدان ، أما جنود فارس والروم فإن العربات المشحونة بالأطعمة كانت وراءهم ، وإلا توقفوا . .

شريعة الصوم فوق هذا . .

وتجتاح الناس بين الحين والحين أزمات حادة تقشعر منها البلاد ، ويجف الزرع والضرع ، ما عساهم يفعلون ؟ إنهم يصبرون مرغمين ، أو يصومون كارهين وملء أفئدتهم السخط والضيق . . وشريعة الصوم شىء فوق هذا ، إنها حرمان الواجد ، ابتغاء ما عند الله ! إنها تحمل للمرء منه مندوحة - لو شاء - ولكنه يخرس صياح بطنه ، ويرجئ إجابة رغبته مدخرًا أجر صبره عند ربه ، كيما يلقاه راحة ورضًا فى يوم عصيب . . ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ** ﴾[1] .

وربط التعب بأجر الآخرة هو ما عناه النبى ﷺ فى قوله : «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» !

إن كلمتى «إيمانًا واحتسابًا» تعنيان جهدًا لا يستعجل أجره ، ولا يطلب اليوم ثمنه لأن باذله قرر حين بذله أن يجعل ضمن مدخراته عند ربه . . نازلاً عند قوله : ﴿ **ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا** ﴾[2] !!

وسوف يجد الصائم مفطرين لا يعرفون للشهر حرمة ولا لصيامه حكمة ، إذا اشتهوا طعامًا أكلوا ، وإذا شاقهم شراب أكرعوا . . ماذا يجدون يوم اللقاء ؟

إنهم سوف يجدون أصحاب المدخرات فى أفق آخر ، مفعم بالنعمة والمتاع ، ويحدثنا القرآن الكريم عمن أضاعوا مستقبلهم فيقول : ﴿ **وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ۝٥٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾[3] .

---

(١) هود : ١٠٣ . (٢) النبأ : ٣٩ . (٣) الأعراف : ٥٠ ، ٥١ .

الأمم لا تقام بالهمهمة والبطالة

● أكد الشيخ محمد الغزالى أن مشرط الطبيب ، ودواء الصيدلانى ، وفأس الزارع ، وقلم الصحفى أدوات لنصرة الله سبحانه وتعالى وإعلاء لكلمته . وفى مجال التأمل فى الآية الكريمة ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ** ﴾[1] .

قال فضيلة الشيخ الغزالى : إنه من المستحيل إقامة مجتمع ناجح الرسالة إذا كان أصحابه جهالاً بالدنيا . . عجزة فى الحياة .

ويضيف فضيلته أن العبادة السماوية لا تستغرق نصف ساعة على مدى يوم وليلة . . تعاليمها تحتل صفحة أو صفحتين ليبقى الزمان بعد ذلك واسعًا والمجال رحبًا لفهم الحياة ، واكتشاف طاقاتها ، وتسخيرها «كلاً وجزءًا» لخدمة الدين ، وضرب مثلاً فقال إن نفرًا من العابدين رأوا أن يحصروا عبادتهم فى الصلوات والأذكار يبدءون ويعيدون ويظنون أن الأمم تقام بالهمهمة والبطالة ، فمن ينصر الله ورسله إذا كان أولئك جهالاً بالحديد وأفرانه ومصانعه . . والله يقول فى كتابه العزيز ﴿ **وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾[2] .

إن هناك سبعين صناعة مدنية وعسكرية تتعلق بالنفط والانتفاع بمشتقاته لا نعرف عنها شيئًا فهل تخدم عقيدة التوحيد وما ينبغى أن ينبنى عليها بهذا العجز المهين .

ويتعجب فضيلته ممن يزعمون الإيمان والجهاد قائلاً إن الله لا يقبل تدينًا يشينه هذا الشلل المستغرب ، مشيرًا إلى أننا نعانى من الطفولة التى تجعل غيرنا يطعمنا ، ويداوينا ، ويمدنا بالسلاح إذا شاء . وينصح الشباب الذين يظنون أن التقوى هى بذل وقت أكبر فى القراءات الدينية ، والأخذ بقدر يسير فى شئون الدنيا وعلوم الحياة فيقول «الإسلام لا يكسب خيرًا من هذا المسلك ، ولا تنتصر عقائده إذا كان أهله فى بلاهة الهنود الحمر ، وكان أعداؤه يملكون مكوك الفضاء .

ويقول للشباب املكوا ناصية الحياة بعلم واقتدار ، لتقدروا على نصرة الحق الذى نعتنق أما قبل ذلك فهيهات .

---

(١) الأنبياء : ٩٤ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

فضيلة الشيخ محمد الغزالى داعية إسلامى معروف فى كل أرجاء العالم الإسلامى تميز بمشاركته وحضوره معظم المؤتمرات والندوات التى تخص المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، وله العديد من المؤلفات والمحاضرات التى تعالج أمور المسلمين وتحثهم على استخدام العقل وتدعوهم إلى العودة أمة واحدة كما كانوا من قبل ، كما أن له العديد من المناظرات والكتب التى تفند افتراءات العلمانيين على الإسلام .

التقينا بفضيلته فكان هذا الحوار المفيد :

حوار أجراه الطيب أديب .

الشيخ الغزالى فى حديثه للخيرية :

العلمانيون ارتدوا عن الإسلام

- **العالم الإسلامى يجب أن يكدح لينجح .**
- **الحاكم صورة للشعب وعلى الشعب أن يتشبث بالإسلام ليعيش حرًا .**
- **ما مناهج التغيير فى الفكر الحركى الإسلامى ؟**

■ الدعوة الإسلامية تعتمد على الإقناع وكل ما يمكن به توصيل الفكر إلى الناس فهو وسيلة حسنة ما دامت مشروعة ولا عنف فيها ولا شطط ، وليس فيها ما يمكن أن يؤخذ على الإسلام ، الذى يهمنا الخير يوصل إليه بالوسائل الخيرة أكتبُ ، أخطب ، أدعو بالطريق الإذاعى الصحافى إلخ . . من حقى أن أدرس أو أحاضر ، وهذا هو المنهج الذى يجب أن أسير فيه بالإقناع وبالدليل العقلى .

● هناك صراع دام فى بعض الأقطار الإسلامية بين متبنى المشروع الإسلامى ، وبين الحكومات ، كيف ننهى هذا الصراع لصالح الأمة ؟

■ الذين يعترضون الإسلام كما حدث فى العهد الأول ، اعترض الفتانون والمشركون اعترضوا الدعوة الإسلامية ، وحاربوا الرسول وصحبه ، صمد المسلمون وظلوا على أسلوبهم فى نشر الدعوة بالإقناع وبالتعريف العقلى حتى استطاعوا أن يصلوا فى النهاية إلى النتيجة ، ولابد من طول الأخذ والرد والزمن جزء من العلاج .

● يعانى العالم الإسلامى من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية خانقة . . كيف يخرج من هذه الأزمات؟

■ العالم الإسلامى يجب أن يكدح لكى ينجح ، وإذا كان المسلمون فى حالة استرخاء أو كسل فلا بد أن يعاقبهم القدر ؛ ولذلك على الفلاح المسلم أن يضاعف فلاحته لأرضه حتى يجود الثمر ويتضاعف ، وعلى الذين يعملون فى كل ميدان أن يكدحوا ويعملوا وللأسف المأخوذ عن العرب والمسلمين أن يوم العمل عندهم ما بين ثلث الساعة أو نصف الساعة ، بينما يوم العمل فى أوروبا وأمريكا واليابان ثمانى ساعات .

– أما سياسيّاً فالحاكم صورة للشعب فإذا كان الشعب يريد أن يكون حرّاً ليعيش فى عزة الإسلام فعليه أن يتشبث بالإسلام ولا يترك منه شيئًا .

● تطبيق الشريعة الإسلامية فى بعض الأقطار الإسلامية ، هل هو هدف حركى استراتيجى ؟

■ نعم ، لأن الاحتلال العسكرى الأجنبى أول ما دخل أوقف التعامل بالشريعة الإسلامية ، فنحن نحاول أن نعود إلى ما وصلنا إليه ، وهو أن يحكم بما أنزل الله فى بلاد الأمة الإسلامية كلها !

● يقولون إن الإسلاميين إذا سيطروا على السلطة فى أى بلد يتقاتلون فيما بينهم بدليل ما يجرى فى أفغانستان ، فما رأيكم ؟

■ ما يجرى فى أفغانستان شذوذ ، ومنذ خمسة عشر قرنًا من الزمان . . والأمة الإسلامية تعيش فى أرضها تحت حكم الله وتطبيق القرآن والسنة وهم هادئون ، فالشذوذ لا يحكم به على تاريخ أمة !

● فضيلتكم لكم باع طويل فى الرد على افتراءات العلمانيين على الإسلام فما حقيقة هؤلاء الناس ؟

■ هؤلاء الناس ارتدوا على الإسلام فعلاً ، ولو كان ارتدادهم سلبيّاً وبقوا فى بيوتهم ما اقتحمنا عليهم بيوتهم ، ولا حاولنا معاقبتهم ، لكنهم يريدون أن ينطلقوا فى الشوارع ليصدوا الناس عن سبيل الله فهم يحاربون الصلاة وهم يشجعون العربدة والسكر ، وهم يريدون أن يترك المسلمون دينهم فى مجالات الإصلاح والتربية والتعليم والإعلام وما إلى ذلك ، هؤلاء أعداء الإسلام فلا بد أن نكشف وجوههم ، نعرف حقائقهم ونعترض طريقهم !

● هناك مد تبشيرى وصليبى فى بعض البلدان الإسلامية ، فهل هناك خطة من العاملين فى الحقل الإسلامى لعرقلة هذا المد ؟

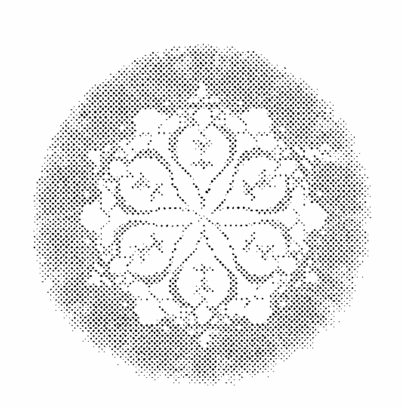
■ الإسلاميون فى نطاق جهدهم المحدود يقفون أمام التبشير والاستعمار العالمى ، وإلى الآن استطاعوا أن يقدموا للإسلام خدمات كثيرة فى ميادين شتى ، ولكن الجهد لابد أن يتضاعف لأن الهجوم يزداد !

● كيف يقيم المسلمون وحدتهم فى ظل النظام العالمى الجديد ؟

■ الوحدة الإسلامية تتم وتكتمل عندما تتم فى كل بلد إسلامى العقيدة الإسلامية والشريعة الإسلامية ، لأن المسلمين يشعرون بأخوتهم العالمية ، ويعرفون أن تقطيع الأمة الإسلامية على الهدف الذى تم ، هو هدف استعمارى ، فإذا عاد المسلمون لدينهم فإن هذه الخطوط الوهمية التى رسمها الاستعماريون بين دولة وأخرى ستتلاشى بطبيعتها !

● نصيحة من فضيلتكم للشباب المسلم !

● على الشباب المسلم أن يتشبث بدينه مهما فدحت المغارم ، وكثرت العوائق ، وأن يتشبث بدينه ولا يفقد وعيه ولا فكره فى الشدائد والأزمات ، بل يظل يتصرف بعقل ولا يعطى عدوه فرصة للنيل منه .



في حوار هادف وبناء: مع الداعية الإسلامى فضيلة الشيخ «محمد الغزالى».

- ■ حقل الدعوة الإسلامية مفروش بالأشواك، ومملوء بالألغام.
- ■ الحروب الصليبية ضد العالم الإسلامى لم تنته، ولن تنتهى!
- ■ يستحيل على المسلمين أن ينتصروا إذا خانوا الانتماء السماوى.
- ■ أناشد المسئولين فى العالم الإسلامى أن يتيحوا الفرصة للدعاة لكى يقولوا كلمتهم، ويعيدوا المسلمين إلى صوابهم.

حوار أجراه : محمد عبد الشافى القوصى/ القاهرة

تظل القدس - رغم كل التحديات الدولية - هى قضية المسلمين الأولى حتى تعود القدس إلى حظيرة الإسلام ، فها هى جماهير المسلمين على امتداد قارات العالم فى حنين إلى فلسطين لا ينقطع ، وشوق إلى طلائع النصر لا يتوقف ، وآمال تموج فى القلوب لا تهدأ ، وأجفان وقلوب تعلقت بالمسجد الأقصى .

كيف لا ؟! وهى أرض باركها الله ، وجعلها حقّاً خالصًا للإسلام وأهله ، أمانة فى أعناق المسلمين إلى يوم القيامة ، يحاسبون كلهم على مدى الوفاء بها . . لقد كان المسجد الأقصى هو القبلة الأولى للمسلمين قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة ، وإليه أسرى الله بعبده محمد ﷺ ، ومنه عرج به إلى السماء . . والمسجد الأقصى هو فى الأرض المقدسة التى باركها الله . . فهى أرض المحشر والمنشر . . وهى ملحمة الجهاد الإسلامى على مر التاريخ .

وفى هذا اللقاء مع الداعية الإسلامى فضيلة الشيخ محمد الغزالى . . نستلهم رؤية حول هذه القضية ومستقبلها ، وما هو واجب المسلمين الآن نحو تحرير فلسطين وأرضها . . وغير ذلك من التساؤلات الأخرى .

وجاء الحوار مع - فضيلته - على النحو التالى :-

القضية خطيرة جدّاً

● بداية . . هل تعتقد - فضيلتكم - أن قضية فلسطين ما زالت هى قضية المسلمين الأولى . . ؟!

- هذه القضية - أعنى فلسطين - خطيرة للغاية ، حيث إن الهزيمة فيها سوف تنتهى بهزيمة الإسلام ، وتحويل المسجد الأقصى المبارك إلى هيكل - كما يزعم اليهود هيكل سليمان - ينزل فيه الرب - بزعمهم - ليحكم العالم عن طريق شعبه المختار ، ونجد تأييد «البروتستانت» وجماهير المسيحيين لهذا العمل بغية القضاء على الإسلام والمسلمين .

إذن ، فالقضية هى قضية الإسلام بيقين ، ولا بد أن يحشد المسلمون قواهم فيها ، والمسلمون إلى الآن بعد انتشار النزعات القديمة وانشغال كل فريق بعنصريته ووطنيته بعيدون كل البعد عن هذه القضية .

إن القضية خطيرة جداً ، وهى الآن تعيش تحت عنوان العلمانية ، وهى جريمة فى ذاتها شنعاء للأمة الإسلامية ، وعلى الإسلاميين أن يرقبوا الموقف بحذر فإن الإسلام يستحيل أن ينصره الله - عز وجل - إذا خان المسلمون الانتماء السماوى .

وما زلت أكرر . . إن قضية فلسطين خطيرة ، ولا بد من المضى فيها إلى آخر رمق .

الأقدار هى التى تحرس المسجد الأقصى !

● وما رأيكم فيما يحدث الآن بالمسجد الأقصى ، من منع الصلاة فيه ، والحراسة اليهودية الدائمة ؟

- أجاب القرآن عن هذا التساؤل فقال : ﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا** ﴾[1] .

وأعمال اليهود بأذى المسجد الأقصى شديدة الخطورة ، وتصورهم تصور مظلم للعرب والمسلمين جميعًا ؛ لأن اليهود لا يمنعون الصلاة فحسب ، بل يعدون العدة لهدم المسجد وبناء هيكل سليمان «المزعوم» ، وهم يصرحون بذلك دون حياء ، وقد تمت عدة محاولات لتنفيذ هذه الجريمة ، لكن الأقدار التى تحرس حرمات الله حالت دون إنفاذها . . والغريب أنه فى العصر القديم فى سفر «حزقيال» ادعاء ببناء الهيكل على نحو معين استغرق الوصف فيه قرابة صفحتين !!

(١) البقرة : ١١٤ .

وإذا تم لليهود ما يؤملون فسوف يكونون سادة العالم أجمع ، وسيكونون الأداة التى يستغلها ساكن الهيكل وهو الله سبحانه وتعالى فى سياسة المشرق والمغرب !

حلم اليهود !

● هل معنى ذلك أن قضية المسجد الأقصى تدخل ضمن المزايدات السياسية فى عرف البروتوكولات الدولية ؟!

– إن قضية فلسطين منذ بداية التاريخ قضية دينية ، فكون سكان بيت المقدس أكراد أو هنود ، فإن القضية لا تتغير ، فالقضية التى يحكى التاريخ أطوارها منذ بدء إنشاء أورشليم ، و«شليم» هو «سليم» كما ينطق اليهود موسى «موشى» .

وظل بيت المقدس يتداول بين اليهود والفاتحين عدة قرون ، ثم آل إلى العرب منذ خمسة عشر قرنًا إلى هذا اليوم ، وربما استطاع الفرنجة أن يستولوا عليه نحو ٩٠ عامًا ، لكن المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبى استردوا القدس فى معركة «حطين» التاريخية المشهورة .

والحرب الصليبية لم تنتهِ حتى الآن ، وإن زعم المارشال «اللنبى» كاذبًا أنها انتهت بسيطرة الإنجليز على فلسطين ، وفقدان المسلمين لحكم بيت المقدس ، ﴿ **وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ** ﴾[1] .

وحلم اليهود أن يستولوا على بيت المقدس ليمتد من النيل إلى الفرات ، وليس هذا فحسب ، بل إنهم يريدون أن يستعبدوا العالم أجمع .

وهذا الحلم هو محصلة نبوءات كثيرة فى كتبهم الدينية ، ومن هنا قال «وايزمان» : إن «بلفور» عندما أعطانا وعد تملك فلسطين كان يترجم فى العهد القديم ؛ لأن «البروتستانتى» يرى أن العهد القديم واجب النفاذ !

و«بلفور» كان رجل دين أولاً ، ثم رجل سياسة ثانيًا ، وهذه معلومة لا يفهمها كثير من الناس . . ولكن المسلمين ما زالوا فى نوم عميق !

معارك الجدل . . متى تنتهى ؟!

● الداعية الإسلامى الكبير خاض معركة التحدى وعلاج أمراض الصحوة . . فهل يمكنكم أن تحددوا لنا ما أمراض الصحوة الإسلامية . . وما وسائل وأساليب علاجها ؟!

---

(١) آل عمران : ١٤٠ .

- لا يستطيع المسلمون أن يقصروا دينهم فى معركة البقاء المحتدمة بين شتى الملل والنحل ، أو بين الإسلام من ناحية ، والعداوات التقليدية والمحدثة التى تواجهه الآن ، إلا إذا كان الإسلاميون على مستواه ، ومعدين كل ما تطلبه المعركة من إمكانات لكى يكسبوها ، والمسلمون الآن يواجهون هزائم اقتصادية لا يستطيعون إنكارها ، فهم بحاجة إلى رغيف العيش الذى يقدمه لهم أعداؤهم ، فكيف ننتظر من الصليبية العالمية أن تطعمنا من جوع ثم نعلن الحرب عليها ، ونحن متخلفون اقتصادياً على هذا النحو الشائن؟!

المسلمون فى معركة الحضارة ليس لهم إنتاج صناعى ، ولو بحثت ما وجدت حاملة طائرات ولا غواصة إسلامية ، فما الحل إذا قرنا إقامة الدولة ثم هزمنا من يملكون السطوة فى البر والبحر والجو ، ألسنا بهذا نكون قد دخلنا بالإسلام فى معركة الهزيمة فيها محققة .

ولماذا لا يشتبك المسلمون فى معارك مع أنفسهم ، وأخلاقهم ، وتقاليدهم ، وهى مليئة بالخلل والعوج وأنواع الشرور المختلفة ؟!

إن أركان النفاق : الخيانة والكذب والغدر والعنف ، فهل اختفت من مجتمعنا أو أخلاقنا أو تقاليدنا . . إن العمل للنفس الإنسانية للظهور أو لتحقيق الذات هو الوثنية الجديدة التى شاعت بين الناس ، ربما دخل المسلمون فى معارك من الجدل ينقسمون فيها فرقًا متقاتلة ، ولا تزال هذه الفرقة موجودة حتى بين فصائل المجاهدين ، ولا يزال الفلسطينيون نحو عشرين حزبًا منها ما يبعد الإسلام ، أو ما يبقيه ، أو يستضيفه ضيفًا ثقيلاً !

تصحيح الأوضاع..

فلماذا لا توجه الجهود إلى تصحيح الأوضاع الداخلية والنفسية ، وهناك أخطاء كثيرة فى الفكر الإسلامى ، إننا نظن أن العمل الصالح هو التلاوة والاستغفار والفكر وانتهى الأمر .

العمل الصالح فى تسخير البر والبحر ، وتطويع شتى المعادن والثروات لخدمة الإسلام وإعلاء شأنه ، إننا أصفار فى هذه الميادين ، عندما نرى مهندسًا عظيمًا كذى القرنين يبنى السدود العسكرية ، ويقيم الحصون المسلحة دون استدعاء خبير أجنبى ؛ لأنه يرى أن الصلاح والقدرة على هذه المادة فى الكون المسخر لنا ، وتطويع هذا الكون لخدمة الإسلام ، إننى أرى لغطًا عجيبًا بين الإسلاميين حول سلف وخلف وحول بعض المعارك الفقهية التافهة وغيابًا للوجود الإسلامى فى ميادين يستحيل أن ينتصر الإسلام إلا بالاستمكان فيها ، فأين الصحوة الإسلامية فى كل هذه الميادين ؟!

نظرة للمستقبل..

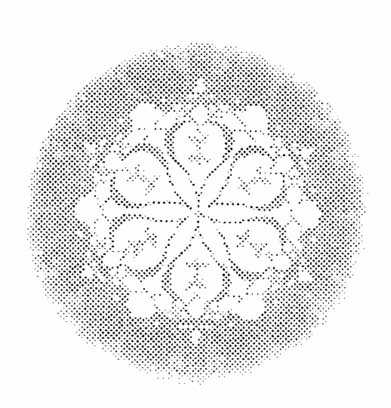
● أستاذنا الجليل الشيخ الغزالى . .ما تقييمكم للحالة التى يمر بها العالم الإسلامى الآن بعد تلك الضربات الخارجية والطعنات الداخلية التى يتعرض لها من هنا وهناك . . ؟!

- الإسلام الآن يعانى من هبوط حاد فى قلبه وأطرافه ، لكننى على يقين من أن هذا الهبوط لن يستمر ، وسوف يرتفع الخط البيانى للإسلام مرة أخرى . . ولكن لا بد من العمل المخلص للإسلام ، ولا بد من الصبر على مواجهة الصعاب والعقبات التى توضع فى طريق الإسلام ودعوته .

ولذا أتقدم بالنصح لقادة العمل الإسلامى أو المشتغلين بالصحوة أن يعيدوا جسور الثقة مع كل عناصر المجتمعات التى يعيشون فيها ، حتى يستطيعوا أن يقدموا دعوتهم للناس ويتغلبوا على المصاعب التى تواجههم ، لأن الإسلام دعوة تقوم على الحوار والإقناع ، وأن يعلنوا رفضهم لكل أساليب القتل والتدمير والتخريب التى تسند إلى بعض التيارات الدينية .

أيضًا أوجه كلمة أخيرة إلى المسئولين فى البلاد الإسلامية ، والذين يضعون العراقيل أمام جهود الدعوة ، لا بد أن تفرقوا بين الذين يتحاورون بالسلاح والذين لا سلاح لهم إلا الكلمة .

فالدعاة لا يفرضون أفكارهم على الناس تحت تهديد السلاح ، وإذا كانت أكثر الأنظمة فى البلاد العربية والإسلامية قد أتاحت الفرصة كاملة للعلمانيين والشيوعيين والملحدين ليعبروا عن آرائهم وينقلوا سمومهم للناس ، فيجب أن تتاح الفرصة كاملة للدعاة لكى يقولوا كلمتهم ، ويعيدوا المسلمين إلى صوابهم ، فنحن نرحب بمناخ الحرية ونرفض مصادرة الآراء والأفكار ، والإسلام وضع لنا قاعدة الحوار العاقل فى قوله عز وجل : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[1] .



(١) البقرة : ١١١ .

على المسلمين أن يدركوا فقه الأولويات

أكد الداعية الإسلامى الكبير فضيلة الشيخ «محمد الغزالى» أنه يجب على المسلمين أن يراعوا فقه الأولويات ، وأن يدركوا حجم التحديات التى تواجههم وتسعى لتدمير الأمة الإسلامية ، مما يتطلب ألا ينشغلوا بتوافه الأمور .

وأشار إلى أنه يجب على المسلمين أن يتوحد فكرهم الإسلامى ، وأن يتعاونوا فيما بينهم ، وألا يسعوا إلى التناحر أو الاختلاف بقدر سعيهم إلى التعاون لخدمة الإسلام والمسلمين .

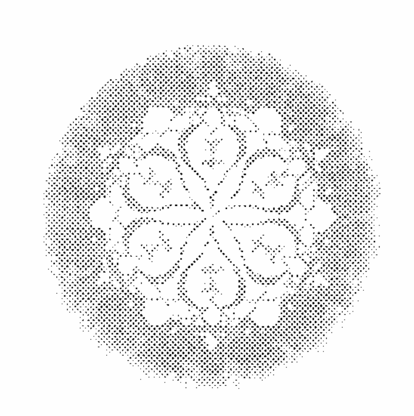
جاء ذلك فى الندوة التى نظمتها جمعية دعوة الحق بالقاهرة ، وطالب فضيلته المسلمين بأن يأخذوا العبرة من التاريخ ، وأن يتعلموا أولويات العمل الإسلامى . وقال : إن تاريخنا طويل ويحتاج إلى دراسة ، والإسلام دين تزيد شعبه على سبعين شعبة ، ونحن فى حاجة إلى خريطة لترتيب هذه الشعب حسب أهميتها ، حتى لا يأتينا من يدعى أن إماطة الأذى عن الطريق أهم من الصدقة !! وإن المسلمين الآن «يستسهلون» فالواحد منهم يريد أن يدخل الجنة بقشرة موز والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾[1] فهل تريد أن تنال ما يشترى بالنفس والمال وأنت تتثاءب !! وأضاف : إنه لابد للأمة أن تعرف ما هو مكروه ، وما هو مباح ، وهذا مثل الجسم البشرى فيه مخ ومخيخ وقلب وأجهزة كثيرة . . لكن هناك أجهزة إذا تعطلت لابد أن يموت الإنسان ، فلو أنك نزعت قلبه أو كبده لا بد أن يموت يقينا ، لكن لو قطعت إصبعه أو أزلت شعره سيعيش ، فلابد أن نفهم هذه الأولويات حتى لا نعرض الجسم كله للموت !! ويشير إلى أن الأمة الإسلامية تحمل أكثر من سبعين جنسية . . والإسلام يواجه مشاكل خطيرة فى هذا العصر ، وأعلم أن هناك قرى مسلمة فى الهند أرغمت على أن تعبد البقر ، وأن تدخل فى الهندوكية ، وأقاموا لهم محرقة فى المقابر لحرق الجثث ومنع الدفن ، ولم يتحرك أحد من المسلمين !!

ويؤكد أنه يجب على الجمعيات والهيئات العاملة فى حقل الدعوة الإسلامية أن تتجمع وتتعاون بدلاً من أن تتفرق وتتشاحن ، بسبب الاختلافات حول بعض

(١) التوبة : ١١١ .

النوافل ، فنحن لا نخشى على النوافل ، بقدر ما نخشى على المنهج لأن يضيع ، ونخشى على العقيدة لأن تنتزع بطرق غريبة ، فلنحافظ على القيم والأخلاق الإسلامية ، ونربى عليها أبناءنا ونحافظ على أن نكون مسلمين حقاً .

ويقول : إن الإسلام يحتاج إلى كياسة وسياسة ، وقد رأينا الرسول ﷺ يشطب اسمه من وثيقة صلح الحديبية حينما أصر الكفار على ذلك ، ولكن النتيجة كانت معه بعد صبر وتحمل ، ورضى أن يدخل مكة فى حماية كافر ، وبعد ذلك عاد فاتحًا ومنتصرًا ، فالدعوة تبليغ عن الله تعالى ، ولا بد أنّ الذى يبلغ عن الله سبحانه أن يكون على مستوى مناسب من الوعى والفهم والخلق والسماحة ، حتى لو جرح فى كرامته يتحمل فى سبيل الدعوة الإسلامية .



نقد الأحاديث فن لا مسلاة

لم يفزع علماء المسلمين من اعتراض يقيمه أحد الباحثين فى وجه حديث من الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ إذا كان هذا الاعتراض قائمًا على أساس علمى محترم .

وقد وجدنا أئمة الفقه الإسلامى الذين بنوا مذاهبهم على الكتاب والسنة يتوقفون فى قبول بعض الأحاديث لا لشىء إلا لأنهم ينقدون سندها أو متنها نقدًا مؤسسًا على التعمق لا التعنت ، والدراية لا الدعوى .

ونقد السند يعتمد فى لبابه على معرفة الرجال وأحوالهم ، وهو ما تكفل به علم الجرح والتعديل .

وقد كان لهذا العلم أساطينه فى عصور خلت ، أما اليوم فإن خبراءه انعدموا ، أو بقى منهم نفر لا يبلغون أصابع اليد عدًا .

وتراث الأوائل فى هذا المجال حقيق بالدراسة الواعية ، وهو مرآة لجهود جليلة فى غربلة الأخبار وفحص نقلتها . .

أما نقد المتن فقوامه مقاربة الحديث المنقول بما صح من نقول أخرى ، والنظر إليه على ضوء ما تقرر إجمالاً وتفصيلاً فى كتاب الله وسنة رسوله . .

وقد استباح بعض القاصرين لأنفسهم أن يردوا بعض السنن الصحاح ؛ لأنهم أساءوا فهمها فسارعوا إلى تكذيبها دون تبصر . .

أذكر أن رجلاً جاءنى يومًا يتهم أحد الخطباء بالكذب على رسول الله ﷺ ، فقلت له : ماذا نسب إلى صاحب الرسالة ؟ .

فقال : زعم أن النبى عليه الصلاة والسلام كان فى بيته ، فجاء أحد الناس يريد الدخول ، فقال عنه قبل أن يدخل : بئس أخو العشيرة هو .

فلما دخل تطلق فى وجهه ، وألان له الكلام حتى انصرف .

فراجعته السيدة عائشة فى ذلك ، كيف وصفه أولاً بما قال ، ثم كيف لاطفه حتى صرفه . قال لها : يا عائشة متى عهدتنى فاحشًا ، إن من شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه .

قلت للرجل : وما وجه الكذب على رسول الله ﷺ فى هذا الحديث ؟ فقال : إنه يتهم الرسول بالنفاق .

فقلت له أخطأت الفهم ، إن النفاق شىء ومداراة السفهاء شىء آخر .

النفاق رذيلة أساسها ضعف الشخصية ، والتلون مع الناس وعدم الارتباط بالقيم الثابتة ، أما مداراة السفهاء ففضيلة أساسها الضن بالكرامة والوقت أن يضيعا مع أحمق لا يحسن الخطاب ولا السماع ! . وكم فى الناس من أدعياء لا تنقصهم الجراءة والسلاطة لو تنزل المرء إلى مستواهم لأزرى بعقله وخلقه فما بدٌّ من سد أفواههم حتى لا ينسكب منها ما يؤذى والحلم ندام السفيه كما يقولون . . .

الحديث صحيح يا أخا العرب ، ولا تسارع إلى تكذيب ما لم تحط به خبرًا . .

وكتب السنة المعتبرة فى ثقافتنا التقليدية مليئة بالأحاديث الصحيحة والحسنة ، وفيها كذلك الضعيف الذى كشف العلماء علله .

وعندى أن المشكلة الأولى ليست فى ميز الصحيح من الحسن ، والحسن من الضعيف . بل فى فهم الحديث على وجهه ، وترتيبه مع غيره من السنن الواردة .

وهذا هو عمل الفقهاء وجهدهم الكبير .

على أن من حقنا أن نغضب لتطاول البعض دون بصيرة علمية على أصول الإسلام ، ومصادر ثقافته .

والجرى وراء الاستعمار الثقافى فى التطويح بالسنن ، والتهوين من رجالها ، والسنة هى الاستحكامات الخارجية حول أسوار القرآن ، فإذا تم تدميرها فدور القرآن آت بعدها وذاك أمل المستشرقين المبشرين وسائر أعداء الدين . .

ومن خصائص الإسلام أن أصوله العلمية ظفرت بصيانة فريدة أبقتها إلى آخر الدهر مستعصية على التبديد والتحريف .

فالقرآن منذ نزل من عند الله حتى هذه الساعة محفوظ من أول حرف فيه إلى آخر حرف منه . . . تتوارثه القرون بطريق التواتر ، وهو طريق فوق الشك والريبة ، إذ هو مجىء الخبر عن طريق جموع يحكم العقل باستحالة تواطئها على الكذب .

ونستطيع القول بأن القرآن هو الكتاب الفذ الذى حبته العناية العليا هذه الخاصة ، وليس بين أيدى الناس كتاب من الأرض أو من السماء حصنته كل هذه الضمانات . . .

ثم هناك السنة وهى المصدر الثانى لتعاليم الإسلام .

وقد لقيت هى الأخرى من عناية الأمة الإسلامية ما يجعلها مستيقنة فى الجملة .

ولما كان بعض الناس ضعيف الدراية بطبيعة هذا المصدر فنحن نشرحه بكلمات وجيزة . . .

ونسارع إلى القول بأن التاريخ لم يحك عن أمة من الأمم أنها احتفت بآثار نبيها ، واستقصتها وغربلتها ، ووضعت أدق القوانين العلمية لقبولها ، مثل ما فعل المسلمون بتراث محمد من قول وفعل وقضاء وتقرير .

وليس فى دين من الأديان ، ولا مذهب من المذاهب هذا الوزن العجيب للأسانيد والمرويات ، وهذه المحاكمة المنصفة لما ينقل عن صاحب رسالة . . .

من السنة ما هو متواتر لا يقل فى ثبوته عن القرآن الكريم نفسه كهيئات الصلاة مثلاً .

ومنها ما هو متواتر المعنى أى أن النقول تجىء بوقائع شتى ، وألفاظ متفاوتة ، ولكن ينتظمها جميعًا قدر مشترك من المعانى . .

ومنها ما جاء بأسانيد آحاد .

والإسناد - وإن شاع الجهل به الآن - إلا أنه شىء خطير فى حقيقته وأثره . ولذلك قال العلماء : الإسناد من الدين ولولاه لقال من شاء ما شاء !!

وذلك أن المسلمين متفقون على أن ما أمر به الرسول أو نهى عنه يجب أن نطيعه فيه . فذاك حقه بل حق الأنبياء كلهم : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾[1] .

والاجتهاد بين الناس إنما يحدث فى معرفة هل قال الرسول ﷺ ذلك أو لم يقله . .

ولا شك أن العقائد كلها ، وجمهرة الأحكام التى هى عماد الدين بلغت الناس بطرق مشهورة لا محل للجهل بها .

بيد أن هناك أحكامًا جاءت عن طريق سنن الآحاد التى أشرنا إليها آنفًا . ونحن هنا نريد أن ننظر بإنصاف وفى حياد تام إلى أسلوب المسلمين فى تلقى هذه السنن .

هل هو أسلوب يتسم بالمجازفة والتراخى ، أو هو أسلوب يتسم باليقظة والدقة ، ولنضرب مثلاً بالأخبار التى تذاع عن الرؤساء الكبار فى عصرنا !

هب أن مستشارًا لرئيس دولة كبرى أدلى بتصريح عن رأى رئيسها فى قضية ما فنقل هذا التصريح رجل من الحاشية ثم تلقفه أحد الصحافيين فنشره ، ما تكون قيمة هذا الخبر ؟

نجيب بأنه خبر يحتمل الصدق والكذب ، ولا يترجح إلى إحدى الناحيتين إلا إذا عرفنا قيمة المصدر الذى أتى منه هذا النبأ .

(١) النساء : ٦٤ .

فإذا عرفنا أن الخبر نقلته الصحيفة بالفعل عن رجل الحاشية ، عن مستشار الرئيس مباشرة .

وكان كل واحد من هؤلاء مشهورًا بأمرين : الضبط التام لما يسمع ، والصدق التام فيما ينقل . . فما يكون رأينا فى هذا الخبر أنصدقه أو نكذبه ؟

الجواب أننا نتجه إلى تصديقه .

وذلك هو ما يطلب علماء المسلمين توافره فى الخبر ليكون صحيحًا ، ونقبل نسبته لرسول الله ﷺ . بل هم يزيدون أمرين آخرين .

لقد اطمأنوا إلى الخبر من ناحية مصدره ، أعنى الرواة الذين نقلوه ، لكن الخبر نفسه ما هو ؟ إنه قد يكون مخالفًا لما استقر بطريق أوثق ، فإذا كان مخالفًا عد شاذًا ، ووقع التوقف فيه ، ثم قد تكون هناك علل أخرى خفية تتسرب إلى الحديث المروى فترتفع الثقة به ولا يعد الحديث صحيحًا إلا إذا برئ من سائر هذه العلل القوادح .

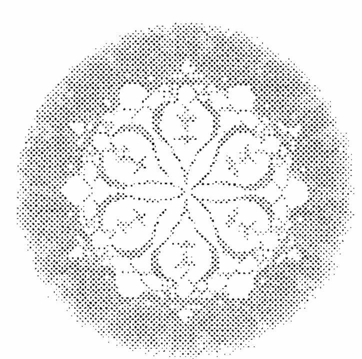
ثم ماذا بعد هذه الاشتراطات كلها ؟

إن الحديث بعد أن نطمئن إلى سلسلة الرواة الذين نقلوه ، وأنهم أمناء واعون ، وإن كل واحد منهم تلقى عن الآخر تلقيًا مباشرًا ، وأن ما نقلوه متفق مع ما علم من الدين بالطرق الأخرى وليست هناك علة فيه . هذا الحديث يفيد العلم الظنى ، أى أنه ليس مصدرًا للعقائد الدينية ، وإنما مجال الأخذ به فى الأعمال الشرعية الأخرى . . .

هل فى الدنيا تدقيق وتحقيق وراء هذا المسلك ؟ . . هل عرف دين من الأديان هذا المنهج فى نقد ما ينسب إلى رئيسه ؟

ومع ذلك كله تجد شخصًا يضع قدمًا على أخرى ويتكئ على كرسيه ثم يقول فى استهانة صبيانية : الأحاديث غير صحيحة ، ويرمى نصف الإسلام فى البحر . .

يا قوم . . بعض الإنصاف ؟



شعاع على مسار الدعوة

نحن ندعو ربنا فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم ليس خطّاً وهميّاً ينشأ عن هوى الأفراد والجماعات ، وإنما هو خط حقيقى يرسمه من الناحية العلمية القرآن الكريم . . ومن الناحية العملية الرسول الذى حمل الوحى وطبقه ، وربّى جيلاً من الناس على عقائده وشرائعه .

والتاريخ الإنسانى يشهد بقوة ووضوح أن قافلة الإسلام لزمت هذا الصراط حينًا من الدهر ، وأنها قدمت للعالم نماذج حية فى بناء الخلق والمجتمع والدولة . .

نعم كان السلف الأول عابدين لله ، ذوى بصائر ترنو إليه ، وتستمد منه ، وتنضح بالتقوى والأدب فى كل عمل يباشرونه .

وكانوا - إلى ذلك - خبراء بالحياة يسوسونها بالعدل والرحمة ، ويقمعون غرائز التطلع والحيف ، ويرفضون ما سبق الإسلام فى ميدان الحكم من فرعونية وكسروية وقيصرية ، كما يرفضون ما سبق الإسلام فى ميدان التدين من شرك أو تجسيد أو تعطيل . .

إن الصراط المستقيم ليس وقوف فرد فى المحراب لعبادة الله وكفى ، إنه جهاد عام لإقامة إنسانية توقر الله ، وتمشى فى القارات كلها وفق هداه ، وتتعاون فى السراء والضراء حتى لا يذل مظلوم ، أو يشقى محروم ، أو يعيث فى الأرض مترف ، أو يعبث بالحقوق مغرور .

السلف الصالح .. مصدر الأسوة

وقد وقعت خلال القرون الطويلة انحرافات دقيقة أو جليلة! وقبل أن نتفرس فى هذه الانحرافات ، ونتحدث عن مداها نريد أن نقرر حقيقة مهمة ، أن السلف الأول وحدهم هم مصدر الأسوة ، ويعجبنى ما رُوى عن ابن مسعود رضى الله عنه «**من كان مستناً فليستنّ بمن قد مات، فإن الحىّ لا تؤمن عليه الفتنة! أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلُّفاً، اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم**» .

إن بعض الذين ضاقوا بالانحرافات المعاصرة فى العالم الإسلامى فكروا فى العودة إلى الأمس القريب ، أو إلى بضعة قرون مضت! فقلت : لامثلنا الأعلى فى القرن الأول وحده ، ففى الحديث عن رسول الله ﷺ **«أنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافاً مثيرًا، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»** .

والاقتداء بداهة ليس فى ركوب الخيل والإبل ، والحرب بالسيف والرمح!

الاقتداء فى التجرد والخشية ، وإيثار الآخرة!! أما تأمين الحقيقة فقد استحدثت له وسائل مدنية وعسكرية لا حصر لها ، ويجب على حملة الرسالة إتقان هذه الوسائل . .

وقد بين أولو العلم ما يجب التزامه شكلاً وموضوعًا من شئون العبادات المحضة أما غيرها فنسق آخر . . .

العدل هو العدل ، ولكن ضمانات وصوله إلى ناشديه تكثر وتتغاير على مر العصور ، وقد قيل : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور .

والشورى هى الشورى ، بيد أن ضمانات التعبير عن الرأى ، وضمانات الوقوف أمام الاستبداد تختلف باختلاف البيئات والعلل .

العوج والجهل .. من أسباب الانحراف

وفى عصرنا هذا قامت أجهزة الدعاية تخدم شتى الملل والناس بأساليب فاتنة فإذا لم نسابقْها ونسبِقُ ظلمنا ديننا ، وأضعنا حقاً وكان علينا وزر المفرطين .

الصراط المستقيم إذن معروف بالعقل والنقل ، فلماذا يقع الانحراف عنه ؟

والجواب طبيعة البشر! إننا نخطئ وليس فى ذلك عجب! ولكن العجب أن يبقى الخطأ وأن نُصِرَّ عليه!!

والأعجب من ذلك أن يمضى بعضهم فى طريق الانحراف وهو لايدرى! أو لعله يحسب نفسه على صواب . .

وميلاد الانحراف خلقيّاً كان أو اجتماعيّاً أو سياسيّاً يبدأ من نقطة ، ثم يسير مُشكّلاً مع الخط المستقيم زاوية حادة ، فإذا قست المسافة بين خط الزيغ والخط المستقيم وجدتها قدر أصبع ، ثم تمتد فتصير قدر شبر ، ولايزال الزمان يطيل المسافة بين الخطين حتى تصير قدر ميل أو أميال ، ويكون البعد عن الحق شاسعًا!!!

والانحراف المعيب لايقع فى مكان واحد، بل قد تتعدد أسباب الميل، وتكثر المنعرجات التائهة، وتنحل عرى الإسلام عروة عروة بالصمت الجبان، وترك الفتن تمشى حبلُها على غاربها.. بل إن معالم الصراط المستقيم تكاد تخفى مع توارث العوج وذيوع الجهل لولا أن الله سبحانه تعهد دينه بمن يجدد أمره، ويجلو بريقه، ويذود عنه الآفات..

إذا ذكرت كلمة «الدين» سبق إلى فكر الناس ما وراء المادة والبحوث الغيبية المحيرة فى هذا المجال!! فهل الأمر كذلك عندنا؟ كلا..

إن الفاتحين الأوائل ما أثاروا بين الشعوب قضية من هذا الطراز، لقد انطلقوا باسم الله الواحد ينقلون الجماهير من الظلمة إلى النور، من الظلم إلى العدل، من الخرافة إلى الحق، فشغلوا الناس برؤية الميزان الذى أقاموه لكفالة معاشهم ومعادهم عن بحوث ما وراء المادة.

الكلام فى العقيدة موجز مجمل ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[1]. والتفاصيل أعمال صالحة تبدأ من إقام الصلاة، وتنتهى بتنظيف الطرق! وتقصى من الحياة العامة أسباب الشكوى والهوان ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..** ﴾[2].

العقل الإسلامى.. قديماً وحديثاً

كان السلف الذين حملوا الإسلام قديمًا واقعيين يعرفون مراد الله بذكاء، وينفذونه بدقة. والإسلام كما نعرفه من كتاب ربنا وسنة نبينا ـ فطرة سليمة لا فطرة ملتاثة، وتعاليم يعيها أولو الألباب لا أولو الثقافة القاصرة والأحكام البلهاء.

وقد أحسَّ ورثة المدنيات القديمة أنهم أمام عقل أذكى من عقولهم، وخلق أنبل من أخلاقهم، وبر بالشعوب أوسع من برهم، وأدركوا أن صفحتهم يوم تطوى فلكى يرى العالم صفحة جديدة أملأ بالرحمة والعدل يخطها أولئك التلامذة الذين ربَّاهم محمد ﷺ.

فهل كذلك الداعون إلى الإسلام فى يوم الناس هذا؟

إن التفكير الواقعى فى شئون الناس هو الذى أنجح الإسلام قديمًا، وجعل الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، أما مسلمو اليوم فأبعد شىء عن قضايا الشعوب المصيرية الشاملة!

---

(١) طه: ٨.

(٢) الحديد: ٢٥.

وأحب أن ألفت الأنظار إلى تغير فى الفكر العالمى صبغ الإنسانية الآن!

أساس هذا التغير الحفاوة بالمنطق التجريبى والزهد في المنطق الفلسفى ، وقد نشأ عن ذلك إهمال بتعمد للفكر اليونانى فى الإلهيات باعتبار هذا الفكر رجمًا بالغيب ، وبحثًا لا طائل تحته . .

وينبنى على هذا أن ما انشغل به العقل الإسلامى قديمًا وحديثًا من تراث الإغريق يجب وضعه على الرف إن لم يُرْمَ فى سلال المهملات!!

وعلى الدعاة المسلمين من سلف وخلف أن يلزموا أسلوب القرآن الكريم فى عرض المعتقدات ، وأن يشغلوا أنفسهم بتقديم حلول إسلامية للمشكلات المحدثة والأزمات المادية والأدبية الطارئة .

إن ذلك ما فعله السلف الأول ، فأعانه على فتح المشارق والمغارب . . أما المشتغلون اليوم بإعلان حرب على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة فإنهم يحرزون نصرًا فى ميدان لا عدوَّ فيه ، إنه نصر على الأشباح لايغنم إلا الوهم!!

ولست أمنع بعض المتخصصين من دراسات تاريخية لماضينا القريب والبعيد ، بيد أن ميدان الدعوة يجب إبعاده عن هذه المخلفات البالية ، ويجب شحنه برجال لهم عقول ناضرة تعرف ما يقدم الإسلام وما يفتقر إليه الناس . . .

وكما تراجعت خيالات الفلسفة النظرية أمام تقدم العقل العلمى ، وأمام انتقال العلم بالتطبيق إلى المصانع وارتقاء الحضارة المادية إلى آفاق أخرى ، كما حدث ذلك تراجعت تقاليد كثيرة أمام الدراسات النفسية والقانونية والاجتماعية التى تحتاج العالم كله ، وهنا أصيح بصوت عال : لايجوز الخلط بين تعاليم الإسلام والتقاليد التى تسود بلدًا ما ، إن للناس تقاليد ألبسوها الزى الإسلامى وهى من عند أنفسهم وليست من عند الله ، والدعوة إلى هذه التقاليد على أنها المنهج الإسلامى جهل قبيح!

فمصادر الإسلام معروفة ، وميزانه فى الحلال والحرام حساس ، والأمم التى دخلت فيه كثيرة ، وتاريخه تقلب بين مد وجزر ، وفقهاؤه المجتهدون تعرضوا للصواب والخطأ ، وحكامه على اختلاف الأيام والدول فيهم من أحسن وفيهم من أساء ، وقد بقى كتاب الله معصومًا لاترقى إليه ريبة ، ولم يلقَ تراث بشر من العناية ما لقيه تراث محمد عليه الصلاة والسلام .

ويعنى ذلك أن نتحرى فى ميدان الدعوة ، فلا نَصُدَّ عن سبيل الله بأمر نحسبه من مسلمات الدين وليس كذلك ، أو من فرائضه وهو إن عد من النوافل فعلى سبيل الإغماض والتجوز .

أمثلة عن التخلف العقلى باسم الإسلام ..

فى تطوافى بالعالم الإسلامى رأيت ناسًا يتحدثون عن الإسلام حديثًا تأباه الفطرة ويمجُّه العقل .

إذا كان العقلاء يتعشقون الحرية فهم يتعشقون القيود .

وإذا كان العقلاء يؤثرون السهولة والمياسرة فهم يؤثرون التعقيد والمعاسرة .

ومهمتهم بعد هذا الطبع المريض أن يتأولوا النصوص ، أو يصطادوا من الشواهد النادرة ما يؤيد نظرتهم ويرجح كفتهم . .

قال أحدهم - وهو يشتغل بعلم الحديث : إن إلغاء الرقِّ ليس من الإسلام .

قلت له : آفتك أنك اشتغلت بالأحاديث قبل أن توثق صلتك بالقرآن الكريم ، فلم تتكون لديك الحصيلة العلمية التى تعينك على ضبط الأحكام .

واستتليت : إن تحرير العبيد لا تقوم به دولة واحدة ما دام القتال يسود الأرض ، ومادام الأسرى يُسترقون ، فإذا اتفقت الدول على ميثاق لتكريم الأسرى ومنع استرقاقهم فهل نحن المسلمين نرفض ذلك؟ وليس فى كتابنا أمر باسترقاق ، وإنما فيه أوامر بالإعتاق!

هل إشاعة الاسترقاق هدف إسلامى؟ ما قال ذلك أحد!!

وقال أحدهم - وهو يشتغل بالفقه : يجوز للقرشى أن يتزوج من يشاء من العرب ، أو العجم ، أما القرشية فلابد من مراعاة الكفاءة فى النسب .

قلت له : إن البيوت مغلقة على عوانس بائسات محرومات من الزواج . . فهل هذا الكلام يحل مشكلاتهن؟

إن هناك أقطارًا واسعة فى العالم الإسلامى تشقى فيها النساء لأن التقاليد جعلت دمًا دون دم وأبًا دون أب ، أفهذا إسلام؟

ولا أريد المضى فى سوق الأمثال ، وإنما أذكر الشارة العامة عند هؤلاء المتحدثين الخطرين على الإسلام ودعوته .

إن العقل عند هؤلاء متهم حتى تثبت براءته ، والقياس الصريح مؤخر عن الأثر الضعيف ، والمصالح المرسلة مذهب مردود على أصحابه ، والسيف لا الإقناع أساس نشر الدعوة! وملابس البادية إمارة على التقوى ، أما الأزياء الأخرى فإن لم تدل على التحلل فهى موضع ريبة . وعدم البصر لا غض البصر أساس العلاقة بين الجنسين! وجعل الجلباب إلى نصف الساق! والصلاة فى النعال ما أمكن! والأكل بثلاث أصابع بعد الجلوس أرضًا على نحو معين!

وقلما يعرف هؤلاء شيئًا عن ضوابط الحكومة العادلة ، ولو سألتهم لعادوا يبحثون فى التاريخ عن أساليب الحكم فى الكوفة أو بلخ ليعطوا صورة شرعية للحكم المطلوب . .!!

إننى أصادف هذه المناظر المؤذية فى طريق الدعوة فأشعر بالنكد ، وآخر ما لقيت من هؤلاء شاب يقول لى : أليس فى الالتحاق بالجيش شيء من الوثنية؟ قلت : ويحك كيف!! قال ـ فض الله فاه : إنهم يحيون العلم كل يوم وهذه وثنية . .!!

هؤلاء المرضى مع ديننا المظلوم يشبهون الزمان المدبر الذى قال البحترى فيه :

وكأنّ الزمان أصبح محمو لاً هواه مع الأخس الأخس

تساءلت : هل وراء هؤلاء أحد يكيد للإسلام؟ فقد ظهروا بغتة فى عدة أقطار متباعدة .

وجاءنى الجواب على غير انتظار . . فقد كنت أحاضر فى مدينة «المنيا» وعقب المحاضرة رأيت أن أنصرف مسرعًا لأنى كنت متعبًا ، ولكن شابًا ألح على أن أنتظر لأجيب عن سؤال أثار بعض البلبلة ، واضطررت للانتظار ، فإذا السؤال المعروض عن حكم «الخل»!!

وعقدت لسانى الدهشة! حكم ماذا؟ قالوا حكم الخلّ! قل : ماذا جرى للخل؟ قالوا نسأل عن حلّه أو حرمته! قلت وأنا ضجر : حلال!

فرد أحد المتقرعين : الدليل؟ قلت الأصل الحل ، ومن زعم الحرمة فهو المطالب بالدليل ، وتركت المكان وأنا أتعجب . . . وشاء الله أن أسافر إلى أبى ظبى ، وأن أخطب الجمعة فى مسجد حاشد ، وعقب الخطبة تلقيت أسئلة مكتوبة لأجيب عنها ، وإذا بسؤال يتصدرها عن حكم «الخل» !

قلت للمصلين : هذا السؤال مكتوب فى عاصمة أجنبية ، أشرف على وضعه ــ مع غيره من الأسئلة المحقورة ــ بعض المبشرين والمستشرقين الذين يعملون لحساب الاستعمار الثقافى ويريدون شغل العوام بما يصرفهم عن لب الإسلام .

وقصصت عليهم كيف سيق لى هذا السؤال فى صعيد مصر ، وإذا كنت أسمعه الآن فى غرب آسيا بعد شرق أفريقية فلابد أنه مع أسئلة أسخف منه سوف يُصدَّر للهند والسند ، وغانة والسنغال!!

ولست أرمى بالتبعة على أعداء الإسلام ، فإن القانون لايحمى المغفلين ، وإنما ألفت النظر إلى هذا الهوس الفكرى وحملته فى كل مكان . .

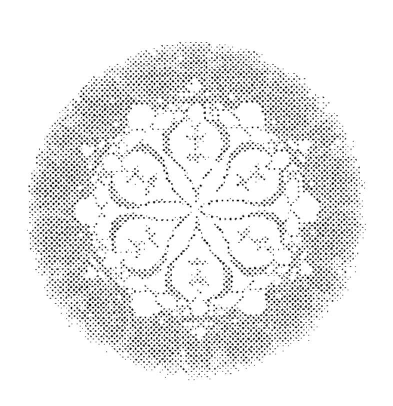
لقد أصبح هناك متخصصون فى إثارة الخلافات الغريبة ، وشحن القلوب بالغضب من أجلها ، فلحساب من يقع هذا؟

أعرف متعصبين ذوى قلوب طيبة لبعض وجهات النظر الخفيفة الوزن وهؤلاء صيد سهل لأعداء الإسلام ، وينبغى تفتيح أعينهم على مغبة سلوكهم حتى لا ينكبوا دينهم وأمتهم .

ولقد سمعت فى إحدى المحافظات شكوى من أن هؤلاء تجيئهم الكتب بسهولة من وراء الحدود وتبذل لهم بالمجان ، وآخر ما شغلوا الأذهان به قضية «خلق القرآن» التى ماتت من اثنى عشر قرنًا ولم يعد أحد يحسها .

إن هؤلاء الملتاثين رأوا إحياءها أو رئى لهم ذلك!!

وتوجد قوى محلية وعالمية تعين على ذلك حتى تنتكس النهضة المعاصرة ، ويتدحرج المسلمون من العالم الثالث إلى . . . عالم الفناء والتلاشى!!



الله

هذا الاسم الكريم علم على الذات المقدسة التى نؤمن بها ، ونعمل لها ونعرف أن منها حياتنا وإليها مصيرنا .

والله تبارك وتعالى أهل الحمد والمجد ، وأهل التقوى والمغفرة ، لا نحصى ثناء عليه ، ولا نبلغ حقه توقيرًا وإجلالاً .

ولو أن البشر منذ كتب لهم تاريخ وإلى أن تهمد لهم على ظهر الأرض حركة - نسوا الله ما خدش ذلك شيئًا من جلاله ، ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كسف شعاعًا من ضيائه ، فهو سبحانه أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته وأوسع فى ملكوته وجبروته من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل .

ولئن كنا فى عصر عكف على هواه ، وذهل عن أخراه ، وتنكر لربه ، إن ضير ذلك يقع على أم رأسه ولن يضر الله شيئًا .

ووجوده تعالى من البداهات التى يدركها الإنسان بفطرته ، ويهتدى إليها بطبيعته ، وليس من مسائل العلوم المعقدة ، ولا من حقائق التفكير العويصة ، ولولا أن شدة الظهور قد تلد الخفاء ، واقتراب المسافة جدًا قد يعطل الرؤية ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد ﴿ **أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[1] .

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية ، فإنهم وإن عرفوا الله بطبيعتهم إلا أنهم أخطأوا فى الإشراك به والفهم عنه .

والبيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة فهى تمسخها ، وتشرد بها ، وتخلف فيها من العلل ما يجعلها تعاف العذب وتسيغ الفج ، وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان وقبولهم الكفر أو الإلحاد مع منافاة ذلك لمنطق العقل وأصل الخلقة .

وقد اقترنت حضارة الغرب التى تسود العالم اليوم بنزوع حاد إلى المماراة فى وجود الله والنظر إلى الأديان جملة نظرة تنقص ، أو قبولها كمسكنات اجتماعية .

---

(١) إبراهيم : ١٠ .

ولا شك أن المحنة التى يعانيها العالم اليوم ، أزمة روحية منشؤها كفره بالمثل العليا التى جاء بها الدين ، فلا نجاة له مما يرتكس فيه إلا بالعودة إلى هذه المثل يهتدى إليها بفطرته كما يهتدى الجنين سبيله فى ولادته ، ومتى هدى العالم إلى الفطرة هدى إلى الإسلام فإن الإسلام هو دين الفطرة .

***

إن الإنسـان لم يخلق نفسـه ، ولم يخلق أولاده ، ولم يخلق الأرض التى يعـيش عليها ، ولا السماء التى يستظل بها ، والبشر الذين ادعوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادعاء ذلك ، فمن المقطوع به ، أن وظيفة الخلق والإبداع من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان ولا حيوان ولا جماد ، ومن المقطوع به كذلك أن شيئًا من ذلك لا يحدث من تلقاء نفسه فلم يبقَ إلا الله :

﴿ **أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ** ﴾[١] .

ولو دخل المرء دارًا فوجد فيها غرفة مهيأة للطعام ، وأخرى للمنام ، وأخرى للضيافة وأخرى للنظافة لجزم بأن هذا الترتيب لم يتم وحده ، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن حكمة وتقدير ، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل .

والناظر فى الكون وآفاقه والمادة وخصائصها يعرف أنها محكومة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب ، وما وصل إليه علم الإنسان من أسرار الكون حاسم فى إبعاد كل شبهة توهم أنه وجد كيفما اتفق :

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا** ﴾[٢] .

وهذه الكواكب السيارة التى تخترق أعماء الجو والتى تلتزم مدارًا واحدًا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا ، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل ، ثم نرقبها فى موعدها المحسوب فلاتخالف عنه أبدًا .

هذه الكرات الغليظة الحجم ، الحى منها والميت ، المضىء منها والمعتم ، معلقة لا تسقط ، سائرة لا تقف ، كل فى دائرته لا يعدوها ، وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا ، وهم أهل بصر وعقل . . أما هذه الكواكب التى تزحم الفضاء فإنها لا تزيغ ولا تصطدم .

---

(١) الطور : ٣٥ .   (٢) الفرقان : ٦١ ، ٦٢ .

من الذى هيمن على نظامها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة . . إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** ﴾[1] .

أما كلمة الجاذبية فدلالتها العلمية كدلالة حرف (س) على المجهول . . إنها رمز لقوانين تصرخ باسم الله ، ولكن الصم لا يسمعون .

إن وجود كل منا له بداية معروفة ، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئًا يذكر ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾[2] .

وعناصر الكون الذى نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة ، وعلماء الجيولوجيا يقدرون لها أعمارًا محدودة ، مهما طالت فقد كانت قبلها صفرًا . . وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى ، اعتمد عليه فريق من الناس فى القول بقدم العالم ، وما يتبع هذا القدم الموهوم من أباطيل . . على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن ، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلنا هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة ، فإن المفتاح الذى يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضرورى أن يضعه الله فى أيدى العلماء ، وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمر مادة الكون لا يعنى أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء .

إننا جازمون بأن وجودنا محدث لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك ، وغير معقول أن يتطور العدم إلى وجود تطورًا ذاتيًا .

إنه إذا وقعت حادثة لم يدر فاعلها قيل : إن الفاعل مجهول ، ولم يقل أحد : إنه ليس لها فاعل ، فكيف يراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وبين ربه .

إننا لم نكن شيئًا فكنا . . فمن كوننا ﴿ **قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾[3] .

***

نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافًا ، فوضع الأرض أمام الشمس مثلاً ، ثم على مسافة معينة لو نقصت بحيث ازداد قربها من الشمس لاحترقت أنواع الأحياء من

---

(1) فاطر : 41 .　(2) الإنسان : 1 .　(3) الأنعام : 91 .

نبات وحيوان ، ولو بعدت المسافة لعم الجليد والصقيع وجه الأرض ، وهلك كذلك الزرع والضرع . . أفتظن إقامتها فى مكانها ذاك جاء خبط عشواء .

وحركة المد والجزر التى ترتبط بالقمر ، أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه الأرض أكثر فيسحب أمواج المحيطات سحبًا يغطى به وجه اليابسة كلها ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شىء ؟

من الذى أقام القمر على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك .

إننا على سطح الأرض نستنشق الأوكسجين لنحيا به ، ونطرد الكربون الناشئ من احتراق الطعام فى جسومنا ، وكان ينبغى أن يستنفد الأحياء ــ وما أكثرهم ــ هذا العنصر الثمين فى الهواء فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدًا . . لكن الذى يقع أن النبات الأخضر يأخذ الكربون ويعطى بدله أوكسجين ، وبهذه المعاوضة الغريبة يبقى التوازن فى طبيعة الغلاف الهوائى الذى يحيا فى جوه اللطيف الحيوان والنبات جميعًا . أفتحسب هذا التوافق حدث من تلقاء نفسه ؟

إننى أحيانًا أسرح الطرف فى زهرة مخططة بعشرات الألوان ألتقطها من بين مئات الأزهار الطالعة فى إحدى الحدائق ، ثم أسأل نفسى : بأى ريشة نسقت هذه الألوان ؟ إنها ليست ألوان الطيف وحدها . . إنها مزيج رائق ساحر من الألوان التى تبدو هنا مخففة وهنا مظللة وهنا مخططة وهنا منقطة .

وأنظر إلى أسفل إلى التراب الأعفر إنه بيقين ليس راسم هذه الألوان ولا موزع أصباغها . . هل المصادفة هى التى أشرقت على ذلك ، إن المرء يكون غبيّاً جداً عندما يتصور الأمور على هذا النحو .

إن إنشاء الحياة فى أصغر خلية يتطلب نظامًا بالغ الإحكام ، ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق (جزىء) فى جسم دودة حقيرة فضلاً عن خلق جهازها الهضمى والعصبى . فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان الهائل الكيان . ثم ما بالك بخلق ذلك العالم الرحب ؟

إن العلم برىء من مزاعم الإلحاد ، ومضاد لما يرسل من أحكام بلهاء . . الحق أن الإلحاد الذى يشيع بين طوائف المتحذلقين والمتنطعين لا يستند البتة إلى ذرة من المعرفة أو التفكير السليم .

نظرات فى سورة الأنعام

سورة «الأنعام» من السور الطوال التى نزلت بمكة تقيم قواعد الإيمان، وتنصب حوله البراهين، وتجادل عنه الأعداء والجاهلين . .

وأسلوب السورة يتسم بالأخذ والرد، والحوار الحى، والنزول إلى أرض الواقع واستخراج كل ما لدى المشركين من شبهات ومزاعم .

ولذلك تكررت كلمة «قل» للنبى ﷺ أربعًا وأربعين مرة يتنزل بعدها التوجيه الإلهى إعلانًا للحق وخذلانًا للباطل .

وسورة الأنعام بهذه الخاصة من أشد السور قمعًا للضلال، وإخمادًا لأنفاسه، وإعلانًا لمنار التوحيد، وجمعًا للأفكار والأفئدة عليه .

ونبدأ بإلقاء (نظرة) على مراحل الصراع بين الإسلام وأعدائه فى هذه السورة المباركة . . .

***

إن الحق الغريب فى البيئة العاتية يبدأ ضعيف الشأن قليل الناصر يلقاه الأقوياء بالنظر المتجهم، ويتناولونه بالسخرية الظاهرة، ويرفضون رفضًا شديدًا أن يدخلوا فيه بل أن يسمحوا له بالسير .

والله عز وجل فى هذه السورة يوجه الحديث إلى الطرفين المتنازعين فيطلب من المشركين أن يحذروا المستقبل، وأن يتأملوا فى تاريخ الماضين لتنحسم سخريتهم . **﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾**[1] . وفى الوقت الذى ينبه المشركون فيه إلى مصيرهم يقال لصاحب الرسالة ومن معه من المؤمنين : **﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾**[2] .

(١) الأنعام : ١٠ ، ١١ .
(٢) الأنعام : ٣٤ .

أى اثبتوا أيها المؤمنون ، وتحملوا صنوف الأذى ، وصابروا الليل الطويل حتى يطلع فجر النصر ــ ولا بد أن يطلع ــ فإن كلمات الله لعباده وقوانينه فى خلقه لن تتغير . ويمكن استقراء الصراع القديم بين الهدى والضلال لتعرف هذه الحقيقة . .

بيد أن حبل النزاع طويل ويظهر أن طوله يستغرق أعمارًا كاملة وأن النتيجة المرتقبة تتحرك ببطء رهيب . . بطء يغرى الكافرين بالتطاول والصلف وتكاد معه أرواح المؤمنين أن تزهق .

وتستطيع أن تتبين موقف الفريقين فى هذا الحوار : ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** . . ﴾[١] .

إن الله عز وجل يعطى المبطلين فرصًا واسعة ليؤمنوا إذا أرادوا . ويبدو أن سعة هذه الفرص لا تزيدهم إلا ضراوة . ولقد راقبت سيرة المشركين مع النبى ﷺ فوجدت أن المشركين أنفسهم هم الذين فتلوا الحبال التى شدت حول أعناقهم وأجهزت على حياتهم .

إنهم هم الذين صنعوا معركة بدر ، وكانوا قادرين على العودة من حيث جاءوا بعد نجاة قافلتهم ، لكن مشاعر الكبر التى أدارت رءوسهم وترجم عنها أبو جهل فى كلمته الحمقاء «لا نعود حتى ننحر الجذور ونشرب الخمور وتغنى لنا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ، أبدًا» . هذه الكلمة هى التى ألحقت بالشرك أول هزيمة قاتلة ، وأحنت رأسه إحناء مذلاً إلى آخر الدهر ، وكما فعل المشركون بأنفسهم ذلك فى بدر كرروا صنيعهم قبيل الفتح الأعظم ليعطوا المسلمين حق دخول مكة بعدما نقضوا العهد المبرم ، ورفضوا الهدنة الممتدة .

إن الخط الذى رسمه القدر كان فوق فكر البشر ، وذلك هو السر فى قول الله لنبيه : ﴿ **قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ** ﴾[٢] .

إن على أهل الحق شيئًا واحدًا أن يعيشوا به ، وأن يعيشوا له . .

أما كيف يديل الله لهم من عدوهم فهذا ما استأثر العلم الإلهى به ، وتعجز القوى عن دركه وارتفاع أهل الحق إلى مستواه فى خلقهم وسلوكهم شىء صعب ولكن ما منه بد .

(١) الأنعام : ٥٧ ، ٥٨ .	(٢) الأنعام ٥٨ .

ثم هم بعد هذا الارتفاع لابد أن يخضعوا لسنن الله الكونية التى تتناول أولياءه وأعداءه على سواء ، ويعد التعرض لها جزءاً من الاختيار الشامل فى قصة الموت والحياة . .

. . وتأسيسًا على ذلك يأمر الله نبيه أن يفهم المؤمنين بأنه «بشر» لايملك طاقات فوق العادة ، وأنه يتعرض مع جماهير المؤمنين لتكاليف الصراع الخالد بين الإيمان والكفر . فلا هو صاحب مال لا ينفذ ، ولا هو مدرك للغيوب ، ولا هو ملك متخفف من خواص المادة الإنسانية ، إنه صاحب دعوة اصطفاه الله لفتح البصائر المغلقة ، وهداية الجماهير التائهة :

﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

وقد قضت الحكمة العليا أن تغير الظروف التى يعيش البشر فيها تغييرًا يرغم على الانتباه لما يطلب منهم ؛ فإن الناس إذا ألفوا النعماء قل تقديرهم لها ، وقل شكرهم لمرسلها الكبير ، وقل اكتراثهم بحقه ، وقل استماعهم لرسله .

ومن ثم فإن الله يسلبهم ما يطغيهم لعلهم يعتدلون!

وقد صح أن النبى ﷺ لما رأى كبرياء قريش وطول صدها دعا الله عليهم فقال : «اللهم سبعًا كسبع يوسف!!» .

أى أرسل عليهم سبع سنين عجافًا تكسر كبرياءهم ، وترد إليهم صوابهم .

وهذا علاج حق ، فإن الذاهب بنفسه قد يتواضع ويعقل إذا فقد ما غره من مال أو جاه .

وفى هذه السورة الكريمة يقرر الله جل شأنه هذه السنة الحكيمة : **﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾**[2] .

والبأساء : سوء الأوضاع الاقتصادية . والضراء : سوء الأحوال الصحية .

وليس أضرى بالأفراد والجماعات من هذين البلاءين وجدير بمن فقد صحته وماله أن يجأر إلى الله تائبًا طالبًا النجدة . .

---

(١) الأنعام : ٥٠ . (٢) الأنعام : ٤٢ .

ومع ذلك فإن هناك شعوبًا بليدة تنزل بها القواصم فما تطلب من الله رفعها ، وما تقف بساحته منيبة ضارعة بل تبقى على غوايتها وكفرها ﴿ **فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[1] .

وهذا لون خطير من موت القلوب وعصف الشهوات بالأمم ، وقد كان المفروض أن الآلام ترد الناس إلى بارئهم كى يحجب سخطه عنهم ، فإذا أوذوا وظلوا فى عماهم فمعنى ذلك أن الفساد تغلغل فى كيانهم واستبد بزمامهم .

وقد يطول بالأمم العناء ـ والحالة هذه ـ كما قال تعالى فى سورة أخرى : ﴿ **وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ** ﴾[2] .

لكن سورة الأنعام تذكر لونا آخر من مكر الله بالأمم فإن الله يرفع العذاب النازل بالأمم الشاردة ، ويعيد إليهم ما فقدوا من نعمة ومتاع بل ربما أرسل إليهم أكثر مما ألفوا ليزدادوا ترفًا وشرهًا : ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[3] .

إن قطع دابر «المتكبرين» بعدما طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد نعمة تقر بها العيون وتنشرح بها الصدور ، وتتبادل عليها التهنئة ، ويشكر عليها رب العالمين . .

وظاهر من وصف القرآن لمراحل التغيير من رخاء إلى شدة ومن شدَّة إلى رخاء أن الزمان طويل ، وأن أهل الحق خلال أيامه ولياليه يجب أن يصبروا ويصابروا ﴿ **وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾[4] نعم زمان طويل يبدأ فيه النضال ، والباطل قوى مستقر ، والحق ضعيف منكور ، ثم تنشب الحرب النفسية والدموية لتتغير بعدها الأوضاع فيقوى الحق

---

(١) الأنعام : ٤٣ .

(٢) المؤمنون : ٧٥ ، ٧٧ .

(٣) الأنعام : ٤٤ ، ٤٥ .

(٤) طه : ١٣٢ .

ويضعف الباطل بيد أن هذا التغيير يقطع من الزمن طريقًا طويلاً وإلى قبيل النهاية لا تؤذن الأمور بانهيار فى جبهة الضلال بل قد تظل مرهوبة الجانب محذورة الشر .

ولذلك فإن المعادن الهشة تتفتت على مراحل الطريق ، وينجم النفاق ، ويؤثر الضعاف والجبناء أن ينجوا بأنفسهم ، ويستريحوا إلى دنياهم .

من أجل ذلك يأمر الله نبيه بالثبات على الحق ، وتثبيت المؤمنين عليه ، ويكشف له عورات الشرك ومقابحه ، لينفر العقلاء منها ويفروا من طريقها ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ** ﴾[1] .

فليبق الحيارى ضالين عن رشدهم ، وليلزم المؤمنون صراطهم المستقيم مهما تجشموا من مشقات ﴿ **وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** (٧١) **وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾[2] .

لكن متى ينتهى هذا الصراع؟ وترتفع راية الحق؟ لا ندرى! ولابد من نهاية له على أية حال ﴿ **لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾[3] .

وعلى أصحاب الإيمان طال المدى أو قصر أن يعيشوا له ، وأن يعيشوا به . وهذا المعنى هو الذى سيطر على المسلمين فى العصر المكى فتكون منهم جيل اعتنق الإسلام وربط به سفره وإقامته ، وتعبه وراحته ، وصداقته وخصومته ، وحياته ومماته .

وقد قررت سورة الأنعام ذلك فى خواتيمها لتجمل فيه منهجًا خالدًا لكل جيل مكافح إلى قيام الساعة .

وعلى صدر الطريق ملمح خاتم الأنبياء يتلو ما أمر الله به ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٦٢) **لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[4] . .

. . أجل إنه الأول تجردًا لله وتبتلاً إليه ، ودأبًا على عبادته وتسبيحًا له وتمجيدًا وركوعًا وسجودًا ، ثم حماية لهذا الدين بالنفس والمال ؛ فالحياة لله والموت فى سبيله .

---

(١) الأنعام : ٧١ .
(٢) الأنعام : ٧١ ، ٧٢ .
(٣) الأنعام : ٦٧ .
(٤) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

وعندما استوحش التوحيد فى زحام العالم وطمعت الخرافة أن تأتى عليه من القواعد . نهض الإنسان الكبير «محمد بن عبدالله» ورمى بكل ما يملك من طاقات فى المعركة اليائسة المضطربة فإذا الشيطان يخور . . وإذا الشرك السافر والمقنع يتقهقر . .
وإذا التوحيد الخالص يتقدم ويشيع . .

وإذا العدالة فى الحساب والسلوك تتقرر ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1] .

إن الخلاف الدينى سوف يبقى ما بقيت الأرض ، ولن يبت فيه إلا الله وحده! وستنشأ الأجيال الجديدة وهى فى مهدها حاملة مظاهر هذا الخلاف .

والمهم أن يكون المؤمن بالله ورسوله رفيع اليقين والخلق معاً ، طاهر القلب والسيرة جميعًا . مقتفيًا أثر نبيه العظيم وهو يؤكد أن صلاته ونسكه وحياته ومماته لله جل شأنه . إن هزائم الحق فى أغلب الأحيان تجىء من تفريط المؤمنين وهبوطهم دون هذا المستوى المطلوب فمن ولد مسلمًا ورزقه الله هذا الشرف فليعلم أنه مكلف بخدمة الحق وتزيين صورته وتنقية حقيقته ، وحسن عرضه والقيام به وتلك هى الفريضة المنوطة بعنقه .

إنك لم تولد مسلمًا تفضل غيرك دون جهد مبذول وعبء محمول ، بل قد يفضلك غيرك يوم تبتذل النعمة الموروثة وتتركها للضياع أو الامتهان .

-٢-

فى هذه السورة الجليلة نلمح منطق القرآن الكريم فى بناء العقائد وغرس الإيمان وهو منطق بعيد عن التقعر ، برىء من الغموض ، يقوم على وصف الله جل شأنه بما ينبغى له من نعوت الجلال والكمال ، ويلفت النظر إلى آفاق الملكوت كى يدرك الإنسان عظمة ربه خلالها . وصدر سورة الأنعام يتسق مع هذا المنهج فقد بدأ الكلام بحمد الله خالق السموات والأرض وجاعل الظلمات والنور ، ثم لفت القرآن الكريم النظر إلى تاريخ الأمم الأولى وموقفها من قضية الإيمان وكيف أن غفلتها هوت بها! وأن جحودها لنعمة الله أوردها شر الموارد .

(١) الأنعام : ١٦٤ .

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾[1] .

بيد أن جماهير الناس ربما ضاقت بهذا المنطق ، ولم يعجبها أن تقاد من عقلها ، ولا أن تستثار مواهبها العليا كى تؤمن . إنها تريد شيئًا آخر ، تريد خوارق للعادات تشد انتباهها ، أو تشبع فضولها ، أو تتجاوب مع الاتجاهات المالية فى ذوقها وحكمها ، والرسالة الخاتمة لا ترتضى هذه النزعة ولا تجمدها .

ومن ثم فإن المنطق القرآنى مضى فى طريقه يحرك العقل الجامد ، ويطلب إليه أن يؤدى وظيفته العتيدة فى البحث والموازنة والحكم .

والعرب فى جاهليتهم أصروا على مقترحاتهم فى ضرورة أن تسند الدعوة «معجزات حسية» وقاوموا النداء المتتابع بضرورة أن يفتحوا عيونهم إلى آيات الله فى كونه ، وإبداعه فى خلقه ، ودلائل عظمته المسطورة بين سمعهم وبصرهم .

ونحن نرى أن إصرار الجاهليين على موقفهم إنما نشأ عن عناد كريه ، وجحد بكل ما يجب التسليم به من مقررات إنسانية محترمة . ولو أنهم أجيبوا إلى ما طلبوا ما اعترفوا بالحق ولا انقادوا له ، وهنا نجد فى سورة الأنعام مجموعة من النصوص تشرح هذه الحقيقة :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[2] فهم لايؤمنون ولو نزل عليهم كتاب من السماء يلمسون أوراقه ويحسون وجوده! . وقد طلبوا أن يتحدث إليهم أحد الملائكة لكن كيف يتم هذا؟!

إن البشر جهزوا بحواس محدودة لاتستطيع أن ترى الماديات إلا فى حجم معين ، وعلى بعد معين فكيف ترضيهم السماء ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ ﴾[3] أى إنهم سيسترسلون فى عنادهم ، ويرفضون الإيمان بعد استجابة مطلبهم ، وعندئذ تعجل عقوبتهم ، وينزل بهم العذاب الأليم .

. . . على أن ذلك كله مع قدرتهم على رؤية الملك فى طبيعته النورانية . فإذا استحال ذلك وتجسد لهم الملك فإن الشبهات باقية والممرات مستمرة ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[4] وتناولت سورة الأنعام الخوارق مرة

(١) الأنعام : ٦ . (٢ ، ٣) الأنعام : ٧ ، ٨ . (٤) الأنعام : ٩ .

ثانية فى قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[1] .

. . . أى أن الخوارق المطلوبة ليست مما يعجز القدرة العليا ، ولكن الحكمة الإلهية فوق رغبات الطفولة . وعندما يريد الصغار ألا يكبروا . . . وعندما تريد الإنسانية ألا ترتفع إلى مستواها العقلى . فإنه لابد من إرغامها على الصعود والأخذ بيدها إلى أعلى وتكليفها أن تحترم العلم . ولعل ذلك السر فى أن النبى ﷺ قارن بين ما منح من معجزات ، وما أجراه الله على أيدى المرسلين الأولين من آيات ثم قال : «**مامن نبى من الأنبياء قبلى إلا وأوتى من الآيات ما على مثله آمن البشر وكان الذى أوتيته وحيًا أوحى إلىَّ . . فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**» .

إن هذا الحديث يشعر بأن الله جل شأنه يريد أن يبنى الناس إيمانهم على حسن البحث والنظر ، وصدق الفطانة والاستنباط ، لا أن يهملوا أفضل ما أوتوا ، وينتظروا القوارع والخوارق كى يعرفوا ربهم .

والمرء عندما يجحد الخاصة التى رجح بها بقية الحيوانات ، ويريد أن يحيا بغرائزه البدائية وأفكاره الساذجة وحدها . . لا ينبغى أن يجاب إلى ما يشتهى . وهذا سر ختم الآية بقوله جل شأنه : ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وتعود سورة الأنعام إلى تصوير لجاجة المشركين فى طلب الآيات الحسية وتعليق الإيمان على وقوعها . قال تعالى : ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[2] .

ومن حقنا أن نتساءل عن قيمة هذا القسم من مشركين سووا بالله مخلوقاته وحلفوا أيضا على أنه لن يبعث أحدًا ، وأن الدنيا هى الحس كله ولا شىء بعده . . .

إن هؤلاء المشركين كأنما يذكرون اسم الله من باب الاسترسال مع الخصم ، أو كأنهم يقولون : نقسم بالله الذى تزعمونه ـ معشر المؤمنين ـ وتتعلقون به .

أى قسم هذا؟؟!!

(١) الأنعام : ٣٧ .

(٢) الأنعام : ١٠٩ ، ١١٠ .

. . . إن الأمر لايعدو التشبث بما اقترحوه من قديم ؛ أى أنهم مازالوا متعلقين بالخوارق التى بنوا عليهم إيمانهم ، وهى إن جاءت فلن تؤسس فى نفوسهم يقينًا ، ولن تزحزحهم قيد أنملة عن جاهليتهم التى ورثوها وأوهامهم التى ألفوها . . .

. . وما الظن بقوم يقولون لله : ﴿ . . إن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] . .

أما كان حريًّا بهم لو كانوا مخلصين أن يقولوا : اللهم أرنا الحق حقاً ، وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . . .

ولكنها الطفولة البشرية كما قلنا : هى التى دفعت إلى هذه المطالب دون تقدير لها ، أو ارتباط بنتائجها .

ولابد من أن نسجل هنا خطأ سرى فى الفكر الإسلامى سريانًا مستغربًا هو : اهتمام المسلمين بالخوارق ، وربط الصلاح النفسى بها حتى أصبحت الولاية عند الجماهير لا مفهوم لها إلا وقوع الخوارق على أيدى الأحياء أو الأموات!!

إن هذا الخطأ امتداد للطفولة البشرية التى أنكرها الإسلام على الجاهلين القدامى عندما تشبثوا بخوارق العادات وربطوا صدق النبوة بها ، واستهانوا بقيمة العقل فى تقديرها وإثباتها . .

وعلماء الكلام . . بل علماء الأديان عمومًا لاينكرون وقوع الخوارق ، ولكنهم يرون أن هذه الخوارق الواقعة عديمة الدلالة على ما يزعم لها ؛ إذ هى تقع مع المؤمن والكافر والبر والفاجر . وفى كتب علم التوحيد عندنا تسميات شتى لخوارق العادات بحسب صدورها من الناس ، ولم يقل أحد أن لهذه العجائب دلالة حاسمة أو غير حاسمة على صدق الإيمان ، وقرب المنزلة عند الله .

. . . الولاية كما عرفها القرآن الكريم هى : الإيمان والتقوى سواء حدث لصاحبها شىء من هذه العجائب أم لم يحدث!!

وقد نبه المحققون إلى ذلك عندما قالوا : «لو رأيت إنسانًا يطير فى الهواء أو يمشى على الماء فلا تشهد له بخير حتى ترى مسلكه مع الكتاب والسنة» .

---

(١) الأنعام : ٣٢ .

وهذا كلام جيد وهو يربط الكمال المنشود بالرقى المعنوى ، والاستقامة النفسية ، ولا يعطى ما وراء ذلك قيمة ما . .! . . إننا عندما نتدبر سورة يوسف نجد أنها تضمنت ثلاث رؤى كشفت عن المستقبل ؛ فجاء تطبيقها صادقًا كوضح النهار .

* أولى الرؤى الثلاث : لنبى كريم المعدن ، حسن الدعوة إلى الله .

* أما الرؤييان الأخريان : فهما لقوم لايعرفون الله ، ولا يحسنون معاملته .

بعضهم كان سجينًا ، وعاش بعد سجنه يسقى سيده الملك خمرًا ، والبعض الآخر كان ملكًا غريبًا على دائرة الإيمان ومنطقه .

وقد بنيت خطة الدولة الاقتصادية على رؤياه خمسة عشر عامًا . وأحسبنى لو صورت فكر المسلمين الآن لقلت : إنهم يحسبون الرؤيا الصادقة أمارة على عظمة المنزلة عند رب العالمين ، ولو كان صاحبها لايعرف صلاة ولاصيامًا . وقد لاحظنا ونحن نقرأ سورة الأنعام أنها زجرت المشركين زجرًا شديدًا لتطلعهم إلى الخوارق ، وغفلتهم عن التدبر والوعى .

والسورة بهذه اللفتة الكريمة تريد أن تنبه إلى أن العظمة الإنسانية لها أصولها العتيدة وأبعادها المحددة .

وإذا كان الله قد رزقنا عقلاً فيجب على هذا العقل أن يبحث ويقضى . . والأديان إنما تستمد وجاهتها ، وتستحق القبول بما حوت من زكاة للنفوس ورشد للسلوك . . والأديان الفاشلة أو المهتزة القواعد تتحايل على إثبات صحتها ، وجمع الناس حولها بإطلاق الإشاعات عن خوارق وقعت لأحيائها أو موتاها .

وهذه الخوارق فى الأغلب مفتعلة لاتعتمد على شىء . . إنما هى الخيال أو التوهم ولو أن ما زعموه كان صحيحًا ما دل هذا على شىء طائل ، فإن الأديان تقوم على الصدق العقلى والنضارة الخلقية . وهذا ما طلبت منا سورة الأنعام أن نستيقنه و أن نبنى عليه حكمنا . هل معنى ذلك أن حياة «محمد» ﷺ كان خلوًا من الخوارق؟ كلا! . .

لقد صحت «الأسانيد» أن جملة من الآيات الباهرة ظهرت فى سيرة النبى الكريم ، ورأت جماهير من الناس كيف زاد الطعام فى يده ، وكيف نبع الماء من بين أصابعه وكيف هطل المطر توًا استجابةً لدعوته ، وكيف . . وكيف . .

. . إن عشرات من هذه الآيات الحسية ثبتت له ﷺ ، ولكن هذه الآيات لم تعتبر سنادًا لإثبات النبوة ، ولا كان بها التحدى إلى آخر الدهر . .

لقد اعتبر أمرها ثانوياً بالنسبة إلى القرآن الكريم . . الكتاب الذى أحيا الفكر وأيقظ القلب ، وأنهض الأمم ، ودفع الأجيال فى طريق حضارة يانعة ، وربط بين الناس وربهم ربطًا يتجدد على مر الأيام ؛ إذ لايزال هذا الكتاب منذ نزل إلى يوم الناس هذا . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ــ صائغ الإيمان الحر ، وسائق العقول بطريق الاستدلال إلى معرفة ربها والانقياد له .

هذه السورة المكية حافلة بالدلائل التى تسوق الناس سوقًا إلى الله ، وتفتح الأبصار على الآيات الشائعة فى ملكوته . والروائع التى بثها هنا وهناك تشهد بوحدانيته وعلوه ولطفه .

إن بعض المستشرقين والمبشرين تحدث عن الأسلوب المكى فقال : إنه عاطفى يعتمد على الإثارة أكثر مما يعتمد على التفكير ، وتبعهم فى ذلك سماسرة مستأجرون فى ميدان الأدب والثقافة تحمسوا لهذه الأكذوبة وأخذوا يروجونها . .

والقضية كلها دعوى تافهة ، وسورة الأنعام ــ من بين السور المكية ــ مليئة بالبصائر التى تنير طريق الحق ، وتجلو الغشاوات عن سالكيه .

وكلمة «بصائر» فى قوله تعالى : ﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا** ﴾[1] هذه الكلمة واضحة الدلالة على العمل العقلى الذى يمزق الظلمات ، ويكشف الشبهات ، ويعرف الناس بربهم عن طريق السريرة الصافية والفطرة الواعية .

وعلى ما ألفنا فى هذه السورة نسمع بعد كلمة «قل» سؤالاً عن رب المكان يجىء على هذا النحو ﴿ **قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ . .** ﴾[2] أهو رب المكان وحده؟ لا . إنه رب الزمان أيضًا ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[3] .

إن اليقين فى تلك السورة يؤسس على النظر العقلى المتأمل المستنتج الذى يستعرض شتى الفروض ، ثم يرفض الخطأ ، ويقر الصواب ، وإنك لترى ذلك فى السياحة الفلكية التى تضمنتها هذه السورة لإبراهيم عليه السلام ، وهو ينتقل من الكواكب إلى مكوكبها ، ومن الشارق الغارب إلى من لايغيب تجليه ، ولا تنقطع قيوميته على العالم الرحيب ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ** ﴾[4] .

(١) الأنعام : ١٠٤ . (٢ ، ٣) الأنعام : ١٢ ، ١٣ . (٤) الأنعام : ٧٥ .

ومن ثم نلحظ أن وصف الله فى هذه السورة يجىء أحيانًا بعد اسمه العلم الظاهر ، وأحيانًا بعد ضمير الغيبة ، فيكاد الوصف البارز ينقل ضمير الغيبة إلى ضمير حضور وقد بدأ ذلك من الصفحة الأولى فى السورة :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً .. ﴾[1] .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ .. ﴾[2] .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ .. ﴾[3] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ .. ﴾[4] .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .. ﴾[5] .

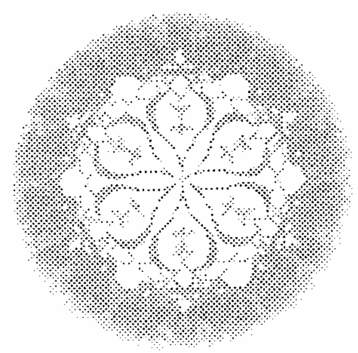
﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ .. ﴾[6] .

ويظل الأمر كذلك حتى آخر السورة ، فكما بدئت بضمير الغيبة الذى يبعث على الشهود ختمت به .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ .. ﴾[7] .

وهكذا تقف الإنسانية كلها بازاء الاختيار الكبير الذى ينتظم جميع أفرادها .. تقف أمام ربها العدل الذى يكلف كل امرئ بقدر ما أوتى من إمكانات مادية وأدبية ..

على أنه مهما تفاوت الذكاء البشرى بساطة وعمقًا ، فلا يجوز أن يعمى عن الله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور .



(1) الأنعام : ٢ .
(2) الأنعام : ٣ .
(3) الأنعام : ١٨ .
(4) الأنعام : ٦٠ .
(5) الأنعام : ٩٧ .
(6) الأنعام : ٩٨ .
(7) الأنعام : ٩٧ .

النهوض الحقيقى لأمتنا

النهوض الحقيقى لأمتنا هو قدرتها على الاستغناء بعلمها وإنتاجها ، والاستهداء بإيمانها وفضائلها ، والاستعلاء على متاع الدنيا بحيث تأخذ منه بقدر ، وتنصرف عنه متى تشاء . .!

ويؤسفنى التصريح بأن الشعوب الإسلامية ، حتى يومنا هذا ، لم تبدأ نهضة صحيحة ، وأن مظاهر التقدم التى نراها أو نسمع عنها هى امتداد لنشاط القوى الكبرى فى العالم أكثر مما هى تطلع المتأخرين للتقدم . .

فالغرب الصليبى يصطنع شعوبًا شتى لخدمة مآربه ويمدها بكثير من عونه المادى وقليل من تقدمه الحضارى .

والشرق الشيوعى ينافسه فى ذلك الميدان ، ويحاول الاستفادة من أخطائه ، أو يحاول ميراثه إذا انتهى فى مكان ما . .

وجمهرة المتعلمين أوزاع ، بعضهم يؤثر النمط الغربى فى الفكر والسلوك ، وآخرون قد أعجبتهم الماركسية فاصطبغوا ظاهرًا وباطنًا بنزعتها . .

أما الذين يتشبثون بالعقائد والفضائل الإسلامية ويريدون بناء المجتمع الكبير على دعائم الوعى المحمدى فقلة غامضة فى الناس ، ولا أقول منكورة الوجهة منكورة الحظ .

هب أن ثورة قامت فى بقعة من الأرض الإسلامية تجعل الحياة الصينية أو الروسية مثلها الأعلى ، أتكون هذه الثورة نهضة إسلامية . .؟ أم تكون نجاحًا للفكر الشيوعى العالمى . .؟

من أجل ذلك قلت : إن الشعوب الإسلامية لم تبدأ بعد نهضة صحيحة ، تكون امتدادًا لتاريخها ، وإبرازًا لشخصيتها أو نماء لأصلها وتثبيتًا لملامحها . .

ومن الغلط تصور أنى أحرم الاستفادة من تجارب الآخرين ومعارفهم!! كيف وهؤلاء الآخرون ما تقدموا إلا بما نقلوه عن أسلافنا من فكر وخلق ووعى وتجربة . .؟

إن دولة الخلافة الراشدة اقتبست فى بناء النظام الإسلامى من مواريث الروم والفرس دون غضاضة . .

وعندما آكل أطعمة أجنبية أنا بحاجة إليها ، فالجسم الذى نما هو جسمى ، والقوى التى انسابت فى أوصاله هى قواى!!

المهم عندى أن أبقى أنا بمشخصاتى ومقوماتى . .!!

المهم أن أبقى وتبقى فى كيانى جميع المبادئ التى أمثلها ، والتى ترتبط بى وأرتبط بها ، لأنها رسالتى فى الحياة ، ووظيفتى فى الأرض .

هذا هو مقياس النهضة ، وآية صدقها أو زيفها ، فهل فى العالم الإسلامى نهضات جادَّة تجعل الإسلام الحنيف وجهتها والرسول الكريم أسوتها . .؟

إننا هنا شديدو الحرص على جعل البناء الجديد ينهض على هاتيك الدعائم . .

وإذا كنا نستورد من الخارج ثمرات التقدم الصناعى ، وننتفع من خبرات غيرنا من آفاق الحياة العامة ، فليكن ذلك فى إطار صلب من شرائعنا وشعائرنا .

فإنه لا قيمة لأحدث الآلات إذا تولى إدارتها قلب خرب ، ولا قيمة لأفتك الأسلحة إذا حاول الضرب بها فؤاد مستوحش مقطوع عن الله مولع بالشهوات . .

إن بناء النفوس والضمائر يسبق بناء المصانع والجيوش ، وهذا البناء لا يتم إلا وفق تعاليم الإسلام .

تنشئة تصوغ الأجيال الجديدة ، وتقاليد تحكم العلاقات السائدة ، ورعاية ظاهرة وباطنة للعبادات المفروضة ، ومعالنة جازمة بما فى الدين من أهداف ، ومقاطعة حاسمة لما يعترضه من مسالك .

وكل بناء معنوى للأمة يتنكر للإسلام ، أو يخافت بذكره ، أو يغض من شأنه ، فهو مرفوض جملةً وتفصيلاً . .

ولقد جربنا جعل مظاهر المدنية فوق باطن فارغ مظلم فماذا صنعنا؟

صنعنا ناسًا : ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . .** ﴾[1] .

وهذا اللون من الناس فاشل فى سلمه ، مخذول فى حربه ، ما تسانده إلى غاية أرض ولا سماء .

البناء الحقيقى للنفوس يستهدف أمرين جليلين . .

أولهما : إسلامى بحيث يحرك المسلم من يقظة الفجر إلى هدأة الليل بحماس العقيدة ، وطهر الصلاة ، وشرف الإخلاص ، وحب الله ورسوله .

---

(١) المنافقون : ٤ .

وكلتا الجبهتين الشرقية والغربية تكره ذلك الأمر ، وتأبى أن يأخذ الإسلام طريقه فى الحياة بهذا الوضوح .

والأمر الآخر : حيوى بحت ، أساسه التفوق العلمى والعملى فى كل أفق امتدت إليه الحضارة الحديثة من استصلاح التُربة إلى غزو الفضاء!

ولنكن صرحاء! إن هذا التفوق لايولد من تلقاء نفسه ، إن التبريز فى هذا المجال يتطلب رغبة فى المعرفة ، وشوقًا إلى المجهول ، وعزمًا على اقتحام كل عقبة ، وهذه لاتلدها إلا عقيدة مكينة . .!

وإذا كانت الحاجة أم الاختراع كما يقولون فإن العقيدة المسيطرة أقوى من الحاجة فى الاندفاع والتحمل واستشفاف الغيوب . .!!

إن الجندى المؤمن يرمق الظلام فى جنح الليل بطرف يكاد يخترق سدوله ، ويبحث عن ألف حيلة لمقاومة العدو ودحره . .

والعامل المؤمن يجفف العرق ، وينفى عن نفسه التعب ، لأنه ببواعث الحب لا القهر ، يريد خدمة أمته وإعلاء رسالته . .

والمحزن فى شئون المسلمين أنهم من عشرات السنين لا يمكنون من الحياة وفق إيمانهم الأثير ، وأنهم ـ أيضًا ـ يلفظون كل ما يعرض عليهم من إيمان بديل . .!!

ونتج عن ذلك أن أعمالهم الخاصة ، ونهضاتهم العامة تولد ميتة ، وأنهم إن تحركوا ففى مكانهم . .!!

وقد تحركت اليابان منذ قرن فى موكب نهضة صناعية عارمة ، ونجت حركتها من هذا التدافع اللعين بين ما يفرض على الشعب من خارج ، وما يهفو إليه من داخل فماذا كانت النتيجة . .؟

أضحت أمة من أنجح أمم الدنيا ، ولاتزال برغم هزيمتها فى الحرب الأخيرة أمة مرهوبة العزم ، إن لم يكن فى صناعات الحرب ، ففى صناعات السلام . .

أما العالم الإسلامى خلال هذا القرن فقد رزق بمن يريدون محو دينهم أو تشويه صلته بهذا الدين ، فكانوا شؤمًا على يومه وغده . .

إن النهضة الحقيقية هى التى تفلح فى استثارة قوى النفس ، وفى جعل الأمة على اختلاف طوائفها كخلية النحل نشاطًا ونظامًا .

ولنزد الموضوع جلاء . . .

لقد نشأ عن الانفكاك بين العقيدة والعمل عجز رهيب فى أداء الأعمال العادية حتى ليخيل إلى أن عوام المسلمين أصبحوا دون غيرهم من الخلق فى نواحى الإنتاج المادى والأدبى . .

وكثيرا ما كنت أذكر قول أبى الطيب المتنبى :

إنا لفـى زمـن تـرك القبـيح بـه ... من أكثر الناس إحسان وإجمال

فأحس مقدار هبوطنا عن المستوى الإنسانى الرفيع فى الإتقان والإجادة . .!!

إن النجاة من السقوط قد تكون شيئًا مقبولاً ، ولكن ليس كل نجاح يحسب تفوقًا . . قد يبدأ إنسان من العرج ويستطيع السير ، ولكنه لايمنح جائزة بتاتًا فى العدو لمجرد القدرة على المشى . .

والمتنبى يحتقر أهل زمانه لأنهم فقدوا ملكة الإجادة ولا يحسنون فعل العظائم . .!!

فكيف لو رأى المعاصرين لنا من موظفين وعمال فى كل شأن دق أو جل .

إن هؤلاء ـ لانعدام بواعث الإيمان والتقوى ـ تعوج فى أيديهم الأعمال المستقيمة فلا يصلون بها إلى المستوى المقبول بله مستوى النبوغ والعبقرية . .!!

راقبت يومًا بعض الناس الذين تكثر دعاواهم ولا تؤمن بلاياهم ، ثم عدت من نظرتى إليه وأنا أضع يدى على سبب مبين من أسباب تأخرنا . .

نظرت إليه فوجدت العمل يخرج من بين يديه ناقصًا غير تام ، شائهًا غير جميل ، ووجدته لايأسى على ذلك ، ولا تحركه أشواق إلى إدراك ما فاته ، وبلوغ مرتبة أفضل .

فعلمت أنه إنسان تنقصه موهبة الإتقان ، وأن أمامه أشواطًا واسعة من التدريب والعلاج حتى تكسب يده المهارة المطلوبة ، وتستحب نفسه الإجادة والتفوق . .

وأعدت النظرة مرة أخرى فى سلوكه فرأيته يطلب على عمله الناقص ثمنًا كبيرًا ويرتقب من غيره التقدير المضاعف . .

أو هو يفرض على الآخرين مطالبه مهما فدحت دون تقديم مقابل معقول . .!!

فأحسست أن له طبعًا جشعًا كثير التطالع إلى طيبات الحياة . وليته يتوسل إلى مطامعه بجهد مبذول مقدور .

كلا ، إنه من الناحية النظرية ضعيف الكفاية ، ومن الناحية النفسية ضعيف الأمانة ، فأى بلاء هذا . .؟

أمثال هذه العلل هبوط حقيقى بالمستوى الإنسانى ، ونزول مؤكد عن مرتبة الإحسان التى يفرضها الدين ، ويبنى تربيته على تحصيلها .

إن الحصاد الغالى للجهد البشرى بعد طول الكدح فى هذه الحياة، أن يخرج الإنسان من هذه الدنيا بثمرة واحدة هى (العمل الحسن).

وذلك ما أكده القرآن الكريم عندما قال: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[1].

وقال: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾[2].

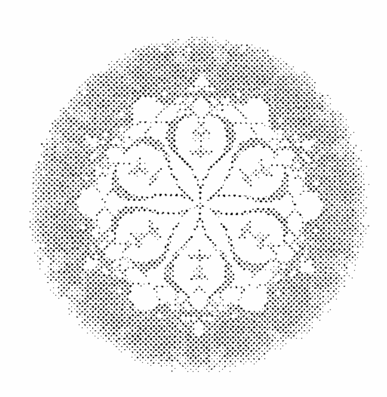
فأى عمل حسن لامرئ منطلق الرغبات كالطفل المدلل يطلب فقط، وعلى الدنيا أن تلبى..!!

إن النجاح الكبير فى هذه الحياة، وعند الله، أن تنمى عقولنا وقلوبنا تنمية توفى على الغاية، والله جل شأنه يقول: ﴿ **وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾[3].

الإيمان والإصلاح قرينان لا ينفكان.

وليس من الإصلاح المنشود المفروض أن يكون الإنسان غير مأمون على إجادة واجب أو غير مأمون ـ إذا أجاده ـ على المغالاة فيه، وطلب مكانة لايستحقها عليها!!

ومرة أخرى نقول: إن إعادة الحياة إلى العقيدة الإسلامية لتحتل مكانها فى الضمير، ثم إلى الشريعة لترسم خط السير فى المجتمع الكبير، هو وحده طريق النهوض الصحيح.



(١) الملك: ٢. (٢) الكهف: ٧. (٣) الأنعام: ٤٨.

«المتحنة» سورة الحب والبغض فى الله

التعصب وصف ردىء عندما يكون معناه جمود الفكر ، وانحصار الأفق ، والتشبث بالهوى ، والجنوح إلى الباطل مهما بدا عواره .

ونحن نرفض هذا الوصف ونأباه على أنفسنا وقومنا . .

. . ولكن عندما يكون التعصب أثرًا لاحترام الحق ، وإكبار أهله ، ودعم جانبهم ، وكره عدوهم ، فإن التعصب هنا يرادف الإيمان والجهاد ، ولا يتخلى عنه امرؤ ذو دين!!

وفى العالم اليوم :

* حقائق أرخصها الضعف . .
* وحقوق هضمها البغى . .
* وقوى شرسة استمرأت العدوان . .
* ومسلمون طمع فيهم من لا يدفع عن نفسه ، حتى كان البغاث بأرضنا يستنسر!!

. . أفلا يوقظنا مرأى هذه الصور الكريهة إلى أن نعرف من نحن؟ وماذا نحمل من رسالات الله؟ وماذا نستطيع أن نسديه لأنفسنا وللعالم أجمع لو غالينا بديننا وتاريخنا ، وشققنا الطريق إلى المستقبل على سناه الهادى .؟

وعندما أقرأ سورة «الممتحنة» يحيا فى نفسى معنى التعصب للحقيقة ، والدفاع عنها ، والوقوف إلى جانبها على رقة الحال ، وكآبة المنظر فى الأهل والمال!!

إنه ليس من الشرف أن أجامل من يهين الحق ، وليس من صدق اليقين أن أمالئه وأترضاه .

وقد نزلت سورة «الممتحنة» لتلقن المؤمنين هذا الدرس حتى يبقى حيًا فى نفوسهم إلى يوم الدين ، فقال جل شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ ﴾[1] .

---

(١) الممتحنة : ١ .

.. عيب واضح أن أصادق عدو الله وعدوى ، وأن أبسط يدى ولسانى له بالسلام ، وهو يزدرى ما عندى ـ ولا يتوانى!! ـ ومن هنا عللت السورة النهى عن المصافاة ، فقالت بعد إثبات كفرهم :

﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ .. ﴾ .

لماذا؟ ﴿ .. أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ .

ثم اطرد السياق القرآنى يقول :

﴿ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي .. ﴾ .

أى فلا تسلكوا هذا المسلك ، وتطووا قلوبكم على حب من طردكم وأهانكم!! كيف تفعلون هذا؟

﴿ ..تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾؟

والتعبير «بأنا» فى هذا الموضع يفرض علينا أن نتوقف قليلاً لنتدبره ، فقوله جل شأنه :

﴿ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ ﴾ فيه معنى التحذير من الرقيب الخبير .

وهذا المعنى صرحت به سورة أخرى من مثل هذه القضية قال تعالى :

﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾[١] .!!

والغريب أن هذا التحذير يتكرر فى الموضع نفسه ، مؤكدًا علم الله بما نخفى وما نعلن ، حتى لانتورط فى مسالمة عدو يبتغى إبادتنا ، أو الوقوف منه موقفًا بعيدًا عن الصرامة والمفاصلة ، فقال جل شأنه :

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾[٢] .!!

---

(١) آل عمران : ٢٨ .　　(٢) آل عمران : ٣٠ .

تحذير يتكرر مرتين بعبارة رهيبة هى ﴿ . . . يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ إنها هناك توضيح لقوله هنا : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾(١) .

هكذا بدأت سورة «الممتحنة» تعلمنا ضرورة التعصب للحق ، والتمسك بأهدابه ، وكراهية المعتدين عليه ، والنفور من مودتهم .

وإذا كان هذا المعنى الحاسم قد تصدرها : فإنه قد تمشى فى آياتها على صورة متفاوتة ، ثم كان لها الختام المبين فقال جل شأنه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾(٢) .

إن «الأحياء» من الكفار قد قنطوا من عودة إخوانهم الذين ماتوا إلى الحياة مرة أخرى ، أو أن «الموتى» من الكفار قد يئسوا من الحصول على مكانة عند الله فى الدار الآخرة .

سواء كان هذا المعنى أو ذاك فإن المؤمنين لا يليق أن يصادقوا قومًا تلك حالتهم!!

ولنلق على السورة من بدئها إلى ختمها نظرة جامعة نتعرف بها أسباب النزول كما ذكرها المفسرون والمؤرخون .

***

لقد استغرق نزول هذه السورة ــ على وجازتها ــ قريبًا من عامين ، وصدرها نزل فى السنة «الثامنة» عندما قررت الكتائب المؤمنة أن تجهز على الوثنية المتحكمة فى مكة ، وأن تعيد إلى دائرة التوحيد هذا المعقل الأشم .

ووسط السورة نزل فى السنة «السادسة» بعد ما تم «عهد الحديبية» بين المسلمين وأهل مكة ، وبدأ التنفيذ وظهرت بعض المشكلات .

وآخر السورة نزل بعد الفتح الكبير ، وإقبال أهل مكة رجالاً ونساءً على مبايعة الرسول ﷺ والالتزام بتعاليم الإسلام .

(١) الممتحنة : ١ .
(٢) الممتحنة : ١٣ .

ومع الاختلاف الزمنى الملحوظ فى نزول الآيات فإن ترتيبها لم يفقد ذرة من الاتساق والتماسك ، بل هو نسق من الإعجاز السارى فى أسلوب القرآن الكريم كله .

وأشعر بأن القرآن فى علم الله القديم كان على هذا الترتيب الذى نحفظه ، وأن الآيات كانت تنزل وفق الأحداث ، ثم يأمر الرسول بوضعها فى مكانها بتوقيت إلهى ، فتعود إلى وضعها الأزلى على النحو الذى يقرأ الآن .

والمحور الذى دارت عليه السورة كلها هو الحب والبغض فى الله ، وهو قاسم مشترك بين أجزاء السورة منذ بدأ النزول ، ولذلك فإن وحدة الموضوع ظاهرة شائعة فيها ، ففى أوائل السورة نقرأ كيف رفض القرآن الكريم ما وقع من «حاطب بن أبى بلتعة» الذى راسل أهل مكة يخبرهم باستعداد الرسول للسير نحوهم ، كى يأخذوا أهبتهم!! وهو عمل شنيع ، ولولا أن رسول الله ﷺ عفا عن الرجل تقديرًا لسابقته فى خدمة الإسلام لكان جزاؤه القتل .

وهنا نرى الوحى ـ بعد استنكار التصرف السابق ـ يقول للمؤمنين : ﴿ **لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[1] . أى لايجوز أن يخفف شىء ما من حدة الخصام للكفر وشيعته ، ولو كان الحرص على القرابة والولد والمال فإن جانب الله أولى بالرعاية .

والمثل الأعلى أن يقول المؤمنون لأعدائهم :﴿ **إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾[2] .

وهذه مصارحة بالقطيعة فى سبيل الله ، ومعالجته بالحب لله والبغض لله ، وليس أمام المؤمنين إلا هذا السلوك .

وقد كان إبراهيم والمؤمنون معه على هذا الغرار ، وإذا كان إبراهيم قد لاين أباه يومًا وقال له : ﴿ **لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾[3] .

(١) الممتحنة : ٣ .　　(٢) ، (٣) الممتحنة : ٤ .

فذلك اللين ليس مهادنة للضلال ، ولا ضعفًا فى الإحساس بحق الله «كلا» :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[1] . .

وهكذا تقطعت أغلى الصلات إيثارًا لحق الله .

. . إن حق الله على عبده لا يرجحه شىء فى الأولين ولا فى الآخرين ، والاستهانة به ضلال مبين .

هل هذا التهجم الشديد ضد الضلال والضالين يرجع إلى غلظة طبع أو شراسة خلق! لا . . لا . .

إننا فى شوق ، إلى سيادة السلام ، وامتداد عواطف الحب إلى كل قلب ، والأمر بيننا وبين خصومنا واضح مستقيم ، فمن حاسننا حاسنَّاه ، وكنا أسرع إليه بالود والرحمة .

ولكن كيف نلين مع من استباح كرامتنا؟ ونشد إساءتنا وإهانتنا ، وأخرجنا من ديارنا وأموالنا! إن مصادقة من يفعل ذلك بنا نذالة ، وخسة لايهبط إليها مؤمن!! قال تعالى :

﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2] .

والظلم هنا الهوان ، وقبول الدنية ، والاستكانة إلى الضيم ، والرضا بحياة الفسوق والمروق ، والعيش فى كنف الفاسقين المارقين .

هذا صدر السورة الذى استغرق نصفها ، ونزل فى السنة «الثامنة» .

أما وسطها الذى نزل من قبل ، فهو يعود بنا إلى نص فى معاهدة الحديبية يقضى بأن يرد المسلمون عن المدينة من لحق بهم مؤمنًا من أهل مكة ، وإن كان أهل مكة يقبلون من لحق بهم مرتداً . .!!

(١) التوبة : ١١٤ .

(٢) الممتحنة : ٨ ، ٩ .

ومع أن الأيام أثبتت جدوى هذا النص على المؤمنين إلا أن القرآن الكريم استثنى النساء ابتداء من تطبيقه وأمر المؤمنين أن يمتحنوا المؤمنات الفارات بدينهن فإذا علموا منهن صدق الاعتقاد وشرف الغاية قبلوهن فى المجتمع الإسلامى فورًا . .

إن هؤلاء النسوة المهاجرات التاركات لأزواج كافرين يجب أن نرحب بهن ، وأن نقدم تحية إكبار للعاطفة التى خرجت بهن إلى دار الإيمان ، لقد كرهن رجالهن وفارقنهم لله فلا ينبغى أن يعدن لهم قال تعالى :

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾[1] .

وإتمامًا لإقامة المجتمع على احترام الدين ، وإعزاز مشاعر الحب والبغض لله صدر الأمر بتسريح الزوجات الكافرات : **﴿ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾**[2] .

. . إن قبول هؤلاء النساء المؤمنات ومفارقة الكافرات تشريع متكامل ، وحكمته واضحة ، وقد نفذت معاهدة الحديبية بالنسبة إلى الرجال الذين ما لبثوا أن نظموا حرب العصابات ضد أهل مكة حتى اضطروهم إلى أن يطلبوا من الرسول قبولهم فى المدينة!!

ونصل إلى آخر السورة لنقرأ بيعة النساء ، كان ذلك بعد فتح مكة واستسلام أهلها لكتائب الرحمن .

إن أولئك الناس طالما آذوا الله ورسوله ، وها هى ذى «هند» المرأة التى أكلت كبد حمزة قد أعلنت دخولها فى الإسلام ، فماذا نصنع معها!

لاشىء !! ننسى الماضى ، ونغفر الأخطاء ، ونعلمها وصاحباتها كيف تتأدبن بآداب الإسلام ، ثم يصبحن ـ بعد ـ أخواتنا :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3] .

---

(١) الممتحنة : ١٠ .   (٢) الممتحنة : ١٠ .   (٣) الممتحنة : ١٢ .

نعم . إن الله غفور رحيم ، فلننسى الماضى ولنتحاب فى الله .

لقد كان القرآن فى هذه السورة يرقب متاب هؤلاء وعودتهن إلى الصواب وإقلاعهن عن إيلام المؤمنين ، قال تعالى :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١) .

والمودة المرتقبة إنما تقع من أناس يخف ضغط التعصب على قلوبهم ورءوسهم ، ويجوز أن تنقشع غيوم الغفلة عن آفاقهم وضمائرهم .

فإن المرء قد يخطئ لملابسات معينة أحاطت به ، وربما ظل على خطئه لأن هذه الملابسات بقيت فى مكانها ، لم تجد من يزيلها أو ينتقصها . .

لكن ما الموقف إذا تشبث الإنسان بالزلل وهو يدعى إلى الاستقامة؟

أو أصر على الخطأ وهو يرى وجه الحق وضيئًا مشرقًا؟

إن هذا الإنسان أجدر خلق الله بالمقت وأولاهم بالعقاب الآجل والعاجل . وإنك لترى الوحى الإلهى طافحًا بالوعيد وهو يتناول أولئك الجاحدين من صرعى التعصب الأعمى .

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾(٢) .

ولنلفت النظر إلى أن الغفلة هنا ليست قصور عقل عن المعرفة الغائبة ، ولكنها بلادة قلب عن استيعاب المعرفة المبذولة ، والنصح القريب!

وهذا هو التعصب الذى يأباه على نفسه كل عاقل أو منصف .

والقرآن فى آيات كثيرة يلمح إلى هذا المعنى وإن لم يذكر التعصب بلفظه ، فإذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٣) .

---

(١) الممتحنة : ٧ . (٢) الأعراف : ١٤٦ . (٣) البقرة : ٦ .

فإن المقصود أناس طال نصحهم وطالت لجاجتهم ، طال تعليمهم وطال صدودهم . . وليس المقصود وصف أقوام تعرض عليهم الدعوة لأول مرة .

وبديهى أن ينتهى هذا الصدود بما ينتهى به كل جحد وتبجح ، من استمراء للشر واستهانة بالخير واستحلاء للقبيح .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴾[1] .

***

وقد صحب التعصب من قديم حيف شديد على أهل الإيمان ، وتطاول على حقوقهم المادية والأدبية ، وتصوير كذوب لأقوالهم وأعمالهم ، وإلحاق للمعايب والمقابح بسيرتهم وتاريخهم ، وكان نصيب الأمة الإسلامية كبيرًا من هذا التعصب الجائر الآثم .

ولست أستغرب مسالك الأشرار إذا جاءت وفق طبائعهم ؛ فإن الذئب المفترس لايستكثر عليه أن يعقر ويغتال . .

إنما الغرابة من موقف المسلمين الذين كثرت حولهم الأنياب الجائعة ، والطوايا الكنود ، ومع ذلك فهم غارون مسترسلون فى «طيبتهم» وتهاونهم . . فإلى متى؟

إن أرضنا انتقصت من أطرافها شرقًا وغربًا وفق خطة رسمت بأناة وروية . . . ثم بدأت الإغارة على قلب العالم الإسلامى استكمالاً للإجهاز عليه طولاً وعرضًا ، فهلاّ عرفنا ما يراد بنا؟

إن فى العالم الآن طوفانًا نجسًا من التعصب ضد الإسلام وأمته ، وأمامى وأنا أكتب هذه السطور أنباء الدماء المراقة والأشلاء الممزعة للمسلمين المستضعفين فى الفلبين ، وما قصة الإسلام الذبيح فى الفلبين إلا نموذج مكرر لأقطار أخرى من الأرض ، أهين فيها الدين ، واستبيح حماه ، وشرد أهلوه ، وأكلت حقوقهم!! بل إن المسلمين ـ حيث

---

(١) النحل : ٤ ، ٥ .

يكونون كثرة فى بلاد أخرى ـ تجرأ عليهم كل ذى ملة ، وتطلع إلى ما لم يكن يحلم به فى يوم من الأيام!!

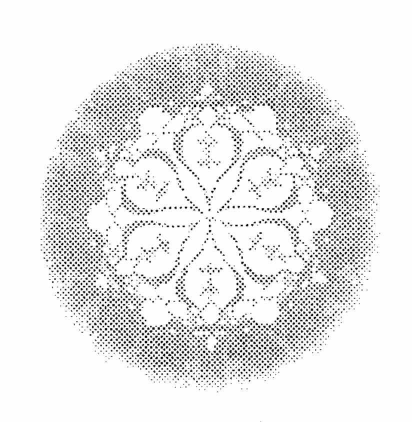
ألا نتعلم التعصب للشرف والعرض والأرض فى هذه الظروف العصيبة؟ لعلنا . . لعلنا . .

فإذا تحقق ما نصبو إليه فلله الحمد .

. . . نحن ما نسعى إلى قتال ولا نشتاق إلى سفك دم .

لكن إذا فرض علينا القتال فإن الذرة من التهاون فى كراهية المعتدين جريمة . .

يجب أن ندخل المعركة بكل ما لدينا من غضب وقسوة وصرامة؟



صورة شاملة لسورة يس

من التفسير الموضوعى :

لن نحتاج إلى كبير عناء فى استبانة الخيوط الخفية التى تشد أجزاء هذه السورة وتجعل من معانيها وأغراضها كيانًا متماسك الحقائق وضىء الملامح . .

بدأت السورة بقسم جليل . . قسم بما فى الدليل من دقة وحكمة على صدق الدعوى ووجاهة صاحبها!! ﴿ **وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ .

إن القرآن هو الشاهد الثقة على أن محمدًا حق .

وما تضمنه القرآن من حكمة بالغة : حجة فوق الريب على أنه وحى من السماء ، وأن الذى يتلوه مصدق الدعوة راشد الطريق .

ثم تضمنت السورة تمهيدًا وجيزًا عن مواقف الناس من هذه الرسالة وانقسامهم بين مؤيد ومعارض وليس ذلك عجبًا .

فالناس من قديم الزمان صنفان : صنف يحتبس فى المواريث الفكرية التى آلت إليه لا يعدوها ولا يحب أن يخترجه أحد من نطاقها ، وصنف آخر مرن التفكير ، حر الوجهة يعطى نفسه حق المقارنة والترجيح ثم ينطلق بعدئذ على ماأحب .

ومن الصنفين جميعًا كان الكافرون والمؤمنون .

وعقب هذا التمهيد ثلاثة مشاهد متميزة استغرقت السورة كلها ، ودارت على محور واحد : هو إضاءة الطريق أمام السائرين وسط الأدلة التى تدعم الحق ، وتذيب التعصب للباطل ، وتبنى الإسلام على أصوله العتيدة من حركة العقل ، ووعى التجارب ، واحترام الفطرة . .

* المشهد الأول : دليل تاريخى من الماضى البعيد يقص نبأ القرية التى قاومت المرسلين ، وكذبت تعاليمهم فأصابها ما أصابها .

(١) يس : ١ ، ٣ .

* والمشهد الثانى : دليل من الحاضر المحسوس يلفت النظر إلى آيات الله فى البر والبحر والفضاء ويرجع البصر بين فجاج الأرض وآفاق السماء كى يستخلص العبر الدالة على رب العالمين .

* والمشهد الثالث والأخير : دليل من المستقبل الآتى يؤكد للبشر أن لعالمهم الذى يعيشون فيه أجلاً ينتهى إليه ، وأن وراءه عالمًا آخر يسعد فيه المهذبون العقلاء ، ويشقى فيه من سفه نفسه ، وحقر عقله ، وأساء سيرته ، وفقد شرفه . .

من التمهيد الذى افتتحت به هذه السورة الكريمة ، ومن تلك البراهين الثلاثة المستمدة من الماضى والحاضر والمستقبل تكونت (يس) .

ونستطيع أن نلمح الروابط بين أول السورة وآخرها إذا ماأعدنا قراءتها متدبرين حال العرب الذين فوجئوا ببعثة محمد يدعوهم إلى توحيد الله ، وحمل الرسالة التى اصطفاهم الله لها ، ومتدبرين كذلك الأدلة المثيرة المتلاقية كلها على أن الله حق ، ونبيه حق ، وهى أدلة كانت ولا تزال تهدى الحيارى فى كل زمان ومكان . .

فلنعد مرة أخرى إلى التمهيد ومابعده . .

إن ناسًا كثيرين يحيون داخل فكرة ثابتة سيطرت عليهم دون بحث أو نقاش . .

والسجناء فى أوهامهم ينظرون يمينًا ويسارًا فلا يرون إلا السدود التى احتبسوا فيها ، والأحوال التى عاشوا فى ضيقها وجهلوا ماوراءها ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ** (٨) **وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ** ﴾[١] .

والأغلال التى تحيط بالرجل العتيد وتجعله يعجز عن لى عنقه هنا وهناك فى حركة حرة يبصر بها شتى المناظر والأوضاع . .

. . . هذه الأغلال من صنع نفسه ابتداء وما ضاعفها الله عليه إلا لأنه هو يريد استبقاءها كما قال جل شأنه فى سورة أخرى .

﴿ **قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا . .** ﴾[٢] .

ويستطيع أى امرئ أن يخرج من ذلك السجن الظلوم إذا رحم نفسه وخشى ربه وعرف الحكمة من محياه ومماته . . . إنه عندئذ يؤمن بالله ويهتدى بوحيه ، وذلك مابدأت الأدلة تنساق لتحقيقه .

---

(١) يس : ٨ ، ٩ . (٢) مريم : ٧٥ .

فلنقف قليلاً عند المشهد الأول منها ، وهو الذى يبدأ بقوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾(١) .

لقد كذب أهل القرية رسالات السماء تقريبًا كما فعل أهل مكة ، وقالوا لرسلهم :

﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ .. ﴾(٢) .

وماذا يملك الأنبياء للناس؟ إنهم لايحملون عصًا يسوقون بها الجماهير ولكنهم يملكون قدرة على الإقناع وتجلية الحقائق لذلك قالوا : ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾(٣) .

بيد أن العميان يكرهون الضوء ، وما كان عليهم من بأس لو تركوا رسل الله يتكلمون بما لديهم فمن ارتضى منطقهم دخل فيه وإلا انصرف عنه .

إن أهل القرية لم يفعلوا ذلك بل قالوا لهم : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٤) .

وأقبل من بعيد رجل منصف لم يذكر القرآن اسمه ليكون أسوة للرجال الذين إن حضروا لم يعرفوا وإن غابوا لم يفتقدوا . . الرجال الذين يعملون بعيدًا عن الشهرة والظهور .

وتحدث الرجل حديث العقل : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾(٥) .

مادام الله هو الذى خلق ومادام المرجع إليه فما معنى البعد عنه والتجهم لهداه؟؟ ولمن أذهب؟ ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(٦) .

وذهب الرجل ضحية الإيمان الذى أعلنه وشرح أسبابه . . ويبدو أنه كان عميق الإخلاص لقومه شديد الرغبة فى هدايتهم فلما استقبلته بشاشة النعمة والرضوان تمنى لو أن قومه يعلمون ذلك المصير . . ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾(٧) .

---

(١) يس : ١٣ . (٢) يس : ١٥ . (٣) يس : ١٧ .
(٤) يس : ١٨ . (٥) يس : ٢٢ . (٦) يس : ٢٣ .
(٧) يس : ٢٦ ، ٢٧ .

فماذا كانت عاقبة مكذبى الرسل ، ومهددى الحريات ، ومخرسى صوت العقل؟ هل احتاج الأمر إلى تجريد جيش من السماء لتأديبهم؟ كلا ، يقول الله : ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** ﴾(١) .

كان جديرًا بأبناء آدم أن يعوا هذا المصير ، وأن يرويه الأسلاف للأخلاف غير أن عبر الماضى تمر دون أن يذكرها الكثيرون ، ولو استفاد الحاضر من الغابر لتجنب الناس ويلات شتى .

ومع روعة المثلات الأولى فإن الإفادة منها قلت إلى حد أن القرآن الكريم يرسل هذه الصيحة المندِّدة المفنِّدة ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾(٢) .

فلنطو هذا المشهد ولنلق نظرة على مشهد ثان فى هذه السورة يعرف الناس بربهم ويقفهم أمام آياته التى يرونها فى الصباح والمساء .

يبدأ هذا المشهد بوصف ماتنبت الأرض . خذ حفنة من هذا التراب الذى لانهاية له فى الحقول والحدائق . أترى فيه سكرًا أو دهنًا أو نشًا أو أملاحًا أو ألوانًا أو غير ذلك كله مما تحسه وتطعمه فى الحبوب والفواكه التى تأكلها . . كيف خرجت من هذا الطين البارد الجامد شتى الألوان التى تصبغ الثمر والزهر بالصفرة والشقرة ، وكيف خرجت الطعوم الحلوة من هذا الكدر والقذى؟؟ ومن لف هذه الحبوب فى أغلفتها المحكمة ولف هذه الفواكه فى قشورها الزاهية : ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ** ﴾(٣) .

ودليل ثان مما يمتد إليه سمع الناس وبصرهم من ترادف الليل والنهار عليهم . . إن انحصارنا فى حركاتنا المحدودة يشغلنا عن حركة الفلك الدائر ، وذلك أننا نصبح ونمسى ونودع شتاء ونستقبل صيفًا دون أن ندرى كيف تداولنا الليل والنهار والحر والبرد .

إن ذلك كله نتيجة جريان هائل للكوكب الذى نسكنه والكواكب التى تشرف علينا ، وهو جريان مرهوب السرعة فى هذا الفضاء الرحب .

---

(١) يس : ٢٨ . (٢) يس : ٣٠ . (٣) يس : ٣٣ ، ٣٥ .

ومع أننا نسكن كونًا دوارًا لاينى يسبح فى ملكوت شاسع الأبعاد فإن هذا الدوران وذلك السبح محكومان بنظام محيط ملجمان بزمام ضابط ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾[1] . ودليل ثالث من هذه السفن التى تجرى فى الماء بقدر أن الأجسام ترسب وتطفو وفق قانون مدروس مطرد ، ومن ثم أمكن صنع سفن فى أحجام الجبال تحمل الألوف من الأنفس والقناطير المقنطرة من المتاع ، ثم تنطلق متهادية فوق اللجج لو شاء ربها أبقاها فوصلت إلى مرافئها سالمة أو شاء نفخ فى الأمواج الحاملة فأرغت وأزبدت ورمت فى قاع البحر بما حملت فما يستطيع أحد إسداء عون ، ولا إنجاء هالك .

﴿ **وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ** ﴾[2] . ودليل رابع من هذه الأنعام المسخرة لنا ننتفع من محياها ومماتها . .

لكن قبل أن نشرح هذا الدليل وغيره ينبغى أن نذكر أن وسط السورة قد قام على معنى محدد معقول أما المشهد الخاتم للسورة فهو حديث عن البعث والجزاء يبدأ من قوله تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ** ﴾[3] . ويستمر هذا الحديث إلى نهاية (يس) وربما تخلله من المشهد الثانى مايلفت العقل إلى آيات الله الجديرة بالنظر كقوله جل شأنه ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ** ﴾[4] .

ألا إن ذلك الامتداد العقلى لايقص من انفراد آخر السورة بكلام مثير عن نهاية العالم وبداية عصر الثواب والعقاب . فلننعم النظر فى المشهد ، إنه ينبئنا بأن أمر الله يأتى مباغتًا والناس مستغرقون فى أعمالهم اليومية لا يتوقعون حدثًا ما . .

قد يخرج الموظف إلى عمله فلا يبلغ الديوان إلا وقد وقعت الواقعة .

أجل وربما قامت الساعة والخادم ذاهب لشراء بعض السلع فلا يعود بها ، وتصوير القرآن لقيام الساعة يوضح أنه يتم والناس مسترسلون فى الحديث حول شئونهم

---

(١) يس : ٤٠ .
(٢) يس : ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) يس : ٤٨ ، ٤٩ .
(٤) يس : ٧١ ، ٧٢ .

يتجادلون فى تقرير وجهات نظرهم وبينما هم كذلك ينفخ فى الصور ﴿ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ .

حتى الهاجعون فى مقابرهم من آماد بعيدة . . إن قومتهم ليوم الحساب تجيئهم مفاجئة حتى ليصيحوا دهشين : ﴿ مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ . . ويجيب كل شىء ﴿ . . .هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾[1] .

ولانمضى فى وصف النعيم ، وترغيب المؤمنين فيه ، ولا فى وصف العذاب ، وترهيب المنحرفين منه ، وإنما نتوقف لنتأمل فى بعض أدلة البعث التى ختمت بها السورة .

ألم تسأل نفسك يومًا : ماذا كنت قبل مائة عام قبل أن يوجد هذا البدن المكتنز بالشحم واللحم ويتوقد فيه هذا الروح المنعم بالفكر والشعور؟ ماذا كنا ؟؟ بعض هذا الهواء المنتشر فى الجو؟ بعض هذا التراب الممتد على الأرض؟ لاندرى . .!!

وإذا كان ذلك نسبنا المادى فمن أى أصل تولد الفكرة والشعور؟

إننى أجزم بأنى وجدت بعد عدم ، وأن هذا الإيجاد يتكرر جيلاً بعد جيل ومع دلالة هذا الخلق على رب مبدع عظيم على رب مقتدر حكيم . . مع هذه الدلالة الصارخة فإن هناك صمًا لايسمعون وعميانًا لايبصرون وناسًا يتكلم أحدهم عن الله ولقائه بجهل غريب ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾[2] .

وإن الشخص الذى يعرف من أى باب دخل الحياة لايليق به أن يرسل هذا السؤال ، إنه يتناقض مع نفسه حينما يستبعد وجودًا كان هو صورة حية له ودليلاً أبديًا على إمكانه . .

من يحيى العظام وهى رميم؟ يحييها منشئ الإنسان من نقطة الصفر ، إن البعث ليس وعدًا بشىء يتم فى المستقبل فهو يستغرب الآن . .

إن تكرار العمل يتم كل يوم بل كل ساعة من ليل أو نهار فما وجه الاستغراب فى وقوعه؟؟ ولكنه الجهل الغليظ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا . . ﴾[4] .

---

(١) يس : ٥٠ . (٢) يس : ٥٢ . (٣) يس : ٧٧ ، ٧٨ . (٤) يس : ٨٠ .

فلنرسل فكرنا وراء هذه اللفتة ، هناك فى الحقول الناضرة والحدائق الغناء حيث الصمت السائد والنماء البطىء «يتنفس» النبات دون أن نشعر وفى شهيقه وزفيره يقول علماء الطبيعة أنه يمسك «الكربون» ويرسل «الأكسوجين» يمسك النار ويرسل لنا الحياة ماأعجب القدرة وماأغرب هذه المتناقضات . .

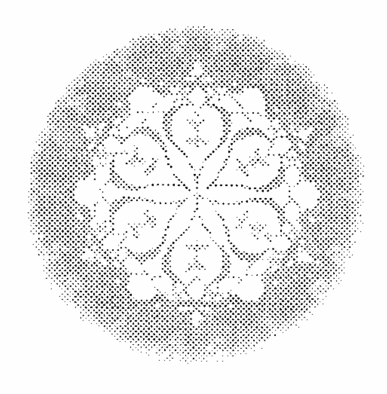
ومضى النظم الكريم يستكمل أدلة البعث ، ويشرح دلائل العظمة الإلهية ليختم السورة بهذا الختام ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾[1] هذه سورة «يس» ، مقدمة تناولت رسالة محمد بالشرح الوجيز وتناولت معارضيه ومؤيديه بالتعليق اليسير ثم ثلاثة مشاهد فصلت وجه الحق فى هذه الرسالة الخاتمة تفصيلاً تناول العالم من أزله إلى أبده واستطاعت أن تدفع الباطل وتذروه هباء .

هذه هى السورة التى ارتفع صوت الوحى فيها ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾[2] ومع ذلك فإن جماهير المسلمين تواضعت على قراءتها فى المقابر بين رفات الموتى .

ألا ما أظلم المسلمين لكتاب ربهم ، وتراث نبيهم ، وأساس تاريخهم ، ومهاد حضارتهم .

ولسنا نزعم أن المقدمة والمشاهد الثلاثة المذكورة قد انتظمت فى قوالب فنية كما يصنع العلماء المحدثون فى تأليفهم ، كلا إن القرآن أكبر من ذلك فاحتواؤه على المعانى يشبه احتواء الكون المادى على مصادر المعرفة فى وحدة لاانفصام بين أجزائها .

ولكننا فى هذا اللون من التفسير نجتهد فى اكتشاف محور تدور عليه السورة كلها أو ملامح تشيع فى كيانها العام . ثم نصف ذلك للقارئ حتى يحسن الانتفاع بالكتاب الكريم . .



---

(١) يس : ٨٢ .

(٢) يس : ٧٠ .

الإلحاد ليس تطوراً

ربما شك بعض الناس فى حقيقة الدين الذى يعتنقه ، أو فى جدواه عليه . .!

فإن ساور هذا الخاطر أحدًا من خلق الله ، فإن العربى آخر امرئ يعرض له هذا الظن ، بل يقرب من المستحيل أن يساوره . .!!

ذلك أن فضل الإسلام على العرب كفضل الضياء والماء على الزرع . .

لا أقول : أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، بل أقول : أوجدهم من عدم ، وجعل لاسمهم حقيقة ، وأقام بهم دولة وأنشأ حضارة . .!

قد تكون بعض العقائد عقاقير مخدرة للنشاط البشرى . .!

لكن الإسلام لما جاء العرب شحذ هممهم ، وأنار عقولهم ، ووحد صفهم ، وطار بهم إلى آفاق مادية وأدبية لم يحلم بها آباؤهم ، ولا تخيلها أصدقاؤهم أو أعداؤهم . .!!

ومضى العرب فى طريق المجد الذى شقه الإسلام لهم ، فعرفهم العالم وكان من قبل يجهلهم ، وأفاءوا على ماضيه القريب مالاينكره إلا متعصب كنود . .!

وارتبطت مكانة العرب الذاتية والعالمية بهذا الدين ، فهم يتقهقرون إذا تخلوا عنه ، ويستباح حماهم! وهم يرتقون ويتقدمون إذا تشبثوا به ، وتحترم حقوقهم . .!

على عكس ماعرف فى أمم أخرى لم تستطع التحليق إلا بعد ماتخففت من مواريثها الدينية ، كلاً ، أو جزءًا . .!!

وقد استطاع مسلمو الجزائر فى هذا العصر أن يستخلصوا حريتهم من براثن عاتية ، وأن يدفعوا ثمن هذا الخلاص مليونًا ونصفًا من الشهداء!!

وماينبغى تقريره فى هذا المجال أن الإسلام وحده كان وقود هذا الكفاح القاسى ، الإسلام لا القومية . .!

فلما ظفر الجزائريون باستقلالهم بدءوا يستعيدون عروبتهم التى فقدوها خلال قرن وربع ، وضعت مشروعات لجعل الأفراد والجماعات ينطقون بالعربية ويتفاهمون بها ، بعد ماكادت هذه اللغة تبيد أمام زحف الفرنسية وسيادتها فى الشوارع والدواوين . .!!

إن الإسلام بالنسبة إلى العروبة ولى نعمتها وصانع حياتها ، وقد اعترف مسيو (جارودى) ـ وهو شيوعى فرنسى عاش ردحًا من الزمن فى جبهة التحرير الجزائرية ـ قرين الإيمان .

وينصح الأمة كلها بالطاعة والإصلاح ويتهدد عدوها بالطرد والهوان ، ثم يأمرها بالمقاومة ورفض الاستسلام ، وسيكون المستقبل لها إن هى أبقت حبلها موصولاً بربها :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾[1] .

الإسلام ولى نعمتنا وصانع حضارتنا
سيبقى الليل حتى يحمل العرب رسالة الإسلام

أعترف بأن الدين وحده هو الذى أوقد شرر هذا الكفاح العزيز الغالى ، وأن الإسلام يستحيل أن يوصف بأنه مخدر للشعوب . .!!

والإسلام لايجعل من العرب شعبًا مختارًا يفضل غيره لسلالة معينة أو دم خاص ، كلا كلا ، إن الله اختار لعباده تعاليم راشدة وشرائع عادلة ، ثم وكل إلى العرب أن يحملوا هذه التعاليم والشرائع ، ليعملوا بها وليعلموها من شاء . .

والله يأبى كل نعرة عنصرية أو استعلاء قومى . .

إنها مبادئ محددة ، تنطلق الأمة منها ، فتكون بعين الله ، أو تند عنها فيدعها الله لنفسها . .!!

بالوفاء لهذه المبادئ تصعد ، فإن فرطت هوت . .

ولذلك يقول الله للمنهزمين فى أحد : **﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾**[2] فالعلو والتدبر فى هذه الآيات الثلاث يعطى فكرة بينة أن تفضيل الأمة هو تفضيل سلوك ، ومنهج ، لا تفضيل دم أو لون .

---

(١) محمد : ٣٣ : ٣٥ .　　(٢) آل عمران : ١٣٩ .

وأن الإيمان الشريف والاستقامة الواضحة أساس العزة المنشودة . . وأنه مهما لاقى المسلمون من صعاب وهزائم فلا يجوز أن يقبلوا سلمًا مخزيًا ، ولا أن يعطوا الدنية من أنفسهم .

ولهم أن يركنوا إلى الله ، ولن يذل جانبهم ، ما آمنوا به وعملوا له . .

واليقظة العزيزة التى صنعها الإسلام وهو يبنى الأمة يمكن أن نتابعها فى مرحلتين :

الأولى : فى العهد المكى ، يوم كان المسلمون قلة تتوقع الضيم ، ويتجرأ عليها الأقوياء! لقد أمر المسلمون إبان هذه المحن أن يثبتوا ويشمخوا بحقهم ، ويتنكروا لكل هوان ينزل بهم ، ويطلبوا ثأرهم ممن اعتدى عليهم ، فإن عفوا فعن قدرة ملحوظة لا عن ادعاء مرفوض . .!!

انظر كيف وصفت سورة الشورى المكية طلاب الآخرة الذين يؤثرون ماعند الله على هذه الدنيا ، إنهم ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾[1] .

فطلاب الآخرة ـ كما وصفتهم السورة المكية ـ ليسوا الذين يعيشون فى الدنيا أذنابًا مستباحين ، أو ضعافًا مغموصين أو كما يقول الشاعر يصف قومًا تافهين . .

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود !!

لا ، لا ، إن هؤلاء المؤمنين بالدار الآخرة يفرضون أنفسهم على هذه الحياة الدنيا ، ويكرهون العدو والصديق على أن يحسب حسابهم ويزن رضاهم وسخطهم ، ويعلم أن نتائج العدوان عليهم أذى محذور وشر مستطير . .!!

لأنهم إذا بغى عليهم ينتصرون ، ويلطمون السيئة بمثلها . .!

وليس هذا بالنسبة إلى الحق الأدبى للجماعة كلها ، بل هو كذلك بالنسبة إلى حق الفرد فى ماله الخاص .

فقد سئل النبى ﷺ : أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالى . .؟

قال : «**لاتعطه مالك**» .

---

(١) الشورى : ٣٨ ـ ٤٠ .

قال : أرأيت إن قاتلنى . .؟

قال : **«قاتله»** .

قال : أرأيت إن قتلته . .؟

قال : **«هو فى النار»** .

قال : أرأيت إن قتلنى . .؟

قال : **«فأنت شهيد»** .

هل هذه الوصايا هى التى تخدر الأفراد والجماعات . .؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

فإذا تجاوزنا العهد المكى إلى العهد المدنى نجد توجيها ينبع من هذه الروح الأبية الشامخة .

إن الهوان جريمة ، وقضاء الحياة فى ضعف واستكانة مرشح أول للسقوط فى الدار الآخرة . .

ومن هنا أثبت القرآن الكريم هذا الحوار بين ملائكة الموت وبين الذين عاشوا فى الدنيا سقط متاع ، وأحلاس ذل . .!

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1] .

والهجرة المفروضة هنا ، هى التحول من مكان يهدر فيه الإيمان وتضيع معالمه إلى مكان يأمن فيه المرء على دينه .

ولكن حيث استقرت دار الإسلام ، فلا تحول ، وإنما يبقى المسلمون حيث كانوا ليدافعوا عن ترابهم ذرة ذرة ، ولا يسلموا فى أرض التوحيد لعدو الله وعدوهم . .

والآية تحرم قبول الدنية ، وإلف الاستضعاف ، وتوجب المقاومة إلى آخر رمق . . ومما يؤكد هذا المعنى أن القرآن أحصى الطوائف التى تُعْذَر فى هذا التمرد المطلوب على قوى الشر .

ومع استثنائها فإن مصيرها ذكر معلقًا على رجاء المغفرة والعفو لا على توكيد ذلك . .!!

﴿ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾[2] .

---

(١) النحل : ٢٨ .　　(٢) النساء : ٩٨ .

والتعبير بعسى هنا مثير للقلق ، وهى إثارة مقصودة حتى لا يقعد عن مكافحة المعتدين من يقدر على إلحاق أى أذى بهم مهما قل .

إن المؤمن لن يكون أبدًا ثالث الصنفين اللذين عناهما الشاعر فى قوله :

ولا يقيـــم على ضيم يراد به! إلا الأذلان عير الحــى والوتد

هذا على الخسف مربوط برمته وذا يشـق فلا يرثى لـه أحد!!

المسلم لا يقبل الحياة على أية صورة وبأى ثمن ، إما أن تكون كما يبغى ، وإما رفضها وله عند ربه خير منها وأشرف . .!!

ومن صيحات الكرامة والإباء قول رسول الله ﷺ : «**من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد!!**» .

وفى حديث آخر : «**من قتل دون مظلمته فهو شهيد!!**» .

هل رأيت استنهاضًا للهمم ، واستنفارًا للنضال ، واستثارة للذود عن الدماء والأموال والأعراض ، أحر من هذه المبادئ . .؟

أيمكن فى منطق العقل والإنصاف أن يوصف هذا الدين بأنه مخدر للشعوب . .؟ ألا شاهت الوجوه!!

وربما اتصل بهذه التهمة المتهافتة تصور البعض أن الدين رباط مع الماضى ، وأن التطور ينافيه . .

ونتساءل نحن : ماهذا التطور؟ إن الإلحاد ليس تطورًا! بل هو ترديد لكفر الصغار من جهلة القرون الأولى .

من ألوف السنين وقفت قبيلةُ عادٍ من رسولها موقفًا كأنما لخصت فيه كل مايقال فى هذا العصر على ألسنة الشطار من دعاة الإلحاد : ﴿**أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ**﴾[١] .

---

(١) المؤمنون : ٣٥ ، ٣٨ .

إن التحلل من قيود الدين وفضائله ليس تجديدًا ولا ابتكارًا ، بل هو خنوع للغرائز الدنيا التى أذامت ألوف الخلعاء والخبثاء من عشرات القرون ، وجعلتهم يحيون وفق شهواتهم وحدها! فأى ارتقاء فى ذلك المسلك الرخيص . .؟

ياشباب العرب اقدروا التراث النفيس الذى شرف الله به أمتكم ، وأقام عليه تاريخكم . .

إن الدين الذى تنتمون إليه رفع مناركم قديمًا ، وهو وحده القدير على استنقاذكم من ورطات هذه الأيام!!

لاتنخدعوا بمن يزهدكم فى رسالتكم ، فهو يرسم لكم طريق الموت . .!!

إن أممًا أخرى لاذت بعقائد أردأ جوهرًا وأسوأ منهجًا ، واستطاعت أن تغالبكم وأن تنال منكم ، فعودوا سراعًا إلى دينكم وثقوا أنه وحده العاصم من الغرق .

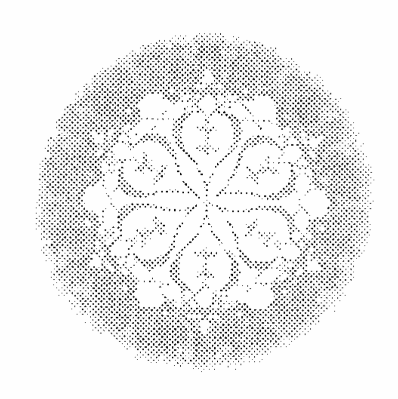
كم يحزننى أن أرى شبابًا عربى النسب أعجمى الفكر واللغة والضمير . .!!

لايستند إلى عقيدة ، ولا يعتز بتاريخ ، ولا يستظل برأيه ، ولا يسير إلى غاية خدعوه فقالوا : الجيل الصاعد . . ولو صدقوه لقالوا : الجيل الضائع الهابط . .

أنظر إليه مليًا ، ثم أهمس فى حسرة : إنك بهذا الشرود والفراغ تصنع الهزيمة تلو الهزيمة ، وتجر الكارثة بعد الكارثة . .!!

متى تعود إلى كتاب ربك ، وسنة نبيك . .؟؟

سيبقى الليل حتى تقع هذه العودة المرتقبة ، ويحمل العرب مرة أخرى رسالة الإسلام .



رمضان بين تقاليد الماضي وهزائم الحاضر

للجسد الإنسانى وقوده الذى يحيا به ويتحرك ، ويستحيل حرمان هذا الجسد من مصادر وجوده ونمائه وتنقله هنا وهنالك!

التجويع التام يقتله ، والحرمان من عناصر رئيسية يثير الاعتلال فى كيانه ويفرض عليه الذبول واللغوب . .

ولم يجئ فى شرع الله تكليف من هذا النوع المحرج ، بل جاء فى السنة استعاذة النبى ﷺ من هذا البلاء «**أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر لا إله إلا أنت**» .

لكن الواجدين من الناس عندما يطعمون لايكتفون بتناول الغذاء المطلوب لأبدانهم ، بل يلتهمون مقادير أكبر . . كل على قدر نهمته وطاقته!! ونحن نفتن فى تزويد أنفسنا بأزيد من حاجتها ، والرغبات تمتد مع التلبية المستمرة ، وتألف مااعتادت ، وتطلبه إن فاتها . .!!

وهذا الجسد العجيب قادر على اكتناز مايفرض عليه إما بدانة مفرطة ، أو قبولاً لما يشحن به ، ثم عملاً صورياً فيه ، ثم خلاصًا معنتًا منه!! وهو الخاسر فى هذا الجهد الضائع ، والحياة العاقلة من حوله تقول : لو كان هذا نصيب معدة فارغة لكان خيرًا له ولها ، ولكان أسعد وأرشد ، وقديمًا قيل . .

والنفس طامعة إذا أطمعتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع!!

لعل فريضة الصيام تذكرنا بهذه الحقيقة النفيسة التائهة ، لكن هناك شيئًا آخر يجىء رمضان ليذكرنا به ، نحن ـ العرب والمسلمين ـ فى أقطار الأرض كلها .

نعم ، إذا كانت شهية بعض الناس مفتوحة للمزيد من ملذات الدنيا فما أحرى المنهزمين بأن تنكمش أيديهم وتغص حلوقهم ، وإذا كان أهل الأديان كلها يمرحون ويهشون فما أحرى بنى الإسلام بالصيام عن فنون المتع وألوان السرور .

ذلك أن المرحلة التى يمرون بها لاتتحمل من ذلك قليلاً ولا كثيرًا . . . فى أعقاب المتاعب التى تصيب الأمم ، وتنتظم آلامها الأفراد والجماعات ، يحدث تغير شامل فى السلوك القومى العام ، ويزهد الصغار والكبار فى فنون من المتع كانوا من قبل يألفونها ، وأنواع من المرح طالما ابتهجوا أيام السلام بها .

وهذه عادة عربية قديمة ، كان أسلافنا الأوائل إذا نال منهم عدو أو حل بهم مكروه ، هجروا تقاليد السرف والترف ، وصدوا عن أسباب اللهو والمجون ، وما يسمح أحدهم لنفسه بسرور غامر ، وضحك عال إلا إذا نال ثأره أو استرد مافقده ، أو أوقع بخصمه مثل مانزل به ، فإذا تم له مايبغى قال وهو مستريح :

فساغ لى الشراب وكنت قبلاً

أكاد أغص بالماء الفرات

وقد نزل أبو سفيان ، وجمهور أهل مكة على هذه العادة بعد هزيمتهم فى معركة بدر ، فحلف أبو سفيان أن يحرم نفسه شتى الملذات حتى يدرك ثأره من محمد . .

واتسق هذا المعنى فى تقاليد البطولة التى شاعت بعد بين المسلمين ، فيقول شاعرهم :

قوم إذا حاربوا شدوا مآزرهم

عن النساء ولو باتت بأطهار!!

والمعنى أنه فى ساعات الجد لا ينبغى الاكتراث بما عداه ، وفى أيام الكفاح يجب على الأمم أن تقتصد اقتصاداً شديدًا فى مظاهر الفرح والتسلية . .

ومادام أبناؤنا وإخوتنا فى الجبهة ، ومادامت قطع من أرضنا تحت أقدام العدو ، ومادام جحد حقوقنا ظاهرًا فى أسلوب التبجح الذى نستمع إلى نبراته فما مكان الراحة والهدوء عند مجىء الراحة والهدوء؟

وما مكان التوسع فى الإنفاق والبذل فى المرفهات عند عشاق البعثرة والترفيه؟

لقد آن الأوان ليراجع العرب والمسلمون سلوكهم الخاص والعام ، فيحذفوا من أساليب معايشهم وأفراحهم وأحزانهم الكثير مما لايتفق مع أيام الحرب ، وليعلموا أن أجل الكفاح طويل ، وأنهم بإزاء عدو ماكر غادر تختبئ وراءه كل قوى العدوان فى الأرض ، وأن هدف المعركة الإتيان على تاريخهم ورسالتهم وحاضرهم ومستقبلهم ، فكيف مع هذه النيات الهائلة نستخف بالأمر؟

أو نأذن لمشاعر الدعة والهزل أن تخامر القلوب . . .؟

إن الأثر النفسى العظيم لفريضة الصيام هو تدريب المؤمن على ضبط نفسه ، وإحكام أمره ، وتقييد شهواته ، فهو إذ يترك بعض الأعمال المباحة يتمرن على ترك جميع الأعمال المحظورة ، أو التى تفرض ظروف المروءة ، وأعباء الكفاح أن يتركها ،



وقديمًا قال رجل عزيز صلب . . يقولون : هذا مورد!! قلت : قد أرى ولكن نفس الحر تحتمل الظمأ . .!!

ولقد كان رسول الله ﷺ صاحب طاقة كبيرة على الحياة ، مهما تباينت ظروفها ، واختلف عليها العسر واليسر ، والانكسار والانتصار ولقد علم أصحابه أن الاستسلام للشهوات المادية ، والحرص على نمط معين من الملذات ، سقوط بالهمة وخور فى العزيمة ، واسترخاء مع الشيطان .

قال عليه الصلاة والسلام يصف المجتمعات المعتلة : «**إن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم ، فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم**» وقال : «**إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى**» .

وقال : «**إن شرار أمتى الذين غذوا بالنعيم ونبتت عليه أجسادهم**» وقال ـ يصف عشاق الليونة والرخاوة والمظاهر الجوفاء ـ «**تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخميصة**» والقطيفة والخميصة أنواع من الأقمشة الملبوسة والمفروشة تمتاز بالفخامة والنعومة . يحرص عليها طلاب الراحة وعبيد المثل الدنيا لا المثل العليا .

ويظهر أن بعض المسلمين لا يستفيدون من صيامهم هذه الآثار النفسية والاجتماعية التى تعين على خلق شعوب مجاهدة تتحمل متاعب الحصار الاقتصادى والعسكرى . وأنهم حريصون فى جوانب كثيرة من حياتهم على تقاليد اليسار والسعة ، والتشبث بما ألفوه أيام السلام والسلامة . .!

وما نفكر فى تحريم مباح ، ولا فى زجر الناس عن طيبات أحلت لهم ، ولكننا نفكر فى مواجهة العدو المتربص وضرورة وعى الأساس الأوحد للقائه ، وهو أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم . . عندما أعلن غاندى المقاطعة السلبية ، وحمل شعبه على الرضا بخيوط المغزل الهندى ، وهجر الإنتاج الرائع لمصانع إنجلترا ونسيجها الرقيق الجيد كان ذلك «الصيام» بداية التحرر ونهاية الاستعمار ، ولذلك يقول الشاعر العربى رشيد سليم الخورى :

لقد صام هندىٌّ فدوَّخ دولة ... فهل ضار علجًا صوم مليون مسلم

إننى ألفت أنظار قومى إلى أننا أمام جهاد شاق المراحل ، ثقيل التكاليف ، وأن النجاح فيه يتطلب من الآن نظرة عابسة ، ورفضا لصنوف المباهج!!

ترى هل أستطيع أن أقترح إلغاء أفراح الأعياد؟ والاكتفاء بشعائرها الدينية الرصينة وحسب؟

إن ولع العرب الشديد باللهو واللعب منته بهم بتة إلى التلاشى . ودلالته واضحة على موت القلوب ، وقبول الدنايا ، وعشق الدنيا وكراهية الموت . .

إن عبادة الحياة ، وتكريس القوة والوقت لها وحدها ، علة قديمة بين الناس وهى العلة التى أرخصت القيم الرفيعة ، وألهبت الغرائز الوضيعة وصرفت القصد عن الله ، وعلقت الهمة بالحاضر القريب ، ونسيت ماعداه!!

فى المجتمعات التى فتكت بها هذه العلة يقول جل شأنه : ﴿ **إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا** ﴾[1] . ويقول : ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾[2] .

ومظاهر هذه العلة معروفة فى انتهاب اللذات من غير شبع ، والبحث عنها دون اكتراث بحل أو حرمة ، واعتبار الوجود الأرضى هو الإطار الأوحد للحس والإدراك .

فإن فات فليس عنه عوض ، وإن أقبل فيجب التفانى فيه وارتشافه حتى الثمالة! إنه لاشىء بعده يرتقب!!

وأحسب أنه فى هؤلاء يقول جل شأنه وهو يذيقهم عقابه ـ ﴿ **ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ** ﴾[3] .

والمدنية الحديثة قد ضاعفت لأبنائها الفرص لعبادة الحياة والعبِّ منها دون ارتواء ، وذلك أن الشهوة تغرى بالشهوة كما أشرنا آنفًا ، والرغبات الإنسانية قد يضر بها القرب ، ولا يزيدها الظفر إلا اشتعالاً ، على نحو ماقال الشاعر .

أعانقها والنفس ـ بعد ـ مشوقة ... إليها ، وهل بعد العناق تدانى؟

وألثم فاها كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان!

---

(١) الإنسان : ٣٧ . (٢) النجم : ٢٩ . (٣) غافر : ٧٥ ، ٧٦ .

والأديان فى أوربا وأمريكا عجزت عجزًا تامًا عن علاج هذا السعار، لقصورها الذاتى أولاً، ولاشتغالها مع ذلك بمحاربة الإسلام بدل أن تتعاون معه على فعل شىء ما يحفظ على الإنسانية مستقبلها المتداعى . . والغريب أن المسلمين نافسوا غيرهم فى التهاوى على هذه المتع والتشبع منها جهد المستطاع .

قد تقول : وما الغرابة فى ذلك؟ أليسوا بشرًا كالبشر؟

وأجيب : إننى لا أنكر على المسلمين ـ خاصة ـ أن يشاركوا الأوروبيين والأمريكيين فى ألوان المتاع التى اخترعوها .

إننى قد أفهم أن يعود رواد الفضاء من رحلة مضنية ليلتمسوا بعض النزه البريئة أو المريبة فى ليل أو نهار .

أما الذين يتسكعون بين دورهم وأجران القمح والأرز، أو الذين يتركون خيامهم على مدى سهم فى مراعيهم الساذجة، أو الذين يركبون سياراتهم ليجلسوا فى الدواوين محسودين لا مجهودين . . أو . . أو . . فما لهؤلاء والبحث عن اللذات المخترعة فى الشرق أو الغرب؟؟

إن بعض الناس يذهب إلى العواصم العالمية المرموقة ثم يعود ليتحدث عن لياليها الصاخبة!!

فهلا تحدث عن أيامها الجادَّة، وعن العرق المتصبب من أجساد الكادحين للصغار والكبار على سواء؟؟

إن المهندس هناك قد يغبر وجهه وملبسه كله طوال النهار ثم ينطلق بعد ذلك ليستجم وفق مايفهم ويعتاد .

ويوجد عندنا من يقلده فى الانطلاق الأخير، ولا يتأسى به قيد أنملة فى الكفاح الذى سبقه!!

أى بلاء أصاب العرب والمسلمين حتى عموا عما يجب أن يرى، وحملقوا عيونهم فيما يجب أن تغضَّ عنه، وتسترخى بإزائه؟

إنهم لو فقهوا سر الصيام، وسر الحياة العفيفة المبنية عليه لكان لهم موقف آخر . .

بل لو أنهم أدركوا ماكانوا عليه، وما صاروا إليه، وما تبيته القوى المتربصة بهم، لكان لهم قبل الصيام صيام، وقبل القيام سهر يطير معه المنام!!

من سنين طوال ورمضان يستقبله العرب والمسلمون بطريقة رتيبة . روايات أقلها جاد وأكثرها هازل تعرضها الإذاعات المسموعة والمرئية . . أغان بعضها دينى(!) والآخر لا دين له تشنف الآذان . فكاهات تخلق الأجواء الضاحكة ، وتسلى الجماهير التائهة ، مواعظ تقليدية ممجوجة يفر أغلب الناس من سماعها أو كتابات إسلامية فى موضوعات مختارة عن عمد لتخدير الفكر وتفتير الهمم .

صور جميلة أو دميمة للمساجد والآثار الإسلامية . . أحفال باهتة جرى رسمها وإخراجها بحيث تنعدم فيها الروح ويضعف التأثير .

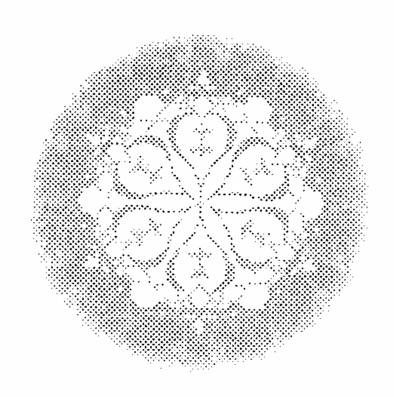
إن أعداء الإسلام لايطلبون من أمة الإسلام أن تفعل بنفسها أكثر من ذلك!

لما مات أبو امرئ القيس الخليع الضليل قال هذا الشاعر يصف ما سيفعل : اليوم خمر وغدًا أمر! لقد جعل لسكره حدًا ينتهى عنده ، إنه اليوم وحسب!

ومات امرؤ القيس وهو يجاهد لاستعادة مجده ، ويقول لصاحبه يسليه عن هموم الكفاح ومشقات الضرب فى الأرض .

فقلت له : لاتبك عينك ، إنما نحاول ملكًا ، أو نموت فنعذرا!! لكن جمهرة كبيرة من شباب العرب لايزالون يقولون : اليوم خمر وغدًا خمر . . فمتى الصحو؟

ألا يستحق المسجد الأقصى وقفة تدبر واستعبار ، يتلاوم فيها المفرطون ، ثم يغضبون لله غضبة تمحو العار ، وتدرك الثأر . . .؟؟



على هامش الإسراء

عندما يتدبر التالى سورة الجمعة يرى فى آياتها منعة الأمة العربية . والحكمة التى من أجلها ولدت فى التاريخ!

ولك أن تسأل : ما علاقة أمة العرب بسورة الجمعة؟ وقد جرى فى نفسى هذا التساؤل قبل أن أعلم أن يوم الجمعة كان يسمى فى الجاهلية «يوم العروبة» ثم غلب عليه عنوان الشعيرة التى استحدثها الإسلام ، والتى لم يكن العرب من قبل يحتشدون لها ، أو يلتقون فى عيدها!

ومعروف أن النبى ﷺ لم يصل الجمعة فى مكة ، وإنما صلاها بعد ما قدم المدينة ، فهل صليت فى المدينة قبل الهجرة النبوية إليها؟

يبدو أن ذلك قد وقع فقد روى عبدالرزاق فى مسنده قال : «جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها النبى ﷺ ، وقبل أن تنزل الجمعة ، قالت الأنصار ، إن لليهود يومًا يجتمعون فيه كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلم فلنجعل يومًا نجتمع فيه نذكر الله تعالى ونصلى فيه ، فجعلوه يوم العروبة ، واجتمعوا إلى «أسعد بن زرارة» فصلَّى بهم ، وقد روى ذلك الحديث من طرق أخرى صحيحة .

فكأن سورة الجمعة هى سورة العروبة! فلننظر بعد هذه التقدمة إلى السورة نفسها .

لقد بدأت بتسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم . والله ولى المنة والفضل ، وأهل التقوى والمغفرة ، وقيم السموات والأرض ومن فيهن .» .

ومن حكمة الله الماضية إلى يوم الدين أن يمنح اصطفاءه من شاء من الأفراد والأجناس ليكونوا مجلى رحمته ، ومظهر نعمائه .

وفى الآية الثانية من هذه السورة ، وبعد ثناء الرحمن على ذاته ، ذكر ـ تبارك اسمه ـ أنه اختار العرب ليحملوا رسالته الخاتمة إلى خلقه ﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] .

---

(1) الجمعة : ٢ .

وقوام هذا الاختيار ثلاثة معانٍ بارزة :

* الأول : تلاوة آيات الله : فإن أهل الكتاب أخفوا كثيرًا منها ، وعبثوا بمعالم الوحى حتى التبس الحق بالباطل ، وتحول الدين من أفواههم إلى سقام للعقول والضمائر بدل أن يكون شفاء لما فى الصدور ، واستنارة لذوى الألباب .

. . لكن النبى الخاتم تلا على أمته آيات الله كاملة غير منقوصة ، مستقيمة لا عوج فيها وأصبح العرب من بعده أمناء الله على هداياته ، وفى أيديهم وحدها الصحائف التى لا ترقى إليها ريبة ، ولا تلحقها آفة .

* وتلاوة الحق يتبعها التأثر به ، والارتفاع إلى مستواه سيرة وسريرة ، وذلك معنى التزكية ، وقد ربى محمد ﷺ جيلاً من الناس له فضل أدب وتقوى أهَّلَهُ لقيادة العالم عن جدارة لا عن دعوى ، والمتأمل فى مسالك هؤلاء الأميين من العرب يعجب لإدمانهم العبادة وحبهم الجهاد ، وغيرتهم على الحق ، ونفورهم من الدنايا .

إن هذه الأمة الجديدة التزمت نهجًا هى التربية النفسية والاجتماعية ، أعز الإيمان ، وأعلى قدره!!

* والمدد العقلى لهذه الرفعة الخلقية والسياسية نبع من علوم الكتاب والسنة ، ومدارسة ما أودع الله فيها من حكمة بالغة . . ثم إن علوم الدين عندنا تتسع دائرتها لتشمل الكون كله ، أى لتشمل كل ما يدل على الله ، ويكشف عن جلاله وعظمته . ومن هنا كانت الحضارة الإسلامية تستند إلى الوحى الحق ، وما ينبعث عن هذا الوحى من علم وأدب .

وذلك ما نهضت به الأمة العربية فأضاءت ظلمات التاريخ ، وصححت مسيرة الحياة . وذاك ما أسداه محمد للناس وأولهم قومه ﴿ **وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] . لكن عهد العرب بالنبوات بعيد ، فإن علم «الكتاب» عرف بقوم آخرين تخصصوا فيه وتوفروا عليه ، أما العرب أنفسهم فقد ألفوا الأمية وألفتهم ، حتى أصبح اسم «الأميين» علمًا عليهم . .

فأنَّى لهم قياد العالم فى هذا المجال؟ وهؤلاء ، بنو إسرائيل ، قد احتكروا النبوات دهرًا طويلاً حتى ظنوا أنفسهم همزة الوصل بين الأرض والسماء ، وتسموا بالشعب المختار إشارة إلى هذه المكانة العتيدة!!!

(١) الجمعة : ٢ .

هنا يرد قوله تعالى فى سورة «الجمعة» أو فى سورة «العروبة» : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾(١) .

لكن الفضل الإلهى لا يتنزل على من لا يترشح له ، ولا ينسحب عن أمة دون سبب واضح! فلمَ عزل الله اليهود وأحل مكانهم العرب؟

وبدأت السورة تجيب على هذا التساؤل ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾(٢) .

إنك لا تأمن على تأديب ولدك معلمًا سيئ الأخلاق ردىء الطبائع! فكيف يكل الله تربية العالمين لشعب قاسى القلب ، مظلم السريرة ، جامح الشهوات؟

لقد عزل اليهود عن مكانتهم القديمة لأنهم برذائلهم ومعاصيهم هبطوا دونها! إن صلتهم بالوحى الإلهى تشبه صلة الدابة بما تحمل من كتب .

وما داموا لم يستفيدوا هم أنفسهم منها فكيف يفيدون غيرهم .

ومن ثم جردوا من أمجادهم الأولى وقلد العرب هذه الأمجاد ، فالعرب بابتعاث محمد منهم ـ أصبحوا الشعب المختار الجديد المكلف بحمل أمانات الوحى المؤتمن على هدايات الله!!

ومضت سورة «الجمعة» أو سورة «العروبة» تسرد العيوب الجسيمة التى فشت بين اليهود فأزلتهم عما كانوا فيه من فضل رفيع .

إن موالاة الله تقتضى حتمًا البذل فيه ، والتضحية من أجله ، وإيثار ما عنده على الدنيا وما فيها .

وموالاة الله تجعل ذويها يحبون الآخرة أكثر مما يحب غيرهم الدنيا ، وتطهرهم تطهيرًا من الجبن والإخلاد إلى الأرض .

ولكن اليهود بلغوا فى حب المال حد الشره ، وفى حب الحياة حب التشبث بها والحرص عليها .

---

(١) الجمعة : ٤ .
(٢) الجمعة : ٥ .



وقد أخذت السورة الكريمة تقرعهم على هذه الخلال ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾[١] .

إن الأمة العربية لما اختارها الله لحمل رسالته الخاتمة كانت أنقى جوهرًا ، وأعمق أثرًا ، من بنى إسرائيل!

ويبدو أن العرب حتى فى جاهليتهم الأولى ـ كانوا يحسون فتك الأمراض النفسية والاجتماعية بأهل الكتاب المجاورين لهم ، وأن هؤلاء الكتابيين يفقدون الصلاحية المفروضة فيمن يتصل بالله عنه!

وتأمل قوله تعالى وهو يستحث العرب على الإيمان ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ . . ﴾[٢] !!

إن أولئك الأميين لا يقولون ذلك إلا لأنهم احتقروا أهل الكتاب وكشفوا عن بواطنهم وظواهرهم ما يسوء .

والواقع أن التدين الفاسد لعنة على الحياة ، وأن تحول الدين إلى كهانة واحتراف واحتكار يخلق طائفة من المرضى المستكبرين أو الموجهين المنخورين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ، تتأخر بهم الحياة ولا تتقدم ، وتشقى بهم ولا تسعد .

من أجل ذلك اصطفى الله العرب بعدما آتاهم رشدهم ، وأقام عوجهم ، فخرجوا على الناس وهم أسلم فطرة وأهدى سبيلاً .

فكان انسياحهم فى الأرض عجبًا ، وكانت بركتهم على الحياة نامية ، وكانت ضرباتهم للباطل حاسمة شافية ، وما ندرى أى درك كانت الدنيا جمعاء سوف تهوى إليه لو لم ينطلق العرب شرقًا وغربًا بهذا الدين الحنيف .

(١) الجمعة : ٦ ، ٧ .

(٢) الأنعام : ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

وفى الموازنة بين الأمة الجديدة ـ حاملة الرسالة الخاتمة ـ وبين أهل الكتاب الأوائل يقول الله تعالى : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾(١) .

والأمم تصلح للحياة والسيادة بمقدار كثرة الخير وقلة الشر فيها .

إن مادة الشر يستحيل أن تنحسم من بين الناس ولو كان الأنبياء رعاتهم ، ولكن الأمم إذا توارى الانحراف فى مساربها وشعر فاعلوه بنكره ، واستعلن البر فى أرجائها ، وشعر فاعلوه بمجده كانت أجدر بالبقاء ، وأحق برعاية الله .

أما إذا قل الأخيار ، وبرز الفجار فإن البلاء يعم ، والانكسار يحيق ، ما يغنى فى دفعه سلاح نادر وتقوى ضئيلة!!

والأمر بالمعروف يجىء إثر الإحساس بحقه فى الظهور والسيادة ، والنهى عن المنكر يجىء إثر الإحساس بضرورة استخذائه واستخفائه .

وهذا وذاك يلدهما الإيمان النابض بالقدرة والنشاط .

وقد كان ذلك الإيمان سمة الأمة الفتية الناشئة من قلب الصحراء .

أما بقايا أهل الكتاب فإن العفن الفكرى أو النفسى كان ضاربًا فى أحوالهم وأعمالهم .

وربما اصطلحت ضمائرهم مع المنكر فأساغته ، وتراخت عن المعروف فتركته ينسحق تحت أقدام الطغاة والفساق .

كان العالم ـ والحالة هذه ـ فقيرًا إلى نجدة تسعف الحق المهزوم ، والشر المتبجح ، وذلك ما فعله أبناء القرآن الكريم الذين نفخ فيهم محمد من روحه وتعهدهم بحكمته . .!!

وفى سورة الجمعة ، أو سورة العروبة ، نرى أن الله ذكر فضله على العرب بهذه الرسالة فقال : ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ** ﴾(٢) .

ثم شرع يذكر مآسى بنى إسرائيل وغدرهم بما أخذ عليهم من عهود . أما فى سورة آل عمران فإن الله جل شأنه ذكر أولاً انحراف اليهود وفسقهم عن أمر الله ثم أعلن عزله لهم ، ونزع الملك منهم ، واختيار العرب دونهم لقيادة العالم .

---

(١) آل عمران : ١١٠ .
(٢) الجمعة : ٤ .

فقال أولا : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] .

وبعد أن رفض هذا السلوك ، وبنى عليه طرد أصحابه ، وجه الخطاب إلى نبيه محمد : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] . وظاهر من السياق أن ذلك فى إيثار محمد وأمته العربية على بنى إسرائيل!

قد تقول : ما علاقة هذا كله بقصة الإسراء؟ والجواب أن ليلة الإسراء كانت تقريرًا عمليًا للحقائق التى أبرزناها من سورة الجمعة ، وغيرها ، قلنا فى كتابنا «فقة السيرة» : «لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس ، ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة؟

إن هذا يرجع بنا إلى تاريخ قديم . فقد ظلت النبوات دهورًا طوالاً وهى وقف على بنى إسرائيل . ظل بيت المقدس مهبط الوحى ، ومشرق أنواره على الأرض ، وقضية الوطن المحبب إلى شعب الله المختار .

فلما أهدر اليهود كرامة الوحى وأسقطوا أحكام السماء ، حلت بهم لعنة الله ، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ؛ ومن ثم كان مجىء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالاً بالقيادة الروحية فى العالم ، من أمة إلى أمة ومن بلد إلى بلد ، ومن ذرية «إسرائيل» إلى ذرية «إسماعيل» .

وقد كان غضب اليهود مشتعلاً لهذا التحول ، مما دعاهم إلى المسارعة بإنكاره ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ﴾[3] .

لكن إرادة الله مضت . وحملت الأمة الجديدة رسالتها ، وورث النبى العربى تعاليم : إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وقام يكافح لنشرها وجمع الناس عليها فكان من وصل الحاضر بالماضى ، وإدماج الكل فى حقيقة واحدة ، أن يعتبر المسجد الأقصى ثالث الحرمين فى الإسلام ، وأن ينتقل إليه الرسول فى إسرائه فيكون هذا الانتقال

(١) آل عمران : ٢٣ . (٢) آل عمران : ٢٦ . (٣) البقرة : ٩٠ .

احترامًا للإيمان الذى درج ـ قديمًا ـ فى رحابه . . ثم يجمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة .

إن النبوات يصدق بعضها بعضًا ، ويمهد السابق منها للاحق وقد أخذ الله الميثاق على أنبياء بنى إسرائيل بذلك . ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] .

وفى السنة الصحيحة أن الرسول صلى بإخوانه الأنبياء ركعتين فى المسجد الأقصى فكانت هذه الإمامة إقرارًا مبينًا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى خلقه ، أخذت تمامها على يد «محمد» بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين والكشف عن منزلة محمد ﷺ ودينه ليس مدحًا يساق فى حفل تكريم ، بل هو بيان حقيقة مقررة فى عالم الهداية ومنذ تولت السماء إرشاد الأرض ، ولكنه جاء فى إبانه المناسب .

لماذا سردت هذا القصص الغابر؟ إنه ليس سرد تاريخ مضى ، وخبر كان . .!!

إنه تعريف أمة تائهة بحقيقتها ورسالتها وقدرها المكتوب وحسابها الدقيق !!

إن العرب ينبغى أن يعرفوا : من هم؟ وبم أوثروا؟ وما المطلوب منهم لليوم الحاضر والغد القريب .

وسورة الإسراء التى حكت فى الآية الأولى وحدها خلاصة القصة ، ثم تتابعت آياتها تستعرض الحكم ، وتسوق النذر . . هذه السورة أكدت للعرب مثل ما أكدت لغيرهم أن الله يعامل شتى الأجناس بقانون موحد لا مكان فيه لمحاباة أو فوضى .

فمن تطلع إلى الدنيا وحدها حبسه الله فى نطاقها ورمى إليه- جل شأنه- بما يريد منها . أما الآخرة فلا بد لكسبها من شروط ثلاثة :

- أن تكون إليها الوجهة .
- أن يقترن الاتجاه بالسعى الجاد .
- أن يقترن السعى بالإيمان الخالص .

---
(١) آل عمران : ٨١ .

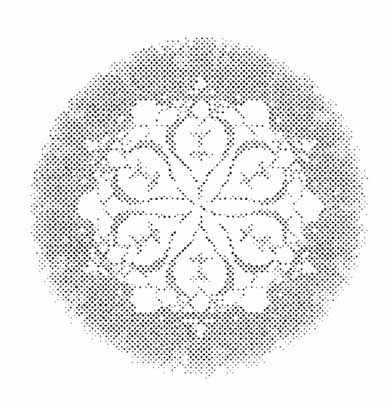
وفى الفريقين معًا يقول الله جل شأنه : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** ﴾[1] هذا الحكم ينطبق على خلق الله أجمعين لا يستثنى منهم أحد .

فماذا يريد العرب من الله؟ إن غيرهم لما أهان وحيه نزعت منه الراية ، وأهين فى الأرض والسماء ، فهل يريدون أن يتنكروا لوحى الله لديهم ، ومواريثه بينهم ، ثم يتجاوز عنهم ، ويبسط يده عليهم بالخير والنصر ؟

﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾[2] .

ونعود إلى خواتيم سورة الجمعة أو «سورة العروبة» ، لنرى فيها السعى إلى ذكر الله وإقام الصلاة فإذا وفينا بحق الله انتشرنا فى الأرض لننال من خيرها ما يعيننا على أسباب الفلاح .

إن الدين والدنيا قد اجتمعا عندنا فى قرن ، واتسقا فى غاية ﴿ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[3] .



(١) الإسراء : ١٨ ، ١٩ . (٢) الجاثية : ٢١ . (٣) الجمعة : ١٠ .

ياللرجال بغير دين

الله جل جلاله، ربَّى محمداً ليربى به العرب
وربَّى العرب بمحمد ليربى بهم الناس

أحيانًا يقترف الناس فى جنب الله سيئات يظهر فيها جهلهم به واجتراؤهم عليه ، وينكشف فيها ما فاتهم من خشوع وأدب . فيكون تعليق القرآن الكريم على هذا النوع أو العوج المذكور ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١) أو ما أشبه ذلك من التعليقات التى تبرز بعد الشقة بين ما يجب لله ، وما يقع من الناس .

والنقائض فى أفعال البشر كثيرة . ولعل أخسها بعد الإساءة إلى الله ما يلقاه محمد ﷺ من جماهير العرب فى هذا العصر الأنكد .! إنهم ما أحسنوا إلى تراثه ، ولا قدروه حق قدره . ولا غالوا بشرف الانتساب إليه عندما ابتلوا بالتقصير فيه!! بل وجد فيهم من يريد العيش بعيدًا عن رسالته زاهدًا فى دعوته . .

ولما كان الله قد ربَّى محمدًا ليربى به العرب . وربى العرب بمحمد ليربى بهم الناس ، فإن معنى التجهم لمحمد وتراثه أن العرب ينتحرون الميدان العالمى ، وأنهم يحاولون أن ينأوا بأنفسهم فى ركن من الأرض ، فقير إلى عناصر الشرف والسيادة ومقومات الحق فى الدنيا والآخرة . .!!

إننى أسأل نفسى بإلحاح فى هذه الأيام العجاف : هل يشعر العرب بأن محمدًا : مرسل للعالمين؟ وأن هذه (العالمية) فى دعوته تفرض عليهم بعد إذ عرفوه أن يعرفوا الناس به ، وهم عندما يعرفون الناس به لن يصفوا لهم ملامحه الشخصية وإنما يشرحون لهم رسالته الإلهية . .!!

لكن عرب اليوم لايقدرون محمدًا قدره ، ولايخلفونه بأمانة فى مبادئه وتعاليمه ، ولا يحسون قبح الشبهات التى أثارها خصومه ضده ، بل هم ــ علمًا وعملاً ــ مصدر

(١) الحج : ٧٤ .



متاعب للإسلام ونبيه الكريم ، وشاهد زور يجعل الحكم عليه لا له!! قد تقول : حسبك حسبك ، إن الناس بخير ، ومحبتهم لرسولهم فوق التهم فلا تطلق هذه الصيحات الساخطة ، فما تحب الجماهير أحدًا ، كما يحب أتباع محمد محمدًا . .

وأقول لك : سوف أغمض العين عن ألوف من المتعلمين ضلل الاستعمار الثقافى سعيهم ، وشوه بصائرهم وأذواقهم ، مع أن وزنهم ثقيل فى قيادة الأمة العربية فما قيمة الحب الرخيص الذى تكنه جماهير الدهماء؟

إنه حب غايته صلوات تفلت من الشفتين مصحوبة بعواطف حارة أو باردة ، وقلما تتحول إلى عمل كبير وجهاد خطير ، والترجمة عن حب محمد بهذا الأسلوب فى وقت ينهب فيه تراثه أمر مرفوض ، إن لم يكن ضربًا من النفاق!!

أذكر أنى ذهبت يومًا لأحد التجار كى أصلح شيئًا لى ، فاحتفى بى وقدم بعض الأشربة ، وأفهمنى أنه أتم ما أريد بعد أن وفيته ما أراد . .

ثم شعرت أن عمله كان ناقصًا ولا أقول مغشوشًا! فقلت : ليته ما حيًّا ولا رحب ، وأدى ما عليه بصدق! ماذا أستفيد من تحيات لا جد معها ولا إخلاص؟

والشأن كذلك مع أقوام قد تموج أحفال المولد النبوى بهم ، أو قد يصرخون بالصلاة على رسول الله ﷺ فى أعقاب الأذان ، أو قد يؤلفون صلوات من عند أنفسهم يحار المرء فى تراكيبها لإغراقها فى الخيال .

وقد يكون حبهم تمسكًا شديدًا ببعض النوافل ، وهروبًا تامًّا من بعض الفرائض ، أو حنانًا لا ندى معه ولا عطاء كهذا الذى قال له الشاعر :

لا ألفينك بعد الموت تندبنى ... وفى حياتى ما قدمت لى زادًا

أى حب هذا . . إن العرب لا يعرفون أى شرف كتب لجنسهم ولغتهم وأمسهم وغدهم عندما ابتعث الله محمدًا منهم ، وأن التقدير الحق لهذا الشرف لايكون بالسلوك المستغرب الذى يواقعونه الآن ، ومنذ بدءوا يعبثون برسالة الله بينهم . .

لما أراد رب العزة أن يعلن بركته النامية ورحمته الهامية ، اختار فى كتابه العزيز عبارتين مبينتين :

الأولى : تتحدث عن هذه البركة فى مظهر القدرة التى تجمع أزمة الكون فى يده ، فيستحيل أن يغلب يومًا على أمره ، أو يشركه أحد فى ملكه ، وفى هذا المعنى يقول جل شأنه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] .

والثانية : تتحدث عن هذه البركة فى صورة الرجل الذى حمل هداه الأخير إلى عباده ، وتفجرت ينابيع الحكمة من بيانه وسيرته ، فكان القرآن الذى يتلوه مشرق شعاع لا ينطفئ . يهتدى على سناه أهل القارات الخمس ما بقى الليل والنهار ، وفى هذا المعنى يقول جل شأنه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2] .

إن الإنسان المبعوث رحمة للعالمين أشعل الأمة التى ظهر فى ربوعها فانطلقت لأول مرة من بدء الخليقة تحمل للناس الخير والعدل ، واستطاعت أن تؤدب جبابرة الأرض الذين عاثوا فى أرجائها فسادًا . وظنوا أن كبرياءهم لن يخدشها أحد!

حتى جاء الرجال الذين رباهم محمد فقوموا صعر المعتدين . وأعزوا جانب المستضعفين ، وكم تحتاج الدنيا فى يوم الناس هذا إلى هذا الطراز من الرجال ليحموا الحق الذليل ، وينقذوا التوحيد المهان ، ويقروا الأخوة الإنسانية المنكورة ، وينزلوا البيض إلى منزلة السود أو يرفعوا السود إلى منزلة البيض . .

لكن السقطة الرهيبة للعرب المعاصرين أنهم ذاهلون عن المكانة التى منحهم محمد إياها . هابطون عن المستوى الذى شدهم إليه ، وفيهم من يفتح فمه ليقول : إن العرب يمكن أن يكونوا شيئًا من غير محمد!!!

قبح الله وجهك مِنْ قائل أفّاك . .

ومن أيام جاءنى نفر من العامة متنازعون على إدارة مسجد وبعضهم يريد فى الأذان أن يقول أشهد أن سيدنا محمدًا رسول الله . . والآخر يريد الاكتفاء بالوارد ، فلا يذكر لفظ سيدنا لأنه مبتدع .

(١) الملك : ١ .
(٢) الفرقان : ١ .

ونظرت إلى أعراض المرض الذى يفتك بالأمة المعتلة . وقلت لهم : إن محترفى الإفك من المبشرين والمستشرقين ملأوا أقطار العالم بالافتراء على محمد وشخصه ودينه ، ورسموا له صورة مشوهة فى أذهان الكثيرين وأنتم هنا لاتزالون فى هذا الغباء .

ما أشقى دينًا أنتم أتباعه ، إن المسلمين بين ما ورثوا من جهل ، وما نضح عليهم من ضلال العصر لايزالون يهرفون بما لايعرفون . . إن حب محمد يوم يكون لقبًا يضفيه عليه الكسالى الواهنون فهو حب لا وزن له . ولا أثر له ، ويوم يكون أحفالاً رسمية وشعبية بيوم ميلاده ، فهو حب لا وزن له ولا أثر ، ويوم يكون قراءة لكتابه فى مواكب الموت ومجالس العزاء فهو حب لا وزن له ولا أثر ، ويوم يكون ادعاء تستتر به الشهوات الكامنة والطباع الغلاظ فهو حب لا وزن له ولا أثر ؛ لأن محمدًا هو الرسول الذى رسم للبشر طريق التسامى الحقيقى ، ورسم للجماعات طريق التلاقى على الحقائق والفضائل ، فدينه عقل يأبى الخرافة ، وقلب يعلو على الأهواء .

ماذا كسب المسلمون عندما حولوا الدين من موضوع إلى شكل؟ وماذا كسب العرب عندما شقوا طريقهم إلى المستقبل وهم يطوون اسم محمد وتراثه من نشاطهم السياسى والفكرى .

إن مسلمى الباكستان هزمتهم سياسة امرأة ذكية ماهرة! ورجالات العرب دوختهم سياسة عجوز شمطاء! ياللرجال بلا دين!!

***

إننى ، وألوفًا من المؤمنين نحب محمدًا ﷺ ، ونشعر بما له فى أعناقنا من دين ، وبما أفاء علينا من نعمة ، وبما يجب أن يتوطد له فى الدنيا من سلطان مادى وأدبى ، وبالفقر المدقع الذى يعانيه العالم لحرمانه من الرسالة التى اضطلع بها وخلفه فى إبلاغها العرب ، فلم يحسنوا البلاغ .

إننى ألوم نفسى ، وألوم قومى ويتردد فى نفسى صدى قوله تعالى : ﴿ **وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾[1] .

***

(١) الزخرف : ٤٤ .

قال لى أحد الصالحين : إننا نحيى ربنا جل شأنه ونحن جلوس فى صلوات ، أليس كذلك!

قلت : بلى ، عقب الركوع والسجود ، نهمس وأيدينا على الركب التحيات لله . .

قال : ثم نتوجه إلى الرسول بالسلام بصيغة المخاطب الحاضر ، نقول ــ وكأن الكلام لشخص قريب منا ــ : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . .!

قلت : أجل ، كذلك نفعل ، على بعد المكان والزمان بيننا وبين الرسول الكريم . .!!

قال : إن السلام أفرغ فى تلك الصيغة قصدًا ، لأن النبى يجب أن يكون حيّاً فى ضمير كل مؤمن ، يجب أن ينتصب له مثال مرموق فى وعى المسلم اليقظ تتحقق فيه ملامح الصورة الذاهبة!!

وهل تؤخذ الأسوة الواجبة إلا من هذا الاستحضار الدائم؟

لقد مرت أعصار على موت الرسول ﷺ ، لكن القيم الرفيعة التى تجسدت فيه ونماذج العبودية لله ، والجهاد فى سبيله والحنو على خلقه ، وصور الكمال البشرى فى العفاف والعدل والإيثار والمرحمة ، تلك كلها معانٍ لم تمت ، وإنما خلدت فى كيان هذا النبى المحمد . .

والمسلم عندما يقول فى صلواته : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته إنما يقترب من إمامه الأعظم الذى أمره الله أن يتأسى به وأن يسعى فى ركابه .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾[1] .

***

واسترسل الرجل الصالح فى عاطفته المهتاجة . وأخذ يشرح لى ما يعنى قال :

إن الشمس فى رائعة النهار لا تعتبر غائبة عن بصير ، وتستطيع كل مرآة مجلوة الصفحة أن تعكس صورة لقرصها أو لهالتها أو لأشعتها ، ومحمد ﷺ فى عالم اليقين والخلق ، شمس لا ينكر لها بريق ولا يغيم لها ضوء .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

والمهم أن يكون لك فؤاد مصقول يستطيع استقبال هذا النور فى حناياه . والاستهداء به فى دروب الحياة .

إن القدوة الطيبة تقوم على استحضار المثل الأعلى فى الذهن ، ومحاولة السير على غراره فى الخارج ، والائتناس الدائم بهذا المثل الأعلى هو الذى يلهج الألسنة بعد تحية الله تبارك وتعالى بالسلام على رسوله ، سلام «حضور» لا سلام «غيبة» ومن ثم كان كل مصل يقول : «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباده الصالحين» .

ومحمد رسول الله ﷺ معقد الحقائق التى يصلح بها العالم من أزله إلى أبده ، والتعاليم التى جاء بها لايستغنى عنها الأولون والآخرون إلا إذا استغنت الأكوان عن نظام الجاذبية وسائر السنن العامة ، واضطراب الحياة إنما يرجع إلى تجاهل الهدايات التى جاء بها النبيون ، والتى أتمها وأجملها هذا النبى الخاتم ، وما يثوب الناس إلى رشدهم إلا يوم يحتفون بهذه الرسالة وصاحبها ويعرفون حكم الله عن طريقه . .

وكان حقاً على العالم كله أن يصدق بهذه البعثة العامة ، ولكن العالم تنكر لها وتطاول على رجلها الكبير .

وعندى أن الشفاعة العظمى ، التى جاءت السنن بثبوتها لرسول الله ﷺ لا تعدو أن تكون لونًا من تأديب البشر كافة على موقفهم السابق من نبى الإسلام ، فإن رسول أى عظيم يستحق من التوقير والإعزاز بقدر ما لمرسله من مكانة ، والرجل الذى أرسله رب العالمين كان يجب أن يلقى من التكرمة ما يرفع ذكره ، ويعلى شأنه ، غير أن أكثر الناس تواصوا بالصد عنه وجحد دعوته ، ورغبوا عن الحق الذى معه ، وبخسوا قيمته ثم تتابعت الأجيال والخلف فى أغلب بقاع الأرض يتوارثون عن سلفهم هذا التكذيب الشنيع .

ولو نظرت فى هذه الألوف المؤلفة من الكنائس والمعابد ، لوجدت داخلها أجهزة منظمة دوارة تعمل فى غير ملل لصرف الناس عن الإسلام ونسبة أقبح النعوت إلى نبيه المبرأ الشريف . .

وكأن الله تبارك اسمه شاء أن يعرف هذه الأمم مدى ما كانت فيه من غباوة ، وأن يذيقها شيئًا من مرارة الجريمة التى ارتكبتها ، فهو فى ساحة العرض الشامل لأصناف الخلائق يحشر سكان القارات الخمس على مر القرون يحشرهم فى صعيد واحد . ثم يكشف الغطاء عن عيونهم وإذا هم يتبينون فداحة جهلهم بالله الكبير المتعال ، ويتبينون شناعة خصامهم لإمام رسله .

وهنا يموج بعضهم فى بعض ، ويضطربون فى حيرة مفزعة لا يرجى منها خلاص ، وتتحرك جموعهم إلى كل نبى سمعوا باسمه فى العالم الذى انتهى ، يناشدونه أن يسأل الله لهم الرحمة ، ولكنّ النبيين كلهم يرفضون التصدى لهذا المطلب ويعود أهل القارات الخمس متراكضين إلى الرجل الذى طالما قيل لهم إنه كذاب . إنهم يحسون الآن عن يقين أنهم أخطأوا فى حقه ، وأنهم يوم صدوا عنه كانوا يخسرون أنفسهم وأهليهم . .!

الشفاعة العظمى ـ فى نظرى ـ موقف يحاكم فيه التاريخ البشرى كله ؛ ليعترف بأن انصرافه عن الإسلام كان مشاقة لله وعداء لأحب أوليائه وأصدق دعاته . .

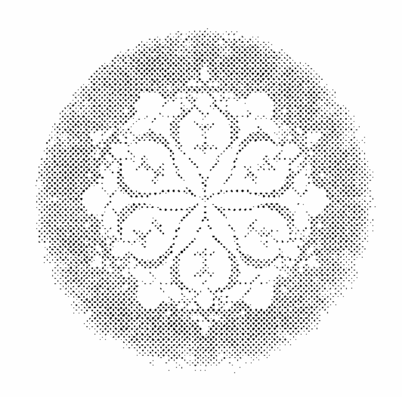
وما أعجب أن تجد الإنسانية نفسها فى حرج يوشك أن يقضى عليها ، ثم تعلم فجأة أن التنفيس عن كرباتها ربما تم باللجوء إلى الرجل الذى عاشت دهورًا . وهى تروى عنه الأكاذيب وتنسب إليه الأساطير . .

والتجاء أهل الأرض إلى محمد فى تلك الساعة العصيبة ، ولجوؤه إلى الله يطلب مغفرته للعبيد الأغرار ذلك فى ظنى هو المقام المحمود . المقام الذى نسأله لمحمد عقب كل أذان يتردد صداه فى مهاب الريح ليستجيب له قوم وينصرف عنه آخرون «**اللهم**

رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت«محمدًا» الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته» .

***

قلت : إن محمدًا فى عالم العقائد والحقائق شمس وضاحة نفاحة ، لكن العميان كثير وقد مكث هذا الرسول النبيل يصدع بأمر الله وينقذ الناس من أهوائهم ومظالمهم . ثم ذهب إلى الرفيق الأعلى تاركًا فينا تراثه الجليل ، من كتاب وسنة . فليتعلم الدعاة من حياة سيد الدعاة أن أجر الحق المبذول لا يعجل فى الدنيا ، وأن للمقام المحمود موعدًا فى غير هذه الدار يتعلق به وحده الدعاة الأبرار .



العلم يدعو للإيمان

إلى متى يظل الإنسان منطلقًا فى هذه الحياة كالقذيفة الطائشة ، لا يدرى كيف يسير ، ولا إلى أين المصير؟

وإلى متى يبقى مندفعًا بقواه المذخورة وأهوائه المحصورة ، حتى إذا نفدت قوته وبطلت حركته سقط حيث طاشت به مطارح الدنيا .

﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1] .

عجبت لقوم ينكرون الله ، ويجحدون مبتداهم منه ومنتهاهم إليه .

وأعجب من ذلك أن يتوسلوا إلى إلحادهم بالعلم!! العلم الذى هو نهج الإيمان الحق ، ودليل الوجود الأعلى . .

فإذا ذهبت تتعرف شبههم وجدت إما قصورًا فى العلم يلحق صاحبه بالجهال ، وإما غرورًا بأدنى الحظوظ منه . والمغرور بالقليل يرسل أحكامه مبتسرة مضللة لاوزن لها ولا معول عليها .

وفى بلادنا صنف من الناس ليس له زاد من المعرفة ، إلا قراءات على هامش الأسفار الضخام التى كتبها العلماء الراسخون .

قابلت أحدهم يومًا ومازلت أذكر الحوار العنيف الذى دار بينى وبينه ، كان هذا المغفل يجادلنى فى وجود الله ، ويسوق كلمات حفظها من نظرية النشوء والارتقاء ، ويريد ليوهمنى أن خلق إنسان سوىّ المشاعر نابض الأجهزة لماح الذكاء أضحى عملاً فى مقدور العلم وأن معامل الكيمياء توشك أن تفاجئنا بهذا الاختراع!!

فلما تحسست حصيلة هذا المجادل من علوم الكون والحياة وجدتها قشورًا يسيرة ، فاستغربت أن رجلاً بضاعته حروف الهجاء فى فن من الفنون يصطنع فيه درجة الإمامة التى تمحو وتثبت . .!! وفى ماذا؟ فى حقيقة الوجود الأعلى . .!

فاكتفيت بأن أكشف لهذا المغرور جهالته ، ثم تركته ، وعلى لساني قول الشاعر–

(١) الحج : ٣١ .



نجا بـك عرضـــك منجى الذبـاب

حمتـــــه مقـــاذيره أن ينـــالا!

وتذكرت قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾[1] .

من الخرافات الشائعة ، أن كثيرًا من عظماء التاريخ لا أخلاق لهم ، وأن كثيرًا من علماء الكون لا إيمان لهم .!

وأحسب أن ترويج هذه الخرافة بعض ماتلجأ إليه الشياطين فى محاربة الإيمان والأخلاق ، حتى تنشأ الأجيال الغضة وهى تحسب التحلل والتمرد أقصر الطرق إلى العبقرية والسمو . .!!

والحق أن عرا الأخلاق هى التى صنعت ألوف الرجال ، وأن الإيمان بالله حقيقة مقررة لدى جمهور العلماء الراسخين .

نعم قد تكون لدى هؤلاء العلماء ريب فى أغلب الديانات المشهورة أو فيها كلها . بيد أن العيب لايرجع إلى أولئك العلماء الماديين قدر ما يرجع إلى أصحاب الأديان الذين شوهوا رسالات الله ، إما بتحريف الكلم عن مواضعه ، وإما بالأعمال الشائنة التى تضع من أقدار المتدينين ، ومايحملونه من دين .

والقرآن الكريم لم يصم بالكفر إلا قومًا تكشف لهم الحق فجحدوه ، وعرض عليهم الدين كاملاً فأزروا به وانتقصوه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾[2] .

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ . . ﴾[3] .

أقول ذلك بعد ما انتهيت من مطالعة كتاب «العلم يدعو للإيمان» وموضوع الكتاب يفهم من عنوانه ، إنه تعريف بالخلائق يقودك إلى خالقها وشرح لكون ينتهى بك إلى باريه . .

---

(١) الحج : ٨ ، ٩ .　(٢) محمد : ٢٥ .　(٣) النساء : ١١٥ .

وهل للإيمان الذكى العميق نبع يجيش به إلا من هذه المطالعة الدارسة للحياة والأحياء؟ ولأمر ما قال الله عز وجل ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾[1] .

إن الإيمان لاينمو فى قلب ، ويتخلل شعابه ، ويغمر رحابه إلا بمدى ما يعى المرء من آيات الله فى ملكوته .

ومسلك المؤلف العالم فى كتابه هذا ، يقوم على عرض الحقائق المتيقنة عرضا لا أثر فيه للأوهام والفروض ، ولا مكان فيه للمغيبات والنصوص .

إنه يحترم قوانين المنطق الحديث والفلسفة الحرة ويستهدى إلى غاياته طرقًا لايختلف على صحتها المؤمنون بما وراء المادة والجاحدون لها .

ولقد تابعته بعقلى كما تتبع العين الأشعة الكاشفة ، وهى تنتقل من أقصى الأفق إلى أقصى الأفق ، إن ثروة هذا الرجل فى المعارف الكونية طائلة هائلة وإنك لتعجب أهو أخصائى فى الفلك أم فى التشريح أم فى الكيمياء أم فى غيرها؟

ولا غرو فهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك ، فحديثه عن العالم الكبير الذى نعيش فيه ، وعن القوانين الضابطة لسيره ، وعن الأسرار الكامنة فى متونه وحواشيه حديث الخبير الراسخ المتأنق فى سرده واحتجاجه . .!!

والكتاب كله تفصيل مطرد متسق ، لما أسماه علماء التوحيد عندنا «بدليل الإبداع» وأساس هذا الدليل على وجود الله لفت النظر إلى مافى الكون من دقة وحكمة .

هل رأيت شريط السكة الحديد الممتد من القاهرة إلى الإسكندرية مثلا؟

إنه يربو على مائتى ميل .

والمسافة بين الخطين المتوازيين الممهدين لانطلاق عجلات القطار فوقهما لاتزيد ولا تنقص مع بعد الشقة . .!!

ألا يدل ثبات هذا العرض على إعداد مقصود لسير القطار فوقه . ألا تدل طريقة المد والتمكين على أن القطار المنساب سيجرى بسرعة معينة؟ ويحمل أثقالاً كثيرة؟

هل إذا رأيت أذرعة القاطرة تغمز العجلات بعد ما حركتها سلسلة مضبوطة منسقة من الآلات والأجهزة ، فإذا القطار يتحرك وينهب الأرض نهبًا ؛ أتحسب أن هذه

---

(١) الأنعام : ٧٥ .

الأجهزة المتراكبة والآلات المتناسقة قد أخذت أوضاعها العتيدة من غير فكرة صاحبتها وغرض تنتهى به؟

هذا مستحيل!

على هذا النحو أخذ الباحث الضليع يسوق آلاف الأمثلة من حقائق الأرض والسماء فإذا أنت أمام حشود لا آخر لها من براهين الوجود الأعلى ، اسمع إليه يقول : «قد رأينا أن العالم فى مكانه الصحيح ، وأن قشرة الأرض مرتبة إلى مدى عشرة أقدام ، وأن المحيط لو كان أعمق مما هو بضعة أقدام لما كان لدينا «أوكسجين» ولا نبات! وقد رأينا الأرض تدور كل أربع وعشرين ساعة ، وأن هذا الدوران لو تأخر لما أمكن وجود الحياة ، ولو زادت سرعة الأرض حول الشمس أو نقصت لتغير تاريخ الحياة إن وجدت تغيرًا تامًا وقد رأينا هذه الشمس هى الوحيدة بين الآلاف التى جعلت حياتنا على الأرض ممكنة وأن حجمها وكثافتها ودرجة حرارتها وطبيعة أشعتها يجب أن تكون صحيحة كلها على ما وجدناها ، وهى صحيحة فعلاً ورأينا أن الغازات التى بالهواء منظم بعضها إلى البعض بنسب دقيقة . وأن أقل تغيير فيها يكون قتالاً . . إلخ»

ماذا يعنى ذلك كله؟ ألا يردك إلى الله ويعلقك به؟

ومع ذلك فيوجد من الناس من يقول لك : إن الساعة التى فى معصمك قد استدارت تروسها وتشابكت آلاتها وانضبطت دقائقها تحرك عقرب الثوانى ، وتحرك عقرب الساعات بعد ما تحرك عقرب الدقائق كل ذلك بمحض المصادفة!

فهذا الحساب المحصى للزمن لم تشرف على تسجيله وإحكام مراصده فكرة واعية ولا يد صناع !! كذلك يقول بعض المتعالمين عن السماوات والأرض ومابينهما .

وقد تحدث هذا العارف الحصيف عن المصادفة وماينسبها لها الواهمون من تنظيم واقتدار فقال : «إن المصادفة تبدو شاردة غير منتظرة أو غير خاضعة لأية طريقة من طرق الحساب عند قليلى الخبرة ، ضعاف الملاحظة .

ولكن إذا كنا ندهش لمفاجآتها فإنها ــ مع ذلك ــ خاضعة لقانون صارم نافذ! لنفرض أن معك كيسًا يحوى مائة قطعة رخام ، تسع وتسعون منها سوداء وواحدة بيضاء .

والآن هز الكيس وخذ منه واحدة .

إن فرصة سحب القطعة البيضاء هى بنسبة واحدة إلى مائة .

والآن أعد قطع الرخام إلى الكيس وابدأ من جديد .

إن فرصة سحب القطعة البيضاء لاتزال بنسبة واحدة إلى مائة ، وإن فرصة سحب القطعة البيضاء مرتين متواليتين هى بنسبة واحدة إلى عشرة آلاف (المائة بعد ما ضوعفت مائة مرة)!!

ثم جرب مرة أخرى أو مرتين تصبح الأرقام فلكية!!

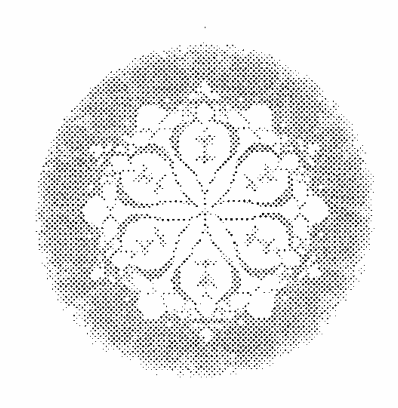
إن نتائج المصادفة مقيدة بقانون صارم تقييدا وثيقا كما أن اثنين واثنين يساويان أربعة» .

ويقول فى مكان آخر : «وإذا نظرنا إلى حجم الكرة الأرضية ومكانتها فى الفضاء وبراعة التنظيمات التى تمسكها فإن فرصة حصول بعض هذه التنظيمات مصادفة هى بنسبة واحد إلى مليون . وفرصة حدوثها كلها لا يمكن حسابها حتى بالبلايين .

ونقول : بل لايمكن افتراضها إلا فى تصور المستحيلات ، فإن العقل الذى يمنع أن تبنى المصادفات دارًا من بضع حجرات يجزم آكد الجزم بأن هذا العالم الكبير ـ بأفلاكه وآماده وحيوانه وجماده وإنسه وجنه ـ يستحيل أن تنشئه مصادفة عارضة!!

ثم هل نحسب أن مئونة إلقائه وحياطته أيسر من إيجاده لأول مرة؟

إن كلا الأمرين ليس إلا لله ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[1] .



(١) الزمر : ٦٢ .

التضحية بين الشباب والشيوخ

قالوا : إن فترة الشباب أخصب مراحل العمر ، وأجدرها بحسن الإفادة وعظم الإجادة!!

فهى القوة الظاهرة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة .

وقد قرر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** ﴾[1] .

ومن ثم كان على المرء أن يقدم حسابًا عامًا عن حياته كلها ، وحسابًا خاصًا عن طور الشباب وحده ، فهو طور له خطره وأثره «**لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه؟ وعن شبابه فيم أبلاه؟**» .

والحق أن أمجاد المتفوقين ، وأشواط الصاعدين ، إنما تستمد حركتها وبركتها من جهودهم أيام الشباب ، واستغلالهم عرامه وإقدامه فى السبق والانطلاق ، على أن الشباب وإن اكتنفته ومن طرفيه المتباعدين الطفولة والشيخوخة ، إلا أنه يصعب وضع حدود زمنية لعهده السعيد!! فهناك رجال تظل وقدة الشباب حارة فى دمهم وإن أنافوا على الستين ، لاتنطفئ لهم بشاشة ، ولا يكبو لهم أمل ، ولا تفتر لهم همة . .!!

وهناك شباب يحبون حبوًا على أوائل الطريق لاترى فى عيونهم بريقًا ، ولا فى خطاهم عزمًا ، شاخت أفئدتهم فى مقتبل العمر ، وعاشوا فى ربيع الحياة لازهر ولا ثمر!!

ومن الأخطاء تصور الشباب قدرة جسد ، وفتاء غريزة! إن الشباب توثب روح ، واستنارة فكر ، وطفرة أمل ، وصلابة عزيمة . .

نعم إن فترة الشباب فى حياة الإنسان هى أحفل أطوار العمر بالمشاعر الحارة ، والعواطف الفائرة لكنها ليست عهد العافية المكتملة فى البدن الناضج فقط ، بل إنها كذلك عهد النزعات النفسية الجياشة ، يمدها الخيال الخصب ، والرجاء البعيد . .

---

(١) الروم : ٥٤ .

والأمم تستغل فى شُبَّانِها هذه القوى المذخورة ، وتجندها فى ميادين الحرب والسلم ، لتذلل بها الصعب ، وتقرب البعيد .

ونجاح النهضات الكبيرة يرجع إلى مقدار مابذل فيها من جهود الشباب وهممهم ، وإلى مقدار ما ارتبط بها من آمالهم وأعمالهم .

وقد راقبنا الثورات التى اشتعلت فى أرجاء الشرق ضد الغزاة المغيرين على بلاد الإسلام ، فوجدنا جماهير الشباب هم الذين صلوا حرها ، وحملوا عبئها ، واندفعوا بحماستهم الملتهبة ، وإقدامهم الرائع ، يخطون مصارع الأعداء ، ويرسمون لأمتهم صور التضحية والفداء . .!

ولايزال الشباب من طلاب وعمال وقود المحركات الحرة ، وطليعة الثائرين على الفساد والاستبداد ، وقبلة المربين والمرشدين ، والزعماء الذين ينشدون مستقبلاً أزكى لهذه الحياة .

ونحن إذ نقرر هذه الحقائق ننوه بما تنطوى عليه من دلائل الإيثار والتفانى ونرجو أن يكون حظ أمتنا من هذه الثروة الحية كفاء مارسيت به من أحداث جسام ، ومافقدت من أمجاد عظام . .

فلا ينتهى هذا العصر حتى نكون قد غسلنا بلادنا من أدران الاحتلال الأجنبى الذى أخزانا فى ديننا ودنيانا . .!!

بيد أن هناك رجالاً تأخرت بهم السن ، وذهبت عنهم سورة الشباب ، وتكاثرت الصلات التى تربطهم بالدنيا ، ومع ذلك فإن جذوة اليقين المتقد فى قلوبهم تمسك بالشباب المولى عن جلودهم وعظامهم ، وتبقيه ، بل تضاعفه ، فى قلوب تنبض بالحق وتدفعه فى العروق مع الدم ، فإذا أنت ترى منها بأس الحديد ، وجرأة الأسود ، وترى رجالاً تستهويهم المغامرة ، ويطيرون إلى التضحية فى سبيل الله أخف من الشباب الغض . .

قد يقبل الشباب على المخاطرة وسبل البذل أمامه ميسرة ، فهو إن سجن لم يجزع على أسرة يعولها! وإن قتل لم تبكه امرأة أيم! ولا ولد يتيم! وخفة حمله من هذه الناحية تجعله سريع الاستجابة لنداء الواجب ، أو تزيح العوائق من أمامه إذا ثارت فى دمه نوازع النجدة . .

أما البطولة الفارعة فهى أن يكون المرء رب أسرة كبيرة يضرب فى مناكب الأرض لرعايتها ، ويسير فى الحياة وهو موقر بأثقالها . غير أنه ـ وهو الزوج المحب والأب الرحيم ،



والراعى المسئول ـ مؤمن قبل ذلك كله بالله ورسوله ، مخلص للدين الذى اعتنقه ، مقدر للحقوق التى ارتبطت به . فإذا أحس للإسلام طلبًا سارع إليه ولباه بروحه ، وماله ، ولم تشغله أعباء الحياة التى يكدح فيها عن مطالب المثل العالية التى آمن بها . .!

والإنسان عندما يقرأ استشهاد عبدالله بن حرام ، يرى فى قصته جلالاً تنحنى له الجباه ، إعزازًا للأبوة الرقيقة التى جادت بنفسها ، واستودعت الله أسرة من غلام واحد وست بنات!

روى أبو داود والنسائى عن جابر بن عبد الله قال : **«خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى المشركين يقاتلهم ، وقال لى أبى ياجابر عليك أن تكون فى نظارى أهل المدينة حتى تعلم إلام يصير أمرنا فإنى والله لولا أنى أترك بنات لى بعدى لأحببت أن تقتل بين يدى . .!!**

قال : فبينا أنا فى الناظرين! جاءت عمتى بأبى وخالى ، عادلتهما على ناضح! فدخلت بهما المدينة لتدفنهما فى مقابرنا ، إذ لحق رجل ينادى : ألا إن النبى ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوهم فى مصارعهم ، فرجعنا بهما فدفناهما حيث قتلا . .» . .

وروى البخارى عن جابر أيضًا : **«لما حضر أحد ـ يعنى القتال عند الجبل وفوقه ـ دعانى أبى من الليل فقال لى : ما أرانى إلا مقتولاً فى أول من يقتل من أصحاب النبى ﷺ ، وإنى لا أترك بعدى أعز على منك غير نفس رسول الله وأن علىّ دينًا ، فاقضه واستوصى بأخواتك خيرًا ، فأصبحنا . . وكان أول قتيل»** .

هذا الصاحب الجليل خرج مع رسول الله ليصد هجوم المشركين على المدينة تاركًا وراءه هذه الأسرة الكبيرة وقوامها كما رأيت بنات يحتجن إلى الكافل الحانى ، ولم يكن أبوهنَّ ذا بسطة فى المال ينفق منه عن سعة ، ويترك لعقبه من بعده مايغنى ويصون ، بل كان الرجل مهمومًا بشئون الرزق ، ينصب فيه ويستدين ، وغلام فرد إلى جوار ست بنات يكون غالبًا قرة عين الوالد وموضع حبه العميق ، لكن عبدالله يقسم أنه يود لو قدم ابنه ليستشهد فى سبيل الله ، وأنه إنما يعجل بنفسه حتى يبقى الابن للبنات يخدمهن ، فإن ابنه لو قتل قبله ، فلن تطول بالأب الحياة .

إنه لابد مقتول فى أقرب معركة ؛ إن أصحاب المبادئ سراع إلى تلبية مبادئهم! عندما يقرع باب الكريم ينهض ويقول :

فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم ... مع النفس علات البخيل الفواضح

وعندما يطلب الشجاع إلى ساحة الوغى يذهل عن الحياة وأواصره بها ، وينطلق وهو يقول : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾[1] !!

وقد خرج أبو جابر إلى أحد ليلقى مصيره مع أبر شهداء الإسلام . وروى الشيخان عن جابر قال : أصيب أبى يوم أحد فجعلت أكشف عن وجهه وأبكى!! وجعلوا ينهوننى ، والنبى ﷺ لاينهانى ، وجعلت فاطمة بنت عمرو - رضي الله عنها - تبكيه!!

فقال ﷺ : «**تبكينه أو لا تبكينه ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه!**»

وروى الترمذى عن جابر قال : لقينى رسول الله مرة وأنا مهتم ، فقال : «**مالى أراك منكسرًا؟**» فقلت : استشهد أبى يوم أحد . وترك عيالاً ودينًا ، فقال : «**ألا أبشرك بما لقى الله به أباك؟**» قلت بلى! قال : «**ماكلم الله أحد قط إلا من وراء حجاب ، وإنه أحيا أباك فكلمه كفاحًا ، فقال : ياعبدى ، تمن على أعطك! قال : يارب تحيينى فأقتل ثانية! فقال سبحانه وتعالى : إنه قد سبق منى أنهم لا يرجعون : فنزلت : ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ﴾[2]**» .

والمرء يحار ، أيعجب من كرامة الشهيد على الله؟ أم حلاوة الفناء فى الله التى ذاقها أولئك الشهداء؟

إن أبا جابر لم يستشعر وحشة لفراق أولاده ، ولم تستشرف نفسه للاطمئنان على فلذات كبده ، بل تطلع للعودة إلى الدنيا كيما يذهل مرة أخرى عن أحب شىء فيها ، ويتمشى بخطى ثابتة إلى ساحة القتال!!

ولقد كفل الله أولاد الشهيد ، وقضى عنه دينه فى حديث يطول .

ولندع حديث الصدر الأول ، ونستأنف حديث الأشياخ المجاهدين فى عصرنا هذا ، إننا واجدون رجالاً من طراز رائع ، صنعهم الإسلام القوى فأحكم صناعتهم ، وقذف بهم على جند الباطل فجددوا سير السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار .

من أولئك النفر الغر : عمر المختار . البطل الذى بلغ التسعين من عمره وهو يجوب الصحراء مطاردًا «الطليان» الذين أغاروا على طرابلس ، وعملوا على تنصيرها بالحديد والنار ، وفيه يقول «شوقى» :

---

(١) طه : ٨٤ .   (٢) آل عمران : ١٦٩ .

بطل البداوة لم يكن يغزو على (تنك) ... ولم يك يركب الأجواء
لكن أخو خيل حمى صهواتها ... وأدار من أعرافها الهيجاء

وقد وقع الشيخ المهيب فى أسر الأعداء، فألفوا محكمة قضت بقتله شنقا!! والمستعمرون قوم لا ينتظر منهم شرف المعاملة لامع صديق ولا مع خصم، وقد ندد شوقى بهذا الحكم الشائن فقال:

خفيت على القاضى وفات نصيبها ... من رفق جند قادة نبلاء
تسعون لو ركبت مناكب شاهق ... لترجلت هضباته إعياء

ويقول:

شيخ تمالك سنه، لم ينفجر ... كالطفل - من خوف العقاب بكاء
الأسد تزأر فى الحديد ولن ترى ... فى السجن ضرغاما بكى استخذاء

ثم يخاطب الشعب طالبًا منه تجنيد الشباب وإعفاء الشيوخ فيقول:

نحِّ شيوخك من تكاليف الوغى ... واحمل على شبَّانك الأعباء

على أن منطق اليقين لايكترث بفوارق السن، فإن العقيدة المتفجرة فى القلوب الكبيرة ترد الكهول الوانين فتيانًا نشيطين، أما إذا تخلخل الإيمان فإن الشاب الجلد يمسى حلس منفعة تافهة مهينة!!

والدعوات العظيمة لاتضار بشىء مثل ما تضار بهذا الصنف من المتلونين المتطلعين، الصنف الذى يحاذر أن يمسه سوء، ويسارع إلى إحراز الغنائم، ويشارك بجسمه أصحاب الرسالات، أما قلبه فهو بعيد بعيد. الصنف الذى صور القرآن موقفه النابى المريب فى هذه الآيات.

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[1].

والمرء لا يصلح أن يكون رجل دعوة وصاحب رسالة إذا بنى حياته فى حساب الأرباح والخسائر على هذا النحو المنكر.

(١) النساء: ٧٢.

ربما كان الرجل خالى البال لايتبع أهلاً ولا مالاً ، فهو يهز كتفيه لما تَفِدْ به الليالى من أحداث ، أفإذا بلى بأثقال الفضائل ألقى بها فى عرض الطريق وأضحى لايهدأ أو لايهيج إلا لمنافعه الخاصة؟

كذلك فعل المنافقون قديمًا! فعندما ندبوا للجهاد قعدوا واعتذروا ﴿ **سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا** . . ﴾[(١)] .

إنهم توهموا الخروج مغامرة مخوفة العاقبة ، أو مقامرة بعيدة الربح فنكصوا وأفئدتهم صفر من معانى اليقين والتضحية التى تجعل الشهيد يقبل على الموت ، ويود لو يرد إلى الحياة ليموت مرة أخرى .

ولو كان الخروج لنفع يسير لكان لهم مع القافلة سواد كثيف . .!

﴿ **سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾[(٢)] .

وقد حذر الله المؤمنين أن تسيطر على أفكارهم هذه المآرب ، أو تتدخل فى نياتهم هذه المنافع .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾[(٣)] .

فلتكن لنا من حياة المجاهدين عظة ومن مماتهم عبرة ، ومن مسلكهم مع أهليهم وأموالهم أسوة حسنة .

قال الإمام أبو منصور عبدالملك الثعالبى فى كتابه فقه اللغة :

مادام الحمل فى رحم أمه فهو جنين .

فإذا ولد فهو وليد .

ومادام لم يستتم سبعة فهو صديغ ؛ لأنه لايشتد صدغه إلى تمام السبعة . ومادام يرضع فهو رضاع .

---

(١) الفتح : ١١ ، ١٢ . (٢) الفتح : ١٥ . (٣) المنافقون : ٩ .

ثم إذا قطع عنه اللبن فهو فطيم .

ثم إذا دب ونما فهو دارج .

فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسى .

فإذا سقطت رواضعه فهو مثغور .

فإذا كان يجاوز العشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع وناشئ .

فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع أو مراهق ، فإذا احتلم واجتمعت قوته فهو حزور .

واسمه فى جميع هذه الأحوال التى ذكرناها غلام فإذا صار ذا فتاء فهو فتى وشارخ .

فإذا اجتمعت لحيته وبلغ غاية شبابه فهو مجتمع ، ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ، ثم هو كهل إلى أن يستوفى الستين .

أما المرأة فهى طفلة مادامت صغيرة .

ثم وليدة إذا تحركت .

ثم كاعب إذا كعب ثديها .

ثم ناهد إذا زاد .

ثم معصر إذا أدركت .

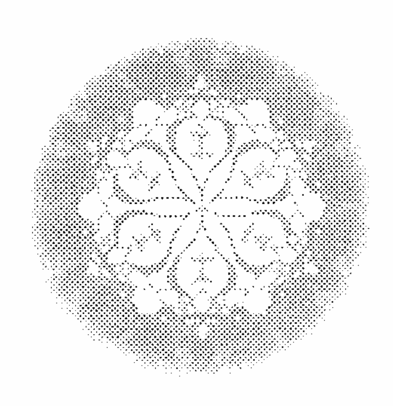
ثم عانس إذا ارتفعت عن حد الإعصار .

ثم خود إذا توسطت الشباب .

ثم نصف إذا كانت بين الشباب والتعجيز .

ثم شهلة كهلة إذا وجدت مس الكبر وفيها بقية وجلد ، ثم شهيرة إذا عجزت وفيها تماسك .

ثم حيزبون إذا صارت عالية السن ناقصة القوة



لا علاقة بين العلم والإلحاد

فى أرجاء الأمة الإسلامية ناس أشباه متعلمين يعلنون إلحادهم دون حياء ، ويزعمون أنهم ثوار على الرجعية ، عشاق للمعرفة ، ضائقون بالأفكار القديمة ، معتنقون للأفكار الحديثة!!

وكثيرًا مالقيت فى طريقى صورًا من هؤلاء الناس ، فأتغرس فى مسالكهم ، وأتأمل فى أقوالهم وأحوالهم ، ثم أذكر كلمة العقاد ــ رحمه الله ــ : هناك مقلدون فى كراهية التقليد!!

إن هذا النفر المعوج من الشباب ضحل الثقافة ، قصير الباع فى ميادين العلم ، ولكنه يريد الظهور فى ثياب العلماء فيثرثر بكلمات ضخمة يحسبها تنظمه فى سلكهم وهيهات!! إنهم لم يكفروا بعد دراسات عميقة فى علوم الكون والحياة ، فإن أنصبتهم من هذه العلوم فوق الصفر بقليل ، ولكنهم كفروا لعلل نفسية أو اجتماعية أو اقتصادية نمت فى نفوسهم وأصابتهم بهذا الدوار أو هذا السعار فقالوا ماقالوا دون وعى حق . .!

أما حديث العلم وتقدمه ، والكون وكشوفه ، فهو تعلة خادعة ينكره العلم والعلماء . .

وأول مانلحظه على أولئك الناس نقلهم لكلمات أوحت بها بيئات أخرى ، وترديدها فى بلادنا دون أى حساب لاختلاف الزمان والمكان والباعث والنتيجة .!!

لقد كان الفيلسوف الألمانى «نتشه» ملحدًا ، وكان كفره بالله شديدًا . ومما يؤثر عنه قوله فى الهجوم على الدين «عندما نستمع فى صباح الأحد إلى دقات الأجراس القديمة نتساءل : أهذا ممكن؟ إن هذا كله من أجل يهودى صلب منذ ألفى عام كان يقول : إنه ابن الله!! وهو زعم يفتقر إلى برهان . .

لا جدال أن العقيدة المسيحية ـ هكذا يقول «نتشه» ــ هى بالنسبة إلى عصرنا أثر قديم نابع من الماضى السحيق ، وربما كان إيماننا بها فى الوقت الذى نحرص فيه على الإتيان ببراهين دقيقة لكل رأى نعتنقه ، شيئًا غير مفهوم فلنتصور إلهًا أنجب أطفالاً من زوجة فانية ، وخطايا ترجع إلى الله ثم يحاسب هو نفسه عليها خوفًا من عالم آخر يكون الموت هو المدخل إليه! لكم يبدو كل ذلك مخيفًا ، وكأنه شبح قد بعث من الماضى السحيق! أيصدق أحد أن شيئًا من ذلك لايزال يصدق؟

وهذا الطراز من الإلحاد هو الذى يحمل جرثومته بعض الناس ، يحسبون أنهم يفتنوننا به نحن المسلمين عن ديننا ويصرفوننا عن رسالتنا . .

وهو طراز يختلط فيه التقليد الأعمى بالنقص المركب ، أو حب الظهور بالحقد على المجتمع . . أما الزعم بأن العلم المادى ضد الدين ، وأن بحوثه المؤكدة وكشوفه الرائعة تنتهى بإنكار الألوهية فهذا هو الكذب الصراح . .!

بل إن أساطين العلم والفلسفة تشابهت مقالاتهم فى إثبات الوجود الأعلى ، وتكاد فى وصفها لله تنتهى إلى ما انتهى إليه القرآن الكريم من توحيد وتمجيد . .

نحن لاننكر أن خصامًا شديدًا قد وقع بين العلم والدين فى أوروبا حيث كان القول بكروية الأرض كفرًا ، والقول بدورانها حول الشمس إلحادًا !!

ولا ريب أن تلك الجفوة المفتعلة بين حقيقة الدين ، وطبيعة العلم تركت آثارًا سيئة هنا وهناك ، بيد أن الاعتماد على هذا فى التجهم للإيمان الحق لا يسوغ ، فإن تجريد الدين من الشوائب التى لحقت به ، والتزام العلم للمنهج السوى فى البحث عن الحقيقة قد انتهى بصلح شريف يذكرنا بقوله جل شأنه ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾[1] .

كانت المادية بدعة القرن الماضى ، وكان الزعم السائد أنه لاوجود إلا للمادة ، وأن ماوراء المادة عدم محض ، وأن المادة لاتفنى ولا تستحدث ، وأن الدين بعد هذا كله أمسى لامكان له .!!

ثم مضت الحقائق العلمية تكشف عن وجهها فإذا مقررات الماضى تنسف من أصولها ، يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى : كان العلم يتصور الأمور تصورًا ماديًا بحتًا إلى أن جاء العالم الشهير «ألبرت أنشتين» فغير ببحوثه الطبيعية النظرة إلى المادة تغييرًا حاسمًا ، وقد صور الفيلسوف الإنكليزى «رسل» ذلك قائلاً : درسنا العالم الطبيعى فوجدنا المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها ، إذ حللها العلماء إلى مجموعات ذرية كل مجموعة منها تنحل إلى ذرات ، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل إلى كهارب موجبة وأخرى سالبة ، ثم مضى العلماء فى التحليل ، فإذا هذه الكهارب نفسها تتحول إلى إشعاعات !!

---

(١) فصلت : ٥٣ .

وختم «رسل» كلامه بهذه العبارة «ليس فى علم الطبيعة مايبرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعى تختلف عن خصائص العالم العقلى» .

ونحن نقول : انتساب ذلك الكون الضخم إلى أصول من الأشعة شىء مثير حقًا!! ترى ماالذى كثف النور ، وجمد حركته ووزعه على ألوف الأشكال التى نراها؟

إنك لن تعدم سفيهًا يقول لك : تم ذلك من تلقاء نفسه!!

وهذا القائل مستعد أن يقول لك أيضًا : إن الصحف فى عواصم العالم تصدر عن دورها مليئة بالأخبار والتعليقات والصور ، متسقة الحروف والأرقام تلقائيًا من غير ماإشراف ولا إعداد ولا تبويب ولا ترتيب!!

لعمرى إن ذلك أدنى إلى التصور من خلق الموت والحياة فى هذا العالم الفخم الضخم تلقائيًا كما يأفك الأفاكون!!

لكن أى عاقل يحترم نفسه ويقدر علمه يأبى هذا المنزلق ، يقول الدكتور التفتازانى :

ولعل هذا ماجعل العلامة «أنشتين» يؤثر الإيمان بالله ويرفض الشبهات التى تختلق ضده ، وقد دار حوار بينه وبين صحفى أمريكى يدعى «فيرك» فى هذا الموضوع قال فيه الرجل العالم بحسم : إننى لست ملحدًا!! ولا أدرى : هل يصح القول بأنى من أنصار وحدة الوجود[1]؟ إن المسألة أوسع نطاقًا من أن تحيط بها عقولنا المحدودة . .!!

وعاد الصحفى إلى سؤاله بطريقة أخرى ـ يريد بها هز الإيمان الذى لاذ به هذا العالم ـ فقال : إن الرجل الذى يكشف أن الزمان والمكان منحنيان ، ويحبس الطاقة فى معادلة واحدة ، جدير به ألا يهوله الوقوف فى وجه غير المحدود!!

فيرد «أنشتين» : اسمح لى أن أضرب لك مثلاً ، إن العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطة بالكون ـ فكيف بخالقه ـ نحن أشبه مانكون بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها إلى السقف ، فغطت جدرانها ، ثم هى مؤلفة بشتى اللغات .

إن هذا الطفل يعلم أن شخصًا ما كتب هذه الكتب ، ولكنه لايعرف بالضبط من هو ، ولا كيف كانت كتابته لها ، ثم هو لايفهم اللغات التى كتبت بها!!

---

(١) ليس هذا العالم ممن يعتنقون مذهب الوحدة على النحو الذى يعرفه الهنود ، أو النحو الذى تسرب من الهندوكية إلى بعض الديانات الأخرى ، ولكنه يريد أن يقول : إنه يرى الله فى كل شىء ، يلمح صفاته العظمى فى مجالات الكون كلها ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم﴾ وعذر الرجل أنه لايعرف الإسلام فيعبر التعبير المأثور . .

وقد يلاحظ الطفل أن هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ، ونظامًا غامضًا يشمل صفوفها وأوضاعها ، نظامًا يحس أثره ولايدرى كنهه .

إن ذلك القصور هو موقف العقل الإنسانى مهما بلغ من العظمة والتثقيف!!

وعاد الصحفى الأمريكى يسأل : أليس فى وسع أحد حتى أصحاب العقول العظيمة أن يحل هذا اللغز؟

فأجاب «أنشتين» مرة أخرى يعلل لماذا هو مؤمن ، ولماذا يعجز عن معرفة كنه الله فقال : نرى كونًا بديع الترتيب خاضعًا لنواميس معينة ، ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الإبهام فنؤمن بالله ، ولكن عقولنا المحدودة لاتدرك القوة الخفية التى تهيمن على مجاميع النجوم . .» .

لو كانت المواد التى يتكون منها هذا العالم الضخم تتراكم بعضها فوق بعض دون تبصر أو حكمة لدلت كثرتها وحدها على غنى واسع وثراء عريض . .!! فإن الأبعاد الآلية لهذا الكون مذهلة . .!!

لكن الأمر أبعد مايكون عن الجزاف والفوضى .

والبناء العقلى المتغلغل فى الكون من الذرة إلى المجرة يجعلنا نكون عن هذا العالم الدقيق صورة أخرى .

ولن نأتى بهذه الصورة من عند أنفسنا بل من أقوال الفلكى الإنجليزى «سيرجميس جنز» الذى ينطق بهذه العبارة المثيرة «لقد بدأ الكون يلوح أكثر شبهًا بفكر عظيم منه بآلة عظيمة . .» .

إن الروعة لاتكمن فى ضخامة الآلة التى نراها بل فى الطريقة التى حبكت الموازنة والضبط والتقدير . ومن ثم يتجه الإعجاب إلى العقل الواضع للحاسب قبل أن يتجه إلى أثره المحدود .

ولننظر إلى عقلنا الإنسانى بين مانتظر إليه من صنوف المخلوقات ، ماذا نرى؟ إنه كائن ذكى قدير يبدو ويخفى فى أدمغة الألوف المؤلفة من سكان الأرض الأحياء والراحلين ، الذين وجدوا والذين سيوجدون ، من أين تولد هذا العقل؟ من الماء والطين كأعشاب الحدائق . .

هذا فرض مضحك ولاريب ، أنه نفحة من الخالق الأعلى وحده .

يقول : «سير جميس جنز» يجب أن ننكر المقدمات التى يفترضها بعض النقاد من غير علم ، فالكون لايبيح لنا أن نصوره تصويرًا ماديًا ، وسبب ذلك فى رأيى أنه قد أصبح من المدركات الفكرية العميقة ، إننا واجدون فى الكون دلائل على قوة مدبرة أو مسيطرة يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شىء مشترك ، ليس هو العاطفة أو الأخلاق ، أو تقدير الجمال ، ولكنه الرغبة فى التفكير بطريقة خير مانصفها به أنها رياضية(!) لأننا لانجد الآن أصلح من هذا التعبير» .

والعلامة الإنجليزى معذور فى وصف الإبداع الإلهى بهذا الأسلوب .

لقد راعه وهو فلكى راسخ أن يجد فى نظام الشروق والغروب والدوران والانطلاق دقة تسجد علوم الرياضة فى محرابها ، فقال : «إن التفكير المشرف عليها تفكير علمى رياضى!! بل إنه اعتبر العقل الإنسانى أثرًا للعقل الكلى الذى توجد فيه على شكل فكر تلك الذرات التى نشأت منها عقولنا ، ثم انتهى أخيرًا إلى أن الآراء متفقة إلى حد كبير فى ميدان العلم الطبيعى إلا أن نهر المعرفة يتجه نحو حقيقة غير آلية» أى غير مادية ، أى إلى الله الكبير المتعال ، على هذا النحو يفكر علماء الكون الكبار ، ويحكم أئمة العلم الحديث ورواده الأكابر ، ولذلك شعرت بسخرية أى سخرية عندما قرأت لصحافى كبير فى بلادنا هذه الكلمة الغبية السمجة : «إن التقدم العلمى يوشك أن يجعل أخطر الوثائق العقائدية نوعًا من البرديات القديمة التى حال لونها ، وبليت صفحاتها ، وعدت عليها عوامل الزمن بالتعرية والتآكل ، وأصبح من الضرورى للإبقاء على أثرها أن يخصص لها مكان فى متاحف التاريخ» .

قلت ما أوسع الفرق بين منطق العلماء ومنطق الجهلاء فى تناول القضايا وإرسال الأحكام . هل يمحى الإيمان كله بهذه السهولة؟

ولقد شعرت كذلك بسخرية أى سخرية عندما رأيت كتابًا بعنوان «العالم ليس عقلاً» ألفه شخص ولد فى نجد ، وقضى أغلب عمره على قهوات القاهرة وبيروت ، وتلقى أكثر علمه من الأوراق الشاحبة التى يسطرها بعض المعلولين والمعقدين!

هذا المسخ الذى لم يعمل يومًا فى مرصد ولا مختبر للكيمياء أو الفيزياء ، ينكر الألوهية ، ويسفه النتائج التى وصل إليها أمثال «أنشتين» من قادة المعارف الكونية ، طبعًا لأنهم رجعيون وهو تقدمى ، ولأنهم قاصرون وهو نابغة . .!!



ولست أتهم كل ملحد بأنه صورة للملحدين الصغار ، فإن هناك بعض العلماء والفلاسفة ـ وإن كانوا قلة ـ تنكروا للإيمان وقواعده وغايته ، بيد أن المتتبع لأقوال هؤلاء يجزم بأن انتسابها إلى العلم تزوير جرىء فهم يخمنون ويفترضون ثم يبنون قصورًا على رمال .!

وقد قرأت لبعضهم كلامًا عن بداية الخليقة يثير الضحك ، فهم يزعمون أن العناصر فى الأزل السحيق تفاعلت اعتباطًا ، وسنحت فرصة لن تتكرر بعد أبدًا(!) فتكونت جرثومة الحياة! ثم أخذت تنمو وتتنوع على النحو الذى نرى . .

وهذا كلام لايصدر عن عقل محترم ولايصفه بأنه علم إلا مخبول!!

وصدق الله العظيم ﴿ **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** ﴾[1] .

أذكر أنى ـ وأنا أناقش بعض الأدلة ـ سألت نفسى هذا السؤال : هل أنا كائن قديم أم مخلوق جديد؟

فكان الجواب القاطع : لقد ولدت سنة كذا ، فأنا حادث بلا ريب .!!

ولكن شبهة ثارت تقول : إنك تخلقت من مادة الذين هلكوا قبلك ، وعندما تموت فستكون أجساد أخرى منك ومن غيرك .!

فقلت إذا سلمت بهذا فى الأجساد فلن أسلم به فى روحى أنا . . إن هذه «الأنا» المعنوية هى حقيقتى الكبرى ، وأنا مستيقن بأنى كائن جديد مستقل وجدت بعد عدم محض ، فمن أبرزنى من لاشىء .؟

إننى لست معتوهًا حتى أشك فى بداية وجودى وشعورى ، فمن رب هذه المنحة الخطيرة؟ فتلوت قوله تعالى ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا**[2] (١) **إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾[3] .

---

(١) الكهف : ٥١ .

(٢) الاستفهام تقريرى كما يقول العلماء ، يعنى قد أتى على كل امرئ وقت كان فيه عدمًا محضًا ، وهو الوقت السابق لميلادنا ، فما كان شيئًا قط قبله ، فمن استحيانا من ذلك الفناء؟

(٣) الإنسان : ١ ، ٢ .

وعدت إلى قصة الجسد الذى أحمله فى حياتى وأنضوه بعد مماتى هل هو قديم المادة حقّاً؟ فسألت العلم : كيف يوجد؟ وهل يمكن أن يتمثل بشرًا سويّاً هكذا عشواء فقال العلم : إن الوليد يتخلق أول أمره من التقاء الحيوان المنوى بالبويضة! فما الحيوان المنوى؟ كائن دقيق توجد الدفقة الواحدة منه قرابة مائة مليون حيوان ، كل واحد من هذه الألوف المؤلفة يمثل الخصائص المعنوية والمادية للإنسان من الطول أو القصر والسواد أو البياض والذكاء أو الغباء والحدة أو الهدوء . . إلخ ، ويبدأ التكون الإنسانى بوصول واحد ــ لا غير ــ من هذه الألوف الكثيفة إلى البويضة وتفنى البقية . قلت : فلأقف عند نقطة الابتداء هذه لأسأل : من الذى صنع هذه الحيوانات السابحة فى سائلها ، الحاملة لخصائص السلالة الآدمية من أجيال خلت . .؟

قالوا : غدة فى الجسم!! قلت : غدة أوتيت الذكاء والوعى والاقتدار على خلق مائة مليون كائن من طراز واحد!! مجموعة دراهم ـ من اللحم ـ تتصرف من تلقاء نفسها فى صنع الذكاء أو الغباء ، والحلم أو الغضب؟ ما يصدق ذلك إلا مغيب العقل وتلوت قوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ** ﴾(١)؟

إننا أمام أدوات القدرة العليا ، وهى تبرز مشيئة الخالق الجليل ، وكأنها تقول لنا : إن الله هو الخالق للعالم ليس فيه شائبة غرابة! أليس يخلق فى كل لحظة تمر ألوفًا من الناس ، وألوفًا من الدواب ، وصنوفًا من النبات؟؟

إن إبداع الخليقة ليس فلتة وقعت وانتهت ، وأمست فى ذمة التاريخ بحيث يستطيع المكابرون أن يجادلوا فيها . . لا . . إن الإيجاد من الصفر يقع أمام أعيننا كل يوم فى عالم الأحياء فلم هذا المراء؟

إن بديع السموات والأرض لايزال يخلق فى كل وقت وفى كل شبر صنوفًا من الأحياء الدقيقة ـ والجليلة لاحصر لها فكيف ينكر ما كان من خلق أول أو ما سوف يكون من بعث وجزاء؟ ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾(٢) .

---

(١) الواقعة : ٥٨ ، ٥٩ .

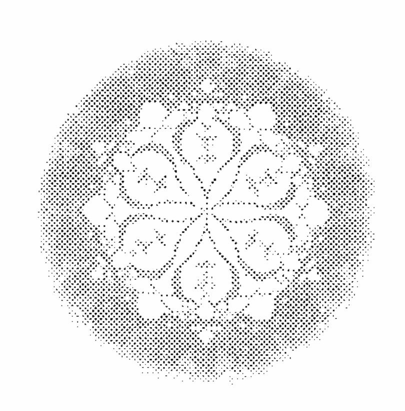
(٢) العنكبوت : ١٩ ـ ٢٠ .

ولنفرض جدلاً أن بعض الناس يرى أن الفلك الدوار يجرى فى الفضاء ، دون ضابط ولا رابط ، وأن الوليد الخارج من ظلمات الرحم لامع العين ، مورد الخد ، مفتر الثغر ، قد صنعه على هذا التقويم الحسن شيء ما فى بطن الأم !!

لنفرض أن بعض الناس ركب رأسه وقال هذا الكلام .

فما الذى يجعل هذا الزعم السخيف يوصف بأنه علم وتقدمية على حين يوصف منطق الإيمان بأنه جمود ورجعية؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!

لقد آن الأوان لتهتك الأستار عن أدعياء التقدم الذين يمثلون فى الواقع ارتكاسًا إنسانياً إلى جاهلية عديمة الشرف والخير مبتوتة الصلة بالعقل وذكائه والعلم وكشوفه . .



دين زاحف مهما كانت العوائق

- **أحاديث الفتن لا تغرى باليأس والقعود عن الجهاد.**
- **غربة الإسلام ليست موقفًا سلبيًا، إنها جهاد قائم دائم.**
- **سيبلغ الإسلام مواقع النور والظل فى أرض الله.**

كلما قرأت أبواب الفتن فى كتب السنة شعرت بانزعاج وتشاؤم ، وأحسست أن الذين أشرفوا على جمع هذه الأحاديث قد أساءوا ــ من حيث لايدرون ومن حيث لايقصدون ــ إلى حاضر الإسلام ومستقبله!

لقد صوروا الدين وكأنه يقاتل فى معركة انسحاب ، يخسر فيها على امتداد الزمن أكثر مما يربح!

ودونوا الأحاديث مقطوعة عن ملابساتها القريبة فظهرت وكأنها تغرى المسلمين بالاستسلام للشر ، والقعود عن الجهاد ، واليأس من ترجيح كفة الخير لأن الظلام المقبل قدر لامهرب منه . .

وماذا يفعل المسلم المسكين وهو يقرأ حديث أنس بن مالك الذى رواه البخارى عن الزبير بن عدى ، قال : شكونا إلى أنس بن مالك مانلقى من الحجاج ، فقال : «اصبروا ، فإنه لايأتى عليكم زمان إلا الذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم ﷺ »!!

وظاهر الحديث أن أمر المسلمين فى إدبار ، وأن بناء الأمة كلها إلى انهيار على اختلاف الليل والنهار!!

وهذا الظاهر باطل لايقبل ، وهو يخالف نصوصًا أخرى ثابتة سوف نذكرها ، كما يخالف الأحداث التى وقعت فى العصر الأموى نفسه . .!

فقد جاء الوليد بن عبدالملك فمد رقعة الإسلام شرقًا حتى احتوت أقطارًا من الصين ، وامتدت رقعة الإسلام غربًا حتى شملت إسبانيا والبرتغال وجنوب فرنسا . .

ثم تولى الخلافة عمر بن عبدالعزيز فنسخ المظالم السابقة ، وأشاع الرخاء حتى عز على الأغنياء أن يجدوا الفقراء الذين يأخذون صدقاتهم . .!!

ولقد أتى بعد أنس بن مالك عصر الفقهاء والمحدثين الذين أحيوا الثقافة الإسلامية وخدموا الإسلام أروع وأجل خدمة ، فكيف يقال : إن الرسالة الإسلامية الخاتمة كانت تنحدر من سيئ إلى أسوأ ؟؟ هذا هراء!!

الواقع أن أنس رضي الله عنه كان يقصد بحديثه منع الخروج المسلح على الدولة بالطريقة التى شاعت فى عهده ومن بعده ، فمزقت شمل الأمة ، وألحقت بأهل الحق خسائر جسيمة ، ولم تنل المبطلين بأذًى يذكر!!

وأنس بن مالك أشرف دينًا من أن يمالئ الحجاج أو يقبل مظالمه ، ولكنه أرحم بالأمة من أن يزج بأتقيائها وشجعانها فى مغامرات فردية تأتى عليهم ، ويبقى الحجاج بعدها راسخًا مكينًا . .!!

وتصبيره للناس حتى يلقوا ربهم ، أى حتى ينتهوا هم ، لا أن الظلم سوف يبقى إلى قيام الساعة ، وأن الاستكانة للظلمة سنة ماضية إلى الأبد . .!!

إن هذا الظاهر باطل يقينًا ، والقضية المحدودة التى أفتى فيها أنس لايجوز أن تتحول إلى مبدأ قانونى يحكم الأجيال كلها . .

لقد سلخ الإسلام من تاريخه المديد أربعة عشر قرنًا ، وسيبقى الإسلام على ظهر الأرض ماصلحت هذه الأرض للحياة والبقاء ، وماقضت حكمة الله أن يختبر سكانها بالخير والشر . .

ويوم ينتهى الإسلام من هذه الدنيا ، فلن تكون هناك دنيا ، لأن الشمس ستنطفئ ، والنجوم ستنكدر ، والحصاد الأخير سيطوى العالم أجمع . .!! . فليخسأ الجبناء دعاة الهزيمة وليعلموا أن الله أبر بدينه وعباده مما يظنون .

لقد ذكر لى بعضهم حديث «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ ، فطوبى للغرباء**» وكأنه يفهم منه أن الإسلام سينكمش ويضعف ، وأن على من يسمع هذا الحديث أن يهادن الإثم ، ويداهن الجائرين ، ويستكين للأفول الذى لامحيص عنه!

وإيراد الحديث وفهمه على هذا النحو مرض شائع قديم . .

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبى مافكر فى استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى!!

ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى سيف الدين قطز مانهض إلى دحر التتار فى «عين جالوت»و لو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامى فى عصرنا الحاضر ابتداء من جمال الدين الأفغانى إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق ، مافكروا أن يخطوا حرفًا أو يكتبوا سطرًا . .!

وقلت فى نفسى : أيكون الإسلام غريبًا وأتباعه الذين ينتسبون إليه يبلغون وفق الإحصاءات الأخيرة ثمانمائة مليون نفس؟ ياللخذلان والعار!!

الواقع أن هذا الحديث وأشباهه يشير إلى الأزمات التى سوف يواجهها الحق فى مسيرته الطويلة ، فإن الباطل لن تلين بسهولة قناته ، بل ربما وصل فى جرأته على الإيمان أن يقتحم حدوده ، ويهدد حقيقته ، ويحاول الإجهاز عليه . .!

وعندئذ تنجلى الظلماء عن رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، يقاومون الضلال بجلد ، ولايستوحشون من جو الفتنة الذى يعيشون فيه ، ولايتخاذلون للغربة الروحية ، والفكرية التى يعانونها ، ولايزالون يؤدون ماعليهم لله حتى تنقشع الغمة ، ويخرج الإسلام من محنته مكتملِ الصفحة ، بل لعله يستأنف زحفه الطهور ، فيضم إلى أرضه أرضًا وإلى رجاله رجالاً . .

وذلك ماوقع خلال أعصار مضت ، وذلك ماسيقع خلال أعصار تجىء ، وهذا ماينطق به حديث الغربة الآنف ، فقد جاء فى بعض رواياته «**طوبى للغرباء الذين يصلحون ماأفسد الناس من بعدى من سنتى**» ، فليست الغربة موقفًا سلبيًا عاجزًا ، إنها جهاد قائم دائم حتى تتغير الظروف الرديئة ويلقى الدين حظوظًا أفضل . .

وليس الغرباء هم التافهون من مسلمى زماننا ، بل هم الرجال الذين رفضوا الهزائم النازلة وتوكلوا على الله فى مدافعتها حتى تلاشت . .!!

والفتن التى لاشك فى وقوعها ، والتى طال تحذير الإسلام منها ، فتنة التهارش على الحكم والتقاتل على الإمارة ، ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأى ثمن ، وماستتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود ، وعدوان على الأموال والأعراض . . وهذا المرض كان من لوازم الطبيعة الجاهلية التى عاشت على العصبية العمياء . .

والعرب فى جاهليتهم ألفوا هذا الخصام والتعادى ، فهم كما قال دريد بن الصمة :

يغار علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وقد غلبت طبيعة الإسلام فى العصر الأول طبيعة العرب ، واستفاضت نصائح النبى ﷺ لقمع هذه الغرائز الشرسة . .

وتدبر قوله للأنصار : «**إنكم ستجدون أثرة بعدى**» قالوا : فما تأمرنا؟ قال : «**أدوا الذى عليكم وسلوا الله الذى لكم**» وهذا القول أحكم و أشرف مايعالج به نبى أدواء قوم . .

ماذا يصنع الرجل الكفء إذا جحدت كفايته ، وتقدم غيره بوسائل مفتعلة؟ أيقاتل وليكن مايكون؟ لا ، ليؤد واجبه الذى عليه ، وليسأل الله ـ لا الناس ـ الحق الذى له ، وليرض بما يقسمه الله له فى الدنيا ويدخره له فى الأخرى . .!!

فإذا شاعت بين الناس تلك الخيانات فليحرض المؤمن على الترفع والتنزه ، وليرفض المشاركة فى معارك المال والجاه والمطامع والوجاهات ، وليستمسك بعروة الإيمان متجاوزًا تلك الصغائر التى يهلك فيها أصحابها ، وذاك معنى قول رسول الله ﷺ : «**ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الساعى ، من تشرف لها تستشرفه ، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذًا فليعذ به**» والحديث يوصى بنفض اليد من هذه الفتن ، ويذكر أن صاحب الجهد القليل فيها خير من الناشط المتحمس ، ثم ينصح المؤمن أن يبحث عن حصن يعوذ به من شرورها!!

هل يعنى ذلك العزلة وترك الأمة دون ناصح أمين ، ورائد مخلص؟ كلا . . إن العزلة قد تصلح للبعض ، وقتًا ما ، ولكنها لاتصلح للأمة كلها بداهة وإلا كان ذلك حكما عليها بالفناء!!

غير أن بعض العلماء للأسف تأول هذه الأحاديث ونظائرها مما ورد فى أبواب الفتن على أنها دعوة للانسحاب من المجتمع وترك بناء الإسلام ينهار على أساس أن الدنيا إلى شر ، وأن الدين إلى غربة وأن المؤمنين إلى استضعاف . . وأن النجاة أولى!!

وذلك كله إفك ، فإن الإسلام لما يكتمل بعد كيانه السياسى ، ولما يبلغ سيله ـ بعد ـ مداه الطبيعى ، وقافلة الإسلام التى تحركت من أربعة عشر قرنًا ، وتعثرت حينًا وهرولت حينًا آخر ، لاتزال على الدرب العتيد ماضية إلى وجهتها المكتوبة لها من الأزل ، تلك الوجهة التى قال القرآن فى تحديدها : ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾(١) والتى ذكرها النبى ﷺ

---

(١) الصف : ٩ .

فى أحاديث صحيحة أولى بالنشر والترويج من أحاديث الفتن التى أولع الضعفاء برواياتها وسوء شرحها . .

ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : «**إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها**» . .

وروى الإمام أحمد فى مسنده عن تميم الدارى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**ليبلغن هذا الأمر مابلغ الليل والنهار!! ولايترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين ، يعز عزيزًا ويذل ذليلاً ، عزًّا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل الله به الكفر . .**»

وكلمة مابلغ الليل والنهار فى هذا الحديث الرائع كلمة جامعة من خصائص البلاغة المحمدية ، ولا أرى نظيرًا لها فى الدلالة على السعة والانتشار!!

ومارواه أحمد عن تميم الدارى يؤيده مارواه عن المقداد بن الأسود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**لايبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام يعز عزيزًا ويذل ذليلاً ، أما الذين يعزهم الله فيجعلهم من أهلها ، وأما الذين يذلهم الله فيدينون لها**» .

وكذلك مارواه عن قبيصة بن مسعود : صلى هذا الحى من محارب ـ اسم قبيلة ـ الصبح ، فلما صلوا قال شاب منهم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «**إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها ، وإن عمالها ـ أمراءها ـ فى النار إلا من اتقى وأدى الأمانة**» .

ويقول صاحب المنار فى نهاية تفسيره لقوله تعالى : ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ . .**﴾[1] «اعلم أن الاستدلال بما ورد من الأخبار والآثار فى تفسير هذه الآية لا يدل هو ولا غيره من أحاديث الفتن على أن الأمة الإسلامية قد قضى عليها بدوام ماهى عليه الآن : من الضعف والجهل كما يزعم الجاهلون بسنن الله ، اليائسون من روح الله ، بل توجد نصوص أخرى تدل على أن لجوادها نهضة من هذه الكبوة ، وأن لسهمها قرطة بعد هذه النبوة كالآية الناطقة باستخلافهم فى الأرض ـ سورة النور ـ فإن عمومها لم يتم بعد وكحديث «**لاتقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا ، وحتى يسير الراكب بين العراق ومكة لايخاف إلاضلال الطريق**» رواه أحمد ، والشطر الأول منه لم يتحقق بعد ، ويؤيده ويوضح معناه

(١) الأنعام : ٦٥ .

ماصح عند مسلم من أن مساحة المدينة المنورة سوف تبلغ الموضع الذى يقال له أهاب ، أى إن مساحتها ستكون عدة أميال . فكونوا ياقوم من المبشرين لامن المنفرين .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾[1] .

وخطأ كثير من الشراح جاء من فهمهم أن ترك الشر هو غاية التدين ، وأن اعتزال الفتن هو آية الإيمان .

وهذا عجز سببه ضعف الهمة وسقوط الإرادة ، وإنى لأذكر فيه قول المتنبى :

إنـا لفى زمـن تَـرْكُ القبيح بـه　　　من أكثر الناس إحسان وإجمال

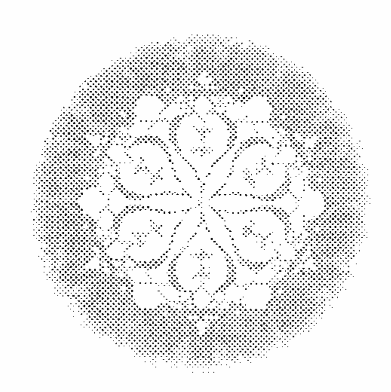
أجل ، فإن ترك الصغائر غير بلوغ الأمجاد ، وتجنب التوافه والرذائل غير إدراك العظائم وتسنم القمم ، التلميذ الذى لايسقط شىء ، والذى يحرز الجوائز شىء آخر . .!

والرسول الكريم عندما يأمرنا باعتزال الفتن لاينهى واجبنا عند ذلك الحد . .

سوف يبقى بعد ذلك الاعتزال الواجب ، بناء الأمة على الحق ، ومد شعاعاته طولاً وعرضًا حتى تنسخ كل ظلمة . .

ولانمارى فى أن تصدعات خطيرة أصابت الكيان الإسلامى قديمًا وحديثًا . . بيد أن الضعاف وحدهم هم الذين انزووا بعيدًا يبكون ، ويتشاءمون ، وينتظرون قيام الساعة!!

أما الراسخون فى العلم فقد أقبلوا على رتق الفتوق ، وجمع الشتات ، وإعادة البناء الشامخ ، حتى يدركهم الموت أو القتل وهم مشتغلون بمرضاة الله ، حتى يبلغ الإسلام مواقع النور والظل من أرض الله ، أو كما قال الرسول العظيم : «**مابلغ الليل والنهار**» . .



(١) ص : ٨٨ .

الوسطية فى معاملة الإسلام للمرأة

الحضارة الغربية التى تهيمن على العالم جعلت من أزياء النساء معارض فتنة ومصايد إغواء! ولست ممن يكرهون تجمل المرأة ، أو رغبتها الطبيعية فى أن يكون لباسها حسنًا ، ولكنى نبهت مرارًا إلى فروق شتى بين التجمل والتبرج ، والاحتشام والإثارة ، واستبقاء مظاهر الأنوثة وإطلاق العنان لها كى تهيج وتردى!!

إن هناك ملابس لليل وأخرى للنهار ، وملابس للصباح وأخرى للأصيل ، وزخرفًا خاصًا بالربيع وآخر للخريف ، وملابس الشتاء غير ملابس الصيف ، لا فى التغطية بل فى التحلية والتجلية!!

لم هذا كله؟ إن الحضارة المنتصرة ترفض أن يحكم الإيمان الشارع العام!! وحجتها أن هناك متدينين يقولون : لاتخرج المرأة إلى الشارع أبدًا ، وإذا أذن لها بالذهاب إلى المسجد ، فليكن السماح لها بذلك فى نطاق ملابس المطبخ الحاملة لروائح البصل والتوابل!!

ونحن نأبى أن تتحول الإباحة إلى فوضى ، كما نأبى أن يتحول البيت إلى سجن ، وللوسطية الإسلامية منهج آخر بعيد عن الإفراط والتفريط بعيد عن التعنت والتبذل!!

وتقاليد الحضارة المنتصرة التى غلبت العالم ـ واستغلت غباء بعض المتدينين فى انتزاع الزمام منهم ، وفرض نفسها عليهم ـ هذه الحضارة لاتأبه للحلال والحرام ، وتصارح بأنها ترفض الكبت الموقوت والدائم ، ومن هنا يسرت للغرائز التنفس بكل وسيلة متاحة!

وليس يفرق بين الإنسان والحيوان إلا أن الحيوان لايدرى مايساق إليه ، أما الإنسان فهو يفعل مايفعل عامدًا قاصدًا . .!!

ولقد سوت الشيوعية بين الرجل والمرأة فى مباشرة كل عمل قاس أو سهل ، ونساء موسكو غالبًا هن المشرفات على تنظيف الميادين والدواوين ، والفرق بينهن وبين النسوة الغربيات أنهن أقل زينة وأخف تبرجًا ، وذلك فى الغالب للفقر الشيوعى السائد . .!!

وقد رأينا صورًا لفرق المجندات فى الجيش الأمريكى! لقد بلغن ألوفًا وألوفًا ، ورأيت صورة إحداهن وهى تودع طفلها منطلقة إلى الميدان ، وكانت دامعة العين! قلت لنفسى : ألم يكن فى جماهير الشباب العاطل مايغنى عن خروج النساء للحرب؟

إن أعداد الرجال تكفى فى هذا الشأن لكن الفلسفة التى تسود العالم هى التسوية التامة بين الجنسين فى مباشرة كل شىء!

لعلها رد فعل لسلوك متدينين كثير ، يرون أن المرأة تحجب عن كل شيء ، وأنها لاتصلح لشيء . .!!

والوسطية الإسلامية لها منطق آخر ، ومسلك أجدى وأرشد! لابأس أن تقاتل المرأة مدافعة عن بيتها ودينها وشرفها . إذا اضطرت لذلك في حالة الدفاع ولامعنى لتجنيدها في حرب هجومية .

لابأس أن تعمل المرأة في أي حرفة أو مهنة بعد توفير الضمانات الشرعية التي تصون عرضها من الهمس القريب أو البعيد ، لكن هناك قبل هذا كله أو بعد هذا كله أن البيوت الخالية من رباتها تنشئ أسرًا على الورق ، وتعرض مستقبل الأطفال لضياع مؤكد . .

هناك عمل لا تحسنه إلا النساء ، هو تبعل الرجل وحضانة الولد ، وكل مايصرف عن ذلك يهدد الحياة البشرية في الصميم .

والعوج الذي يلاحظ في السلوك العام ، منشؤه الأول فراغ البيوت من المرأة المسئولة عن بيتها . . الحانية على أولادها ، وقد أحس نفر من المصلحين خطورة هذا الوضع ، وشرعوا ينبهون إلى آثاره السيئة ، بيد أني لم أجد اعترافًا أصرح ولا أخلص من كلام الزعيم الروسي «جورباتشوف» وهو يحاول إعادة البناء في روسيا الشيوعية ، وبعد أن ننقل كلامه كله نسجل تعليقنا عليه :

قال : «غالبًا ماينظر إلى درجة تحرير المرأة كمقياس للحكم على المستوى الاجتماعي والسياسي للأمة .

ولقد وضعت الدولة السوفيتية حدًا للتمييز ضد المرأة كان سائدًا في روسيا القيصرية بتصميم ودون مساومة ، وكسبت المرأة مكانة اجتماعية يضمنها القانون ، وتتساوى مع مكانة الرجال ، ونحن نفخر بما قدمته الحكومة السوفيتية للمرأة : نفس الحق في العمل كالرجل ، والأجر المتساوي للعمل المتساوي ، والضمان الاجتماعي ، كما أتيحت للمرأة فرصة للحصول على التعليم ، ولبناء مستقبلها ، وللمشاركة في النشاط الاجتماعي والسياسي .

ولكن طوال سنوات تاريخنا البطولي الشاق ، عجزنا أن نولي اهتمامًا لحقوق المرأة الخاصة ، واحتياجاتها الناشئة عن دورها كأم وربة منزل ، ووظيفتها التعليمية التي لاغنى عنها بالنسبة للأطفال .

إن المرأة إذ تعمل في مجال البحث العلمي ، وفي مواقع البناء والإنتاج والخدمات ، وتشارك في النشاط الإبداعي ، لم يعد لديها وقت للقيام بواجباتها اليومية ـ العمل المنزلي ، وتربية الأطفال وإقامة جو أسري طيب ـ لقد اكتشفنا أن كثيرًا من مشاكلنا

فى سلوك الأطفال والشباب ، وفى معنوياتنا وثقافتنا ، وفى الإنتاج ـ تعود جزئيًا إلى تدهور العلاقات الأسرية ، أو الموقف المتراخى من المسئولية الأسرية ، وهذه نتيجة مناقضة لرغبتنا المخلصة والمعلنة سياسيًا فى مساواة المرأة بالرجل فى كل شىء والآن فى مجرى «البروسترويكا» بدأنا نتغلب على هذا الوضع ، ولهذا السبب فإننا نجرى الآن مناقشات حادة فى الصحافة ، وفى المنظمات العامة ، وفى العمل والمنزل ، بخصوص مايجب أن نفعله لنسهل على المرأة العودة إلى رسالتها النسائية البحتة . .» .

وهناك مشكلة أخرى ، هى استخدام المرأة فى الوظائف الشاقة الضارة بصحتها ، وهذا هو تراث الحرب التى فقدنا فيها أعدادًا ضخمة من الرجال ، والتى خلفت لنا نقصًا حادًا فى اليد العاملة فى كل مكان ، فى كافة مجالات الإنتاج ، لقد بدأنا الآن نعالج هذه المشكلة بشكل جاد ، (انتهى كلام جورباتشوف) .

وأحسب أن ناسًا منا سوف يصيحون : ألم نقل لكم هذا؟ إننا معذورون حين حظرنا على المرأة الخروج للحياة والعمل! هاهو ذا شاهد من أهلها يمشى فى الاتجاه نفسه .

لقد شاهدت متدينين فى أوروبا وأمريكا ، وأفريقيا وآسيا يقولون : إن المرأة شيطان أو هى عون للشيطان ، وكل فتاة هى حواء التى أخرجت آدم من الجنة ، ولابد من تضييق الخناق عليها حتى نأمن شرها!!

وكان هذا التضييق القاتل لإنسانية المرأة من وراء الانفجار الذى صبغ المدنية الغربية وآذاها .

ونحن لانجنح إلى طرف من الطرفين المتباعدين ، هذا يسجن المرأة فى البيت وهذا يطلقها فى الشارع . . لقد أغنانا الإسلام عن تجارب تخطئ وتصيب ، وتحلو وتمر ، وهدانا صراطًا مستقيمًا .

نحن بحاجة إلى من يعرف دين الله حق المعرفة ، ثم يعالج القضايا كلها بإيمان واع ، لابفكر قاصر متشائم هدام .

الذى يمنع المرأة من حق الحياة والعمل فى الإطار الشرعى المناسب لفطرتها لايقرر حقيقة شرعية ولاوضعية!! والذى يتيح لها كل اختلاط وييسر لها كل احتراف لايقرر حقيقة شرعية ولا وضعية .

هناك مجتمع بناه صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ورجاله الكبار ، لماذا لاندرسه ونتأسى به ، ونحاول أن نضع المرأة فى المكانة التى وضعها فيها القرآن ورعاها الرسول عليه الصلاة والسلام .

الفهرس